الافتتاحية:

مقدمة
وقفة وملاحظة

■ د.علي عقلة عرسان■

في حديثنا المشترك الذي تناول جوانب عديدة منها الجانب الفكري، أكد نائب رئيس اتحاد كتاب الصين على إحياء التعاليم الكونفوشيوسية والاهتمام بها، وتلك عودة، فيما يرى، تشكل مدخلاً للتأصيل ولتوحيد الصينيين.

الكاتب المشارك في اللقاء كان من قطاع عسكري يعنى بالمجلات والإنتاج الأدبي والفكري الصادر في قطاع البحرية في الجيش الصيني، أكد أنه بنشر الكونفوشيوسية يمكن استعادة تايوان لتتوحد مع الصين. وعلى الرغم من أنه بوصفه عسكرياً أقرب إلى منطق القوة واستعمالها لحسم الأمور، لا سيما في القضايا القومية الشائكة والدولية المعقدة مثل قضية تايوان . لأن القضيتين الأخريين: هونغ كونغ ومكاو اللتين تشغلان الصين إلى جانب قضية تايوان قد حلتا، الأولى عادت إلى حضن الوطن والثانية موعد عودتها هذا العام 1999 . إلا أنه يرى أن إحياء الكونفوشيوسية كفيل بتقريب وجهات النظر بين الصينيين حتى الوحدة. فهل الذي فرقهم هو الماركسية – اللينينية وفكر ماو زي دونغ وعمق ذلك من بعد ما جاءت به الثورة الثقافية التي أتت على الكثير مما هو حيوي ومعنوي وأصيل في الثقافة الصينية، حتى قاومها الشيوعيون أولاً؟!

أذكر أنني في زيارتي الأولى للصين، مطلع الثمانينيات من القرن العشرين،

رافقني ناقد أدبي خارج لتوه من /معزل/ أو منفى وضعته فيه الثورة الثقافية، هو قرية أو مزرعة تعاونية، مع الفلاحين ليتعلم هو وأمثاله من المثقفين كيف يكتبون عن الناس من واقع حياتهم وإنتاجهم، في ظل فهم الثورة الثقافية للفكر الشيوعي وتطبيقه، وكانت المرارة تطفُر على لسانه مع كل كلمة يقولها ومعاناة يستعيد مرارتها. كان ذلك بعد مدة قليلة من انتهاء الثورة الثقافية/ 1966ـ 1978 / وانحسار ظلال عصابة الأربعة الذين منهم زوجة ماو زي دونغ، التي كانت تعمل تحت مظلته عملياً بصرف النظر عن الأسباب والتفاصيل. وأود قبل التفاعل والتواصل مع نماذج من القصة والرواية ومؤلفين صبوّا عصارة عطائهم ورؤيتهم الإبداعية فيها، أود أن أتوقف عند موضوع الثورة الثقافية وما أراه بعض الجذور والمفاهيم الخطرة، والتوجهات التي تنطلق من الحرص والحماسة الوطنية والرؤية الثورية لكنها لا تلبث أن تجد نفسها في مأزق كبير قادت إليه الحماسة والتطرف في الرؤية الثورية، وربما المراهقة الثورية.

وفي أثناء قراءتي لسيرة الكاتب الكبير لوشين/ 1881 . 1936 م / وبعض أعماله، وهو من الثوريين الأوائل، ومن الذين حملوا راية التغيير والثورة على القديم في المجتمع الصيني إبان نشوء جمهورية الصين ونضالها ضد عوامل التخلف ومن أجل التحديث في الداخل وضد تحديات الاستعمار في الخارج، وقفت على ما يمكن أن يستغرب بعض الصينيين فهمي له، وهو تأثر لوشين بمفهوم الحداثة الفوضوية . التدميرية التي سادت أوربا في بداية القرن ونمت في دِمَن الحرب العالمية الثانية. وما دعا إليه لوشين في وقت ما وصولاً إلى التحديث والمجتمع الحديث، فيه عدل وحق وروح ثورية متجلية، ولكن فيه أيضاً وبالقدر ذاته مخاطر على الحضارة والشخصية الثقافية الصينية وأصولها وأصالتها، وعلى الحسن الجيد من تقاليدها. يقول لوشين الذي أطلق على أعماله "تدمير مقابر الأجداد": " إن أمامنا مهمة عاجلة هي: أولاً: البقاء، وثانياً: اللباس الدافي والطعام الكافي، وثالثاً: التنمية. وإذا كانت هناك عقبات للتقدم نحو المستقبل يجب الإطاحة بها سواء أكانت قديمة أو حديثة، بشراً أو أشباحاً، ولو كانت تلك العراقيل هي "سان فين و "وو ديان"، ومئات الكتب المطبوعة في أسرة سونغ وآلاف الكتب المطبوعة في أسرة يوان، أو الأحجار الكريمة الثمينة ورسومات الألغاز القديمة، أو الأصنام البوذية المذهبة واليشمية، أو الأدوية الصينية التقليدية الشهيرة المتوارثة، أو المراهم المصنوعة سراً. حتى أنه وجه النداء للشباب الصيني بالامتناع عن مطالعة الكتب الصينية وكتب الخرز النافر، معبراً

عن حماسته وتصميمه على معارضته الكاملة للإقطاعية، و"المعارضة الكاملة للتقاليد".[1]

إن ما ينشده لوشين مشروع، وما يثور عليه يستدعي ثورة واعية تقوم على معرفة واعية. وهذا الذي قاله لوشين يلتقي على نحو مثير مع دعوة الحداثيين والفوضويين الأوربيين الذين يقولون في تحديد لرؤيتهم ومواقفهم من التراث والمستقر الاجتماعي: " ليس هناك أي غموض: فـ "التقاليد" أو " التراث" جميع تقاليد العالم موضوعة في سلة واحدة لا تساوي، ببساطة، إلا عبودية خانعة، في حين أن الحداثة تساوي الحرية؛ ليست هناك أية نهايات مفتوحة أو مهملة." امتشقوا معاولكم، تنكبوا فؤوسكم ومطارقكم، وبادروا إلى التحطيم. حطموا المدن المجللة بالوقار بلا رحمة ! تعالوا هيا أشعلوا النار برفوف المكتبات، حولوا مجاري القنوات حتى تغرق المتاحف!؟ فليأت فرسان الحرائق المبتهجون بأصابعهم المتفحمة. !! هاهم أولاء قد وصلوا..". [2] لقد سجل الأدب وصفاً وموقفاً من الثورة الثقافية وما جرى في أثنائها من ممارسات، أتت على الكثير مما يشكل رصيداً حضارياً للصين. ففي رواية عاشق اليشم تقول الكاتبة هدى: "فجأة اقتحم دار الثقافة والذوق جماعة من الحرس الأحمر الشباب بالزي العسكري، فخربوا الجدار الحاجز الخشبي ذا الزخارف المنقوشة، وطمسوا لوحات الممر بطلاء أسود، وكسروا باب الغرفة السرية، وخطفوا سائر مخزونها ".[3]

ومخزونها كان من قطع اليشم النادر المشغول بعناية فنية فائقة حافظ عليها ملك اليشم ونقلها في الحرب إلى لندن ثم عاد بها إلى بكين .. ليحفظ ثروة الوطن فيه.. فكان أن لقيت هذا المصير، و" اختطف قلبه مع يشمه نادرة كان لها تاريخ

---

[1] . الصّينيّون المعاصرون التقدّم نحو المستقبل انطلاقاً من الماضي . الجزء الأول . تأليف: وو بن . ترجمة: د. عبد العزيز حمدي . مراجعة: د. لي تشين تشونغ . ص 29 . منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت . سلسلة: عالم المعرفة . العدد 210 / حزيران 1996

[2] . حداثة التخلف ص 15 وهو عنوان لكتاب عنوانه الأصلي بالإنكليزية: all that is . A solid melts into air / the experrience of Modernity تأليف: مارشال بيرمان . ترجمة: فاضل جتكر . منشورات: دار كنعان للدراسات والنشر. دمشق 1993 ط1

[3]عاشق اليشم ج2 ص 309-310.

عريق يرجع إلى أكثر من خمسة آلاف سنة عبر الأسر الملكية المختلفة مثل شانغ وهان وتانغ وسونغ ويوان ومنغ وتشينغ، وكانت بأشكال جميلة كالتنين والحصان والزهر والسحب وثقالة الورق، وكانت موادها تختلف ما بين اليشم والعقيق والجاديت.. وكيف يمكن لملك اليشم أن يعيش إذا ما فقد يشمه؟!"[4].

في اليوم التالي أجبر الحرس الأحمر هان تسي تشي على الاعتراف بـ " ماضيه الفاسد"[5] ولم يتوقف الانتهاك عند حدود الممتلكات والأجساد والتاريخ والمعتقدات، وإنما وصل إلى الأموات والمقابر. ففي الجبل الغربي قرب بكين أرض خضراء" كانت هذه الأرض هي المقبرة العامة للمسلمين لكن الكارثة الخطيرة، ألا وهي الثورة الثقافية، قد اكتسحت المقبرة فذهبت بأكوام القبور والشواهد، تاركة هذه الأراضي الخصبة تغذي أشجار الفواكه فتعطي ثماراً وافرة كل سنة."..." وتحت ضوء القمر، وبجانب شجرة كمثرى .. ارتفع لحن كمنجة...".

إن هذه دعوة إلى الهدم وليس إلى الهدم البنّاء أو الهدم من أجل البناء، وهناك فرق يحدده برتراند راسل على النحو الآتي: " نبني عندما ننتج بنية طبق تصميم سابق، ونهدم عندما نطلق القوى الطبيعية لتغير من بنية موجودة، غير مهتمين بما تكون عليه البنية الجديدة"[6].

وحين نقارن هذه الدعوة التي أباحت:" الإطاحة بمئات الكتب المطبوعة في أسرة سونغ وآلاف الكتب المطبوعة في أسرة يوان، وبالأحجار الكريمة الثمينة ورسومات الألغاز القديمة، وبالأصنام البوذية المذهبة واليشمية، والأدوية الصينية التقليدية الشهيرة المتوارثة.. إلخ" نسأل أنفسنا: أليس هذا هو الأب الروحي للثورة الثقافية على نحو ما؟! ألا تكمن دعوة ماو زي دونغ للشباب وخوفه عليهم من أن يقرؤوا الشعر القديم ويتأثروا بالثقافة الصينية القديمة، التي سبق وأشرت إليها في أثناء وقفتي مع الشعر الصيني، ألا تكمن في دعوة لوشين وحماسته غير المدروسة وتأثره بفوضويي بداية القرن التاسع عشر!؟ إنه سؤال أرجو أن أكون مخطئاً في

[4] رواية عاشق اليشم ج2 ص 310 .

[5] المصدر السابق ج2 ص311.

[6] . من كتاب: في التربية: تأليف: برتراند رسل – تعريب: أحمد عبد السلام الكردان ومحمد أحمد الغمراوي ص98 سلسلة الفكر الحديث رقم (4) لجنة التأليف والترجمة والنشر – مصر.

طرحه على هذا النحو.

في وقفتي مع الرواية والقصة الصينيتين تعترضني مشكلة كبيرة وهي أنني قرأت ما يستحق أن أكتب عنه كتاباً، ولا يمكن أن أوجزه على نحو يبقي على سلامته في مقال، كما لا يمكن أن أتجاوز عنه كلياً لأهميته. وربما كان في الحل الوسط الذي يرفضه لوشين وبعض الثوريين مدخلاً للتخفيف من حدة المشكلة ووقعها علي في الوقت الراهن، إذ أشعر بأنني منشد إلى كتاب يفي بما أرى حاجة إليه، وأعد أن يتم ذلك في وقت لاحق.

أولاً: في رواية حلم القصور الحمراء تأليف تساو شيويه تشين عالم ممتع يلخص فلسفة الحكم والتربية والحكمة، ويكاد يقدم منظوراً تطبيقياً لتعاليم كونفوشيوس [7] المتعلقة بالفرد والأسرة والمجتمع والدولة، مجتمع الأب والإمبراطور والمسؤولية الأخلاقية في ظل التراتبية الاجتماعية المرعية الاحترام، ومجتمع العبودية البغيضة والفقر الذي يأكل الشعب بينما ينعم القصر بدفء المغامرات والعواطف، ويشقى المقربون الأعلون من غضب الحاكم الأوحد. وهي تجسيد لرؤية القصر الإمبراطوري للأوضاع وكيفية معالجتها، وللتقاليد وكيفية احترامها والمحافظة عليها وتسليم رايتها من جيل إلى جيل، وللأشخاص الذين توكل إليهم المسؤولية وكيفية قيامهم بها وحرصهم على الولاء الذي لا ينفصل عن الفضيلة والقيمة الاجتماعية وكل ما يتعلق بالمكانة والمصير.

يصعب التخلص من ظلال العطر والسحر والشعر والحب والغيرة والمؤامرة والفساد والمغامرة التي تلف القصر وشخوصه، كما يصعب فهم المجتمع الذي همّش فيه دور المرأة مع كونها الحاضر الأكبر والأكثر تأثيراً في الحياة: البيت والعمل على الخصوص. وأكثر ما يدهش في تلك الرواية، التي تعتبر وثيقة عصرها، هو حضور تقاليد الاحترام والتراتبية الأسرية التي تقود إلى احترام الإمبراطور والخضوع له، في تراتبية سياسية واجتماعية أعلى واضحة الحدود ومرعية التنفيذ.

---

[7]. ونحن نلمس تركيزاً في الرواية على الجانب النظري أيضاً من تلك التعاليم: "سألت الجدة حفيدتها داي يوي عن الكتب التي درستها. فقالت داي يوي: لقد انتهيت مؤخراً من "الكتب الأربعة"(1) لكنني مازلت جاهلة تماماً كتب كونفوشيوس الكلاسيكية / حُلمُ القصور الحَمراء . تساو شيويه تشين – الجزء الأول ص 41 . منشورات: دار النشر باللغات الأجنبية – بكين.

لا أتردد أحياناً في القول: إن رواية حلم القصور الحمراء هي بالدرجة الأولى رواية: المرأة في مجتمع تغيّب فيه المرأة أو رواية حضور الغياب بصورة مؤثرة. ولا يمكن نسيان الظل العالي أو التخلص منه لشخصيات مثل: السيدة الكبيرة، شي فينغ، داي يوي، والمسؤولات عن أداء مهام إدارة القصر الذي يلخص الإمبراطورية على نحو ما والمجتمع الصيني بصورة ساطعة.

وإذا كان الوقت لا يتسع لإطلالة على الجمال المنتشر في تلك المساحة الساحرة، فإنه لا بد من وقت لتذكّر باو يوي الذي عشق حتى الموت، وفسد حتى الهلاك، وأهمل إلى حدود فقدان الأمل منه، ولكنه نجح في الامتحان الإمبراطوري وكان الخامس في الترتيب، وأدى الامتحان احتراماً لرغبة الكبار، وخَلّص روحه ونشد الخلود باللجوء للداويّة، وتنازل عن كل ما في القصر ليكسب خلود روحه [8]. ولم ينس أبداً أن يقوم بواجب الوداع المؤثر لوالده وهو بصحبة الراهب الذي يقتاده، فأدى ذلك حافياً في مقدمة مركب، ثم غادر ليضع قلبه وروحه في الصفاء السماوي بين دهشة والده وفخامة الطقس الفقير الذي قام به في رحلة الوداع لحياة دنيوية يراها رخيصة. (9) لقد فُقد على نحو ما يوم فقدت "يشْبَتَه" التي جاءت في فمه يوم ولادته

---

[8]. في تلك اللحظة طارت روح باو يوي. هل تظنون أنه مات حقاً؟ لقد أسرع إلى القاعة الأمامية كأنما هو في حلم حيث قدم تحيته إلى الراهب الذي كان جالساً هناك. هب الراهب واقفاً في الحال، ومضى به. شعر باو يوي أنه خفيف كورقة شجرة تسبح في الهواء، وغادر القصر بطريقة ما دون اجتياز البوابة الرئيسية./ نص الرواية ج2 – ص291.

[9]. " توقف، ثم عبر نظر الثلج، فلمح على مقدم المركب شخصاً برأس حليق وقدمين عاريتين، يلبس عباءة لباد حمراء. سجد هذا الرجل أمام جيا تشنغ الذي هرع خارجاً من قمرة المركب بقصد إنهاضه ومعرفة من يكونون. لكن الرجل سجد أربع مرات، ثم نهض وحياه تحية بوذية. وأوشك جيا تشنغ على الانحناء رداً عليه، ولكن حين رأى فيه ولده سأله مذهولاً:

– هل هذا باو يوي؟

لم يحر الآخر جواباً، وبدا غارقاً ما بين الحزن والفرح، فسأله جيا تشنغ ثانية:

– إذا كنت باو يوي، فماذا تفعل هنا، وفي هذا الزي؟! قبل أن يتمكن باو يوي من الإجابة ظهر راهب وكاهن طاوي، وأمسك كل منهما بإحدى ذراعيه، وقالا:

– التزاماتك الدنيوية قد وفيت، فلماذا تؤخر رحيلك؟

كما قيل وشاع، وكانت مع راهب ردها إليه وجعله يلقى نفسه، ولكن في معارج الخلود الروحي أو السعي إليه.

ثانياً: الرواية الثانية التي قرأتها وتركت في نفسي أثراً عميقاً وعلمتني أشياء كثيرة: فنياً ومعرفياً [10]، هي رواية عاشق اليشم لهدى، وهي من الروايات الصينية

وانزلق ثلاثتهم نحو الشاطئ، فهرع جيا تشنغ خلفهم برغم أن الطريق كانت زلقة، لكنه لم يستطع اللحاق بهم.

وسمع أحدهم ينشد:

بيتي هو القمة الجبلية الزرقاء،

أطوف في الفراغ البدائي.

من سيذهب معي ليظل في صحبتي،

عائداً إلى قفر اللا نهاية العظيم!

وتبعهم جيا تشنغ حول منحدر، فإذا بهم قد اختفوا. عندها ترنح لاهثاً تتناهبه الظنون." ج2 – ص 340

[10] *. تعلمت من رواية عاشق اليشم معرفياً عدا تاريخ اليشم وصناعته أشياء قدمت معلومات عنها بشكل لا يقل على الرواية من تلك: " جاء الشيخ قوام الدين من الأقطار العربية إلى الصين في عهد الإمبراطور تشن تسونغ من أسرة سونغ الملكية"، أي في عام 295 هجرية 996 ميلادية على وجه التحديد. /ج1 – ص25 / "بدأ دخول الإسلام إلى الصين بوصول رسل الخليفة الثالث عثمان بن عفان عام 651م إلى عاصمة الصين تشانغآن ومثولهم بين يدي الإمبراطور قاو تسونغ من أباطرة أسرة تانغ" /ج1 – ص26 / ومن ذلك التاريخ بدأ المسلمون يفدون من الأقطار العربية إلى الصين في مناسبات كثيرة ولأغراض مختلفة. واستوطنوا هذه الأرض، فتناسلوا وتكاثرت ذريتهم تدريجياً. وتكونت منهم على مر العصور قومية مسلمة هي قومية"هوى هوى" /ج1 – ص26 /*

وتعلمت شيئاً عن المساجد قبل أن يقع في يدي كتاب خاص عن المساجد في الصين: من رحلة دري الدين إذ يقول عنها: "تشيوانتشو حيث مسجد الأصحاب، ثم قصدت مدينة كانتون(قوانغتشو) وزرت مسجد الحنين إلى النبي، ثم مسجد العنقاء في مدينة هانغتشو، ومسجد شياوتاوبوان في شانغهاي، ومسجد جينجيويه في نانجينغ، ومسجد تشينغشيو في شيآن كما تعلمت شيئاً عن رحلة البحار المسلم "تشنغ خه في رحلته البحرية" .وهو الذي سبق البحارة الغربيين جميعاً في اكتشاف ما اكتشفوه وهو الذي جسده المعلم ليانغ النحات اليشمي المتميز في السفينة الرائعة التي مات وهو يرسمها. إن " لوحة"تشنغ خه في رحلته البحرية "من جلال التعبير الفني وعظمته وعمقه" وقد جاء في

المعاصرة لكاتبة مسلمة؛ جعلت أحداث روايتها تدور في بكين ولندن بالدرجة الأولى، ويكتوي أبطالها بنار المعاناة والحرب والفقر، ويعيشون عصر الثورة القاسي، ثقافية وغير ثقافية، وإطلالات التحديث بالفهم الضيق والواسع والمتضارب أحياناً للكلمة.

وترصد الرواية بحب لا ضفاف له تفاصيل تتعلق بفنون صناعة اليشم وتجارته وما يفرضه التعلق به على عشاقه من تكاليف [11]. إنه يوفر لهم بعض الكسب، وحين يقبل الحظ وتواتي الظروف يدرّ ربحاً ويوفر شهرة واسعة، ولكنه يمتص ضوء العينين وحيوية الروح وطاقة الجسد.

من الصعب أن أنسى لوحات فاحمة في هذه الرواية مثل: موت الفنان اليشمي الكبير ليانغ وراء آلته الصغيرة وهو يعمل لينجز تجسيد سفينة الملاح المسلم تشنغ خه في رحلته البحرية، التي تمت قبل خمسة قرون، ينجزها على اليشب تلبية لما طلبه التاجر لزبون بريطاني. هو " هونت": إن الفنان الكبير ليانغ يقول بصدق وعزم: ".. لا لم أقبل هذا العمل للاحتفاظ بسمعة محل التحف النادرة، أو لإظهار مهارتي الخاصة، ولا طمعاً في هذا الثمن، بل صممت على إنجاز هذا العمل لأن تشنغ خه مسلم، ومثلنا من قومية هوى هوى."[12] ... وحتى يعرف الأجانب أن مسلمي الصين قد قاموا بواجبهم نحو وطنهم بصورة جيدة".

ومن الصعب أن تغيب عني صورة البنتين اللتين أنقذهما صبي والدهما ذاك من الحاجة وأنقذ سمعة محل معلمه والصنعة التي انضم إليها، وما حققه من نجاح، ثم ما آل الأمر إليه من بعد حين وقعت الحرب وتم التضييق على ممتلكات أصحاب الصناعات والتحف الجميلة، حيث غادر ملك اليشم إلى لندن ليعيش في الخطيئة

الرواية عن ذلك: "كما أنكم تغلبتم على قصور فن النحت اليمشي بالاستفادة من فن الرسم والنحت على الخشب والنقش على الآجر والنحت الحجري، وبذلك أظهرتم براعة الفنون الصينية الجميلة كلها في عمل فني واحد، وأحييتم مهارة النحت اليشمي وأسلوبه المتميز. " / الرواية: ج1 – ص188 /.

(11) *. كانت أسرة ليانغ يى تشينغ أسرة مسلمة قوية الإيمان. وكان المسلمون من أبناء قومية هوى هوى يشكلون أقلية ضئيلة بين أهالي بكين، والمشتغلون منهم ببضاعة اليشم أقل عدداً، ولعل ذلك هو الذي جعله يعيش قانعاً رهين البيت حابساً نفسه بين الجدران بدافع غريزة الذود عن الذات!" – ج1 – ص20*

(12) *الرواية ج1 ص89*

وينقذ صناعات فنية وكاد يفقد روحه وسعادته وسمعة الأسرة لولا جبروت زوجته التي سكتت وتجاوزت محنة زواجه من أختها، والدين يمنع ذلك الزواج المحرم والمجتمع يدينه.

جميلة رواية عاشق اليشم، وعلاقات شخوصها شفافة وقوية. الحب فيها جارف ولكن في خضم التضحية والتسامي. النشوة الوقحة لا تكاد تلمس لها حضوراً، والنتائج المأسوية التي تترتب أحياناً على تصرف الأسرة من دون معرفة بعض الأفراد ومن دون موافقتهم لا تقدم تقاليد مجتمع صارم مثل ذلك الذي نلمسه في رواية حلم القصور الحمراء، ولكنها لا تقدم حرية بلا ضفاف أيضاً.

وفي هذه الرواية نلمس التحول في العلاقات والمواقف، ونوعاً من الصراع للمحافظة على تقاليد في أوساط شباب يحاول أن يثور على التقاليد، وأقليات ترى هويتها وخصوصيتها في المحافظة على تقاليدها وعاداتها وجوهر عقيدتها وثقافتها وخصوصيتها. وترى نفسها متهمة أو محاصرة بنوع من القصور لذا تستنفر قواها للدفاع عن نفسها.

كيفما حاولت فإن مأساة هلال: الفتاة الجامعية الرقيقة المسلمة [13]، والضحية لزواج محرم إسلامياً من غير مسلم، والمصابة بمرض في القلب من دون أن يعرف أحد بإصابتها إلا بعد فوات الأوان، والعاشقة لأستاذها من دون أمل لهما في الزواج، لما يفرق بينهما وعلى رأس ما يفرق أو ما فرّق بينهما "الدين". على الرغم من السؤال الاستنكاري في الرواية: " وهل هلال تعتنق الدين"؟؟ هلال التي تعاني من المرض حتى الموت، مأساة هلال مؤثرة إلى أبعد الحدود، وتغوص في أعماق نفس المتلقي

(13): والبنت تتغير سريعاً كلما كبرت(...) / ج1 – ص95 / " وتفعل كما تفعل النساء المسلمات عبر الأجيال المتعاقبة. فتدمج آمالها وأمانيها في إيمانها الصادق، وتفضي بحديث قلبها إلى ربها الخالق، وتقول"يا ربي" وهي واثقة أن الله يسمع كل نداء ويعرف كل ما في قلبها وأنه سيمنحها السعادة والسلام". و "... إذا اتفق، في سن الطفولة، أن ألغيت الكتاتيب وأنشئت مدارس حديثة... ولم يكن من السهل أن ترى بنتاً مسلمة تدخل المدارس" /الرواية ج1 – ص 97/.

الذي يصعب عليه أن يتخلص من تأثيرها. [14] وبالمقابل فإن لأخيها نجم السماء قصته المحزنة هو الآخر مع حبيبة لا يوفّق إلى الزواج منها.

إن سيدة أيضاً في هذه الرواية تمسك بزمام الأمور وتقود البيت وترسم الخطط، وتحرم نفسها من الراحة والسعادة بعد أن وجدت نفسها محرومة منهما على نحو ما في ظل الصراع من أجل الحياة والصراع فيها، هي السيدة هان؛ إنها تحافظ على البيت والتقاليد والعقيدة وتريد أن تموت مرتاحة بعد أن تؤدي واجباتها على أكمل وجه.[15]:

تقدم الكاتبة هدى "هوه دا" في روايتها عاشق اليشم علاقتين إنسانيتين تكشف من خلالهما طبيعة الصلات الاجتماعية وعمق العلاقات الإنسانية في المجتمع الصيني، على الرغم من تعدد القوميات والأديان والتوجهات الفكرية. فهلال هان/1943–1963/ الفتاة المسلمة من قومية هوي تحب الأستاذ تشو البوذي من قومية الهان، وتنمو تلك العلاقة البريئة التي نشأت في حرم جامعة بكين بين طالبة وأستاذها متجاوزة حدود الأديان والقوميات، من دون وعي بتلك الحدود في بدايتها، وتتحول بعد موت هلال إلى صلة روحية متينة تجمع أرواحاً وراء حدود الموت والحياة.

تقدم المؤلفة الأستاذ تشو: رقيقاً ودوداً وفياً صافياً كما كان الكمان التي يعزفها. ومنذ لحظة لقائه الأولى بهلال تنشأ بينهما علاقة تتبدى مع الأيام على أنها الحب: وبدا لهلال "الحب بكل وضوح شعوراً نزيهاً، ينبت في قلب الإنسان، ثم يتنامى ويخلد فيه أبداً."، وعلى الرغم من نفور والدة هلال "خالتها" من هذه العلاقة وإفهام الأستاذ تشو الذي طلب الزواج من هلال بأن زواجه من هلال غير ممكن:

السيد هان: إنك لست من ديننا!!

الأستاذ تشو: الدين؟! وهل هلال تعتنق الدين؟!

السيدة هان: طبعاً!! كيف يمكن للمسلمين ألا يعتنقوا الدين الإسلامي؟ إننا

---

[14]. أخفقت هلال في انتظار من أرادت رؤيته، وارتحلت تاركة وراءها كل شيء.. ارتحلت عن هذا العالم برغم كل ما كان لديها من تعلق به أو تغيّظ منه." سلسلة كتب"العنقاء". عاشق اليشم. الجزء الثاني. تأليف: هوه دا.

[15]رواية عاشق اليشم /ص 36.

نؤمن بالله أما أنتم، أبناء قومية هان، فتؤمنون ببوذا...

الأستاذ تشو: لستُ مؤمناً ببوذا ولا بأي دين آخر، أحترم عقيدتكم الدينية، الإسلام يدعو إلى السلام، والتحابب، في صالح البشر، والدين الإسلامي يجعل المرء نبيلاً ويطهر روحه، لدى المسلم الورع احترام للناس.

السيد هان: إن الاحترام لا يعني الاعتقاد...."[16]

إن هلال وتشو "يشتركان طبعاً في وطن واحد ولغة واحدة وهدف واحد ولون بشرتهما واحد..."[17] إلا أن هناك فرقاً يجعل السيدة هان تستنكر في أعماقها قوله "لستُ مؤمناً بأي دين" وتنهي الحوار بقولها: أمّا زواجكما فلن نوافق عليه حسب قواعدنا الإسلامية، ويحسُن بنا أن نتوقف عند هذا الحوار."[18] أقول على الرغم من نفور والدة هلال هان وقرارها بإيقاف الحوار يبقى الأستاذ تشو متعلقاً بهلال؛ ويفقد بوفاتها ما لم يفقده أحد من أفراد أسرتها، ويبقى ما قالته له هلال في وقت سابق رفيقاً لروحه وهادياً له:

"إنني مثلك تماماً صاحبة روح وقلب زاخر... لست أتكلم معك بحكم العادة والعرف، بل لستُ أتكلم معك مستعينة بالجسم البالي، ولكن أتكلم معك بروحي كأننا بعثنا نحن الاثنين من القبر ووقفنا عند قدمي الله متساويين لأننا شخصان متساويان"[19]

إن الأستاذ الشاب تشو الذي تعلق بهلال عاش علاقة حب أظهرت إنسانيته وصقلت جوهرها أكثر مما حطمت جوهر الإنسان فيه، وقد بقي روحه ووجدانه ملتصقين بهلال على نحو لم يبرحا معه القبر الذي نزل في حفرته كواحد من أفراد الأسرة ليضع جثة هلال فيه مع أخيها نجم السماء يداً بيد.

وفي لقاء الأرواح والقلوب ومجتلى القيم ذاك تقدم "هوه دا" صورة لتعايش وتعاون وتفاهم عضوي بين القوميات، أو تريد أن توفر الدعوى لذلك في ضوء الإنساني والوطني؛ وتتسامى بهذه الصورة مع المشاعر والقيم إلى درجة تميزها في

---

(16) رواية عاشق اليشم- تأليف: هوه دا "هدى" ج2- ص 159

(17) رواية: عاشق اليشم- تأليف: هوه دا "هدى" ج2- ص 159

(18) رواية: عاشق اليشم- تأليف: هوه دا "هدى" ج2- ص 159

(19) المصدر السابق، ج1، ص 214.

الأداء عن كثيرين ممن يتوطّن الحقد العنصري في قلوبهم؛ وتجعل ختام روايتها هذه الكلمات المتألقة في صباح ندي على خضرة من الطبيعة وفن اليشم الزمردي البديع:"وتحت ضوء القمر، بجانب تلك الشجرة - شجرة الكمثرى في الحديقة التي كانت مقبرة المسلمين- ارتفع لحن كمنجة بطيء لطيف كأنه نشيج أو مناجاة، يحكي قصة غرامية قديمة رائجة في الشرق ومعروفة لدى الجميع وهي "ليانغ شان بوه وحبيبته تشو ينغ تاي."[20] وهذا يؤكد ما ذهبت إليه المؤلفة حين قالت على لسان هلال لوالدتها "خالتها": "عندما يندمج قلبان بعد اجتياز مسافات طويلة ويتبادلان الثقة المطلقة، وعندما يخفق كل قلب من القلبين قائلاً للآخر: لن أنفصل عنك إلى الأبد، فإن الحب قد وحّد بين هذين القلبين، وما من قوة تستطيع تفريقهما."[21]

ونجم السماء، أخو هلال، يحب فتاة بوذية ويتعلق بها وتخلص له، ويقرر الزواج منها، إلا أن أمه تدبر مكيدة تفضي إلى اعتقاد نجم السماء بانصراف حبيبته عنه واعتقاد تلك الفتاة بأن نجم السماء غدر بها؛ لأن الأم لن ترتاح ما لم تزوجه من فتاة مسلمة. وقد تزوج نجم السماء من فتاة مسلمة هي تشن تشو يان، ولكنه لم يسلَم من مواجهة النقد لموقفه وسلوكه، فقد واجهه زملاؤه في العمل بهذا الاتهام، كما واجهته الفتاة نفسها بذلك. وجراء هذه المواجهة المصحوبة بالاحتقار، لاسيما من قبل زملاء المهنة، كادت تودي بنجم السماء إلى الجنون أو الانتحار في العاصفة الليلية الثلجية الهوجاء التي اكتسحت المدينة كما اكتسحت نفسه.

ولكنه لم يستطع أن يغير من الأمر شيئاً: "إلهي الذي في السماء: لماذا يتعرض الإنسان لبلايا متوالية؟! أنقذني يا رب واهدني إلى الطريق المستقيم (...) وشق القمر الغيم الكثيف في تلك الليلة العاصفة ليطل على نجم السماء التائه بصحبة ظله كشبح على خشبة مسرح مظلمة."[22] إن القدر يعبث بنا أو أننا نتحول على نحو ما إلى قدر حيث يعبث بعضنا ببعض.

وفي القلوب الأربعة:هلال وتشو، نجم السماء وفتاته البوذية، صفاء العلاقة الإنسانية التي تؤسس لها الطبيعة البشرية، على الرغم من عدم نجاح أي من الشخوص الأربعة في تحقيق علاقة اجتماعية تامة. إن التقاليد وحراسها ينتصرون

---

(20) رواية: عاشق اليشم- تأليف: هوه دا "هدى" ج2- ص 333..

(21) رواية: عاشق اليشم- تأليف هوه دا "هدى" ج2- ص176.

(22) رواية: عاشق اليشم- تأليف هوه دا "هدى" ج2- ص91.

ولكن هؤلاء الشباب يخترقون بعزم كبير جدار تلك التقاليد... والصراع يستمر.

لقد نذرت جيون بي /السيدة هان/ ابنة الفنان اليشمي الكبير ليانغ وزوجة ملك اليشم الذي خلفه، نذرت نفسها لحماية التقاليد الأسروية والأصول المرعية، وكانت تعمل بوحي من اعتقادها العميق ورغبتها القوية... تعمل لتحقيق أمل والدها الذي اختلط دمه بغبار اليشم، ومات ولم يحقق الهدف الذي رأى فيه راحة روحه حياً وميتاً، ليس بدافع وفائها لذلك الوالد فقط وإنما لإيمانها أيضاً بذلك الذي كان يرغب في تحقيقه ليموت بسلام واطمئنان، فقد كان هاجسه الملحّ يتجلى في قوله لهان تسي تشي الصبي الذي التحق بالعمل معه: "فإذا قدر لي أن أرى ابنتيّ تُزفّان إلى أسرتين مسلمتين تجدان ما يسد الرمق، وأراك تتزوج وترث في محل التحف النادرة، فإنني أنا وزوجتي سنذهب إلى لقاء ربنا بقلوب راضية مطمئنة.."[23] ونجحت في استرداد محله وسمعة ذلك المحل، وأصبح زوجها هان ملك اليشم في الصين... ولكن أشياء كثيرة أخرى لم تتحقق كان أكثرها فجيعة ومأساوية، ذاك الذي واجهته في لحظة مذهلة قبل وفاة زوجها، وبدت كأنما يعبث القدر عبثاً "مضنكياً" "مضحكاً مبكياً" بكل ما قررت وقدّرت ودبرت لتكون مسلمة ومحافظة على الأصول والاستقامة ونقاء الأسرة وتماسكها!!! فقد اعترف زوجها السيد هان تسي تشي، وهو في مرض الموت، بين يديها بأنه لم يكن مسلماً:

"هان: يا جيون بي، إني خائف..

جيون بي: لا تخف. دع كل شيء إلى الله، وأخلص قلبك لله، فلن تخاف بعون الله.

هان: إني مذنب... أيمكن أن أعتبر نفسي مسلماً؟!

جيون بي: هان.... كيف يمكن لمسلم مؤمن بالله أن يترتيب بكونه مسلماً؟!"[24]

"عشرات السنين أنقطع عن الصلاة والصوم، وتلاوة القرآن الكريم"، حتى أنه لم يؤد فريضة الحج عندما مر بقناة السويس فمن أين له أن يكون مسلماً؟! في أعماق قلبه إثم مقيم قد يودي به إلى أعماق جهنم، فقد تزوج من أخت زوجته، من بينغ يوي وأنجب منها هلال، وهو زواج محرم، بل هو الزنا الأكبر...!؟ وفي خضم هذا

[23] رواية: عاشق اليشم- تأليف هوه دا "هدى" ج2- ص110.؟
[24] المصدر السابق- ج2 - ص 321.

الأسى.. وبحضور كنته وابنه نجم السماء، قال هان لزوجته:

"إني لست مسلماً من قومية هوي..... كنتُ يتيماً من قومية هان... خدعتكم كما خدعت معلمي."[25] و"بهتت السيدة هان وابنتها وكنتها!! هل الدم الذي يجري في عروق خلف أسرة هان دم مزيج من قومية هان وقومية هوى المسلمة؟!"[26]

لقد صعقت السيدة هان، واستنفرت كل ما في تاريخها وتاريخ قوميتها من عزم لتصمد وتواجه الكارثة... لن تدعه يدمر نفسه ويدمر الأسرة"، "أنت مسلم حقيقي من قومية هوى! لا تكن مشوش الذهن! هيا تب إلى الله وتشهّد، واذهب مع الإيمان بالله.. وبهذا تكفر عن ذنبك...(....) فتشهّد بصوت ضعيف متقطع: لا إله إلا الله محمد رسول الله...".[27]

لقد نجحت السيدة هان، نجحت ولو في اللحظة الأخيرة، إن هان تسي تشي نطق بالشهادة، ولم يكن ليمر بخاطرها قبل ذلك أنه غير مسلم... إنه من الأسرة وفي محيط المسلمين ويقوم بكل شعائرهم... ولكن حتى إذا كان لحق بذهنه تشوش بعدما مر به من مآسٍ؛ وموت هلال وحكاية بينغ يوي والكارثة التي ألحقتها به الثورة الثقافية... فإنه أخيراً سيموت على الإسلام بشكل مؤكد. تركت هان يمضي لسبيله بأمان" أمسك هان تسي تشي الشمعتين بيديه المتشنجتين، ومضى في الظلام مترنحاً يحمل معه الندم والأسف والخوف والرجاء."[28]

كانت السيدة هان أمام فجيعة من نوع خاص، فجيعة أمام أسرتها ومجتمعها وروحها وربها... فهي التي دافعت عن الإسلام والتقاليد ونقاء الأسرة وحرصت على اختيار زوجة مسلمة لابنها وقامت بما قامت به من أجل ذلك، كما حرصت على عدم زواج هلال من بوذي، تكتشف أنها ربما كانت طوال حياتها زوجة لشخص بوذي من قومية هان ادعّى أنه مسلم؟! قالت هان: مسلم عاص، ولقنته الشهادة ونطق بها وارتاح قلبها قليلاً. ولكن هل نجحت تماماً في جلب الاطمئنان التام لروحها بعد كل هذا العناء الطويل؟!

---

[25] المصدر السابق - ج2- ص324.
[26] المصدر السابق - ج2- ص324.
[27] المصدر السابق - ج2- ص325.
[28] المصدر السابق - ج2- ص326.

إنها تدفع اصطفاق أجنحةً الغربان الشريرة والأفكار السيئة من فوق رأسها وبين عينيها، ويسيل دمعها ممزوجاً بالقهر، وتريد أن تتماسك وتحفظ الأسرة... تحفظ ما كانه أبوها ليانغ الذي مات وهو يكافح ليجسد سفينة تشنغ خه في اليشم المتوثب حياة، وما سيكون عليه نجم السماء ولدها ويوسف وزهراء حفيديها.

وتلك حقائق التراجيديا الكامنة في أعماق شخوص رواية عاشق اليشم التي أبرزتها "هوه دا" بفنية عالية وتشويق وقدرة على الأداء والغوص في عمق النفس البشرية، مستفيدة من التاريخ، مقدمة غذاء معرفياً ووقائع عاشتها الشخوص، وتقاليد مجتمع المسلمين في بيجينغ "بكين"، وما تزخر به حياة الأسر المسلمة والأقليات من هموم وهواجس وتطلعات... وما يعمل من أجله ويتطلع إليه مجتمع الصين الأوسع من حياة وعلاقات وقيم في ظل التحديث، وما بعد الثورة الثقافية التي لم تترك المؤلفة آثارها على شخوصها من دون إيضاح، لاسيما ما تعلق من ذلك بملك اليشم هان تسي تشونغ وما يملكه من كنوز الحضارة الصينية في هذا المجال.

ومن المفيد التوقف عند هذا الجانب الذي يبدو لي أن الكتاب الصينيين المعاصرين يركزون على إظهار جوانبه وآثاره السلبية في نصوصهم، فلقد سُجل وصفٌ وحُدد موقفٌ من الثورة الثقافية وما جرى في أثنائها من ممارسات أتت على الكثير مما يشكل رصيداً ثقافياً وحضارياً للصين. ففي رواية عاشق اليشم تقول الكاتبة هوه دا "هدى":

"فجأة اقتحم دار الثقافة والذوق جماعة من الحرس الأحمر الشباب بالزي العسكري، فخربوا الجدار الحاجز الخشبي ذا الزخارف المنقوشة، وطمسوا لوحات الممر بطلاء أسود، وكسروا باب الغرفة السرية، وخطفوا سائر مخزونها."[29] ومخزونها كان من قطع اليشم النادر المشغول بعنايةٍ فنية فائقة، وحافظ ملك اليشم /هان تسي تشي/ عليها ونقلها في زمن الحرب إلى لندن ثم عاد بها إلى بكين لكي لا يفرط بثروة وطنية، ولم يبعها على الرغم من الإغراء المالي والحاجة الماسة، عاد بها ليحفظ ثروة الوطن فيه... فكان أن لقيت تلك القطع النادرة ذلك المصير المحزن. أما هان فقد "اختطف قلبه مع يَشَمَةٍ منها نادرة كان لها تاريخ يرجع إلى أكثر من خمسة آلاف سنة عبر الأسر الملكية المختلفة مثل شانغ وهان وتانغ وسونغ ويوان

---

[29] رواية عاشق اليشم- تأليف "هوه دا"- ج2- ص 309-310.

ومنغ وتشينغ، وكانت بأشكال جميلة كالتنين والحصان والزهر والسحب وثقّالة الورق؛ وكانت موادها تختلف ما بين اليشم والعقيق والجاديت (....) وكيف يمكن لملك اليشم أن يعيش إذا ما فقد يشمه؟!"[30]

ولم يقف الحد عند تدمير ما دمر من النقوش والرسوم واليشم، وسلب ما سلب من مالكه، وإنما تعدى الأمر الممتلكات الفنية القيمة إلى السمعة: و.."في اليوم التالي أجبر الحرس الأحمر هان تسي تشي على الاعتراف بـ "ماضيه الفاسد"[31]،ولم يتوقف الانتهاك عند حدود الممتلكات والأجساد والتاريخ والمعتقدات، وإنما تعدى ذلك إلى الأموات والمقابر التي تحفظ عظامهم، ففي الجبل الغربي قرب بكين أرض خضراء مزروعة بالأشجار "كانت هذه الأرض المقبرة العامة للمسلمين، لكن الكارثة الخطيرة، ألا وهي الثورة الثقافية، قد اكتسحت المقبرة فذهبت بأكوام القبور والشواهد، تاركة هذه الأرض الخصبة تغذي أشجار الفواكه فتعطي ثماراً وافرة كل سنة"[32]

لقد استمتعت بقراءة رواية عاشق اليشم، وشدتني شخوصها إليها وسكنت في ذاكرتي، وجعلتني في أثناء تتبع حوادثها أشعر بتأثر شديد، وأعجبتني البنية الفنية المدروسة التي وضعتها الكاتبة لعملها الفني المستقى من حياة حقيقية للشخوص كما قالت، ومن تاريخ أعادت له الحياة في أداء روائي متميز، وبأسلوب فيه رقة ودقة وصف وأداء شاعري وحكمة ومعلومات مفيدة.

لقد سرني ما اطلعت عليه من تصوير لعادات المسلمين وتقاليدهم وأسلوب حياتهم وتعاملهم، وشعرت بتأثير وانفعال وأنا أقرأ ما ذكرته المؤلفة من تعاليم وشعائر دينية وعبارات عربية تستخدم في أثناء مراسم الزواج والجنازة...إلخ.

وإذا كانت الكاتبة قد أطلقت العنان أحياناً للخيال والعاطفة، وقدمت رأيها ورؤيتها فيما يتعلق بحوادث وسلوك أشخاص وأجيال تفتحت على ثقافة التحديث وتعلقت بالغرب أو تأثرت به، وأرادت أن تقيم علاقات اجتماعية جديدة... فذلك حق المؤلف وهدفه أو جل هدفه من عمله.

شخصية واحدة من شخصيات هوه دا "هدا" في رواية "عاشق اليشم" أخذتها

---

(30) رواية عاشق اليشم، تأليف: هوه داه "هدى" ج2- ص 310.

(31) المصدر السابق - ج2- ص311.

(32) المصدر السابق - ج2- ص332.

التجربة بعيداً، وحاولت أن تدوس على ألمها وعواطفها لتتابع اكتشافها وما أرادت أن تعيشه بعيداً عن المجتمع والتقاليد، بعد أن جرحت هي المجتمع والتقاليد والمقدسات فقوبلت بما هو أشد من ذلك..أنها بينغ يوي أخت جيون بي.

إنها فتاة من جيل جديد ذي تجربة مغايرة لمعظم أبناء جيله، جيل اتصل بالغرب وقادته المعرفة إلى الخروج من شرنقة الماضي وإلى الثورة عليه وعلى ما يقدّس ويحترم... ولكنه جيل يتقدم خائفاً مرتجفاً والسيف في يده ليفصل رأس الماضي عن جسد الحاضر. وقد يمضي قليلاً من دون رأس، والدم يتدفق من الشرايين والأوردة، واللسان يردد بعض الجمل والكلمات... ومن ثم تأتي لحظة الهمود: إمّا موتاً وإمّا انفصالاً عن كل ما يشكل طعم الحياة الأصيلة، وخصوصيتها في بيئة ومجتمع وأسرة، في ظل تواصل مع وطن وعقيدة وهوية وتاريخ وتراث.

إنه يتدفق حماسة للمجاوزة، ويمضي على شفرة الحنين يقطع دروباً وصلات وأواصر ،وعندما يعود... ليجد شيئاً يتمنى رؤيته... يصدم بالفقد والمحو والفراق والمتغيرات التي لا تبقى ولا تذر.

إن كلام بينغ يوى الذي تركته لابنتها هلال يسوق رياح المغامرة وتسوقه تلك الرياح على أشرعة الأمل والرؤية والطموح... إنه أمل في إطار نوع من مغامرة يقوم بها جيل أو رواد وخارجون على مجتمعاتهم، تأثراً بمجتمعات أخرى أو هرباً من قسوة مجتمعهم وأحكامه أو غياباً عن عيون يؤذيها ما يجترح بحق القيم والمستقر من أصول، لأن صاحب الفعل الاجتراح يشعر في أعماقه بالخطأ وربما يفتقد الشجاعة اللازمة لممارسة فعل الندم... ولكن الدعوة إلى التغيير تكلف صاحبها أحياناً السعادة، وهو يؤدي فعله ذاك برضا إذا كان يعي جيداً أبعاد مشروعه وهدمه البناء، أمّا إذا كانت مغامرته ضرباً من المقامرة قد تقود إلى كشف من خلال الفعل الاجتراحي... فإنها قد تورث تمرداً أو تثمر فوضى... وقد يكون الألم رفيقاً لصاحبها إذا لم نقل الندم.

تكتب بينغ يوى لهلال الصغيرة: "ترتحل أمك لتواصل غربتها وحيدة، وهذا ليس من أجل لقمة العيش أو البحث عن الحب، وإنما من أجل أن تكتشف نفسها؛ يمكن للمرء أن يفقد كل شيء إلا نفسه، لقد ضاعت من أمك ثلاثون عاماً من الماضي،

وستبدأ فيما بعد الحياة مستقلة حرة."[33] وهذا يذكر بتعاطف المؤلفة مع المرأة الصينية المسلمة وحقوقها وحريتها، فقد ذكرت شيئاً في سياق الرواية يتعلق بذلك الوضع حيث قالت: "الحقيقة أن المرأة في الصين جاهلة فاترة الشعور، وخادمة في إدارة الأسرة، وأداة لإنجاب الأولاد، ومتابعة للرجل، ولا رأي لها في الحب على الإطلاق."[34] وتتابع بينغ يوى رسالتها لهلال:

"تتمنى أمك من صميم قلبها أن توفقي برجل يحبك أصدق الحب وأخلصه وأوفاه، وتأمل ألا تعاني العذاب الذي عانته. ولكن لن يكون الحب جميلاً عذباً كما تتصوره فتاة شابة، فدائماً ما يكون وراءه شرَك أو هاوية(....) وأمل أن يكون لك عقل مدرك وعينان نفاذتان وقلب ثابت حتى تستطيعي التحكم بمسيرك في هذه الحياة المحفوفة بالصعاب فتقتحمينها صعوبة بعد أخرى."[35].

لم تجد بينغ يوى بعد عودة مثقلة بالحنين والألم والمعاناة، لم تجد مما رغبت في أن تجده شيئاً... "لقد ارتحل كل من أرادت رؤيته ومن رغبت عن رؤيته على حد سواء."[36] الأشخاص والأمكنة... كل ذلك قد تغير حتى نجم السماء الذي دفعها الشوق إليه إلى العودة الأولى من لندن، لم يعد ذلك الأمل الذي يشد القلب والروح والإرادة.

لقد اكتشفت بينغ يوى أشياء كثيرة، مميتة ومؤلمة، وربما فيها فرح...وانتهت إلى نتيجة ما... ربما كانت نتيجة قديمة مرت في كتب أسرة يوان التي نادى لوشين بالتخلص منها جميعاً.... ولكن متى انتهت إلى ذلك وكيف؟!

وكذلك انتهى هان تسي تشي إلى يقين بما كان قد عرضه أمامه الشيخ دري الدين يوم تعرّف عليه وتبعه في رحلته الطويلة إلى بكين ولم يتابع معه إلى مكة، فقد قال له منذ وقت طويل:"إن المرء يعبر الدنيا بسرعة، وأن جسده مأوى مؤقت لروحه، وأن حياته الدنيا لمحة قصيرة، أمّا الخلود ففي الآخرة."[37]

كثير من البشر يصحون متأخرين، وكثيرون من المجربين تفشل تجاربهم،

---

[33] رواية: عاشق اليشم- تأليف: هوه دا "هدى" ج2- ص261.
[34] رواية: عاشق اليشم- تأليف: هوه دا "هدى" ج2- ص237.
[35] رواية: عاشق اليشم- تأليف: هوه دا "هدى" ج2- ص262-263.
[36] رواية: عاشق اليشم- تأليف: هوه دا "هدى" ج2- ص332.
[37] رواية: عاشق اليشم- تأليف: هوه دا "هدى" ج2- ص311.

ولكن هذا لا يعني النوم وترك التجربة. وأنا أقدر تقديراً تاماً رأي الكاتبة الذي أبدته في كلمة لها حول الرواية إذ قالت: "إن المرء في حاجة إلى المثل والوهم والجمال، وكذلك في حاجة إلى التصور الجميل والوجدان الجميل لتكوين نفسه"[38] وقولها أيضاً: "وكان لا بد أن يفهم المرء حق الفهم أن التاريخ عديم الرحمة، وأنه ما من أحد يستطيع تغيير التاريخ أو اختلاقه."[39]

هذه وقفة قصيرة مع الثقافة والأدب في الصين من زاويتين: الثورة الثقافية وبعض آثارها، والرواية الصينية في أثرين، أحدهما يقدم الشخصيات والعلاقات والقيم في المجتمع الصيني في قمة الهرم الإمبراطوري، وهو نص قديم ومؤثر ويحظى باهتمام الكثيرين، والثاني نص حديث يتعرض لتقاليد الأقلية المسلمة وعاداتها ومشكلاتها ونظرتها للآخرين في نص ترك تأثيراً واهتماماً هو الآخر، وسجلت مؤلفته حضوراً في الساحة الأدبية الصينية.

ويسعدني أن نقدم في اتحاد الكتاب العرب، وفي مجلة الآداب الأجنبية العدد الثاني الخاص المكرس للأدب والثقافة في الصين، وحين نقدم هذه المساهمة البسيطة في التعريف بأدب بلد يشكل سكانه سدس سكان العالم وترقى حضارته إلى خمسة آلاف سنة من عصرنا هذا نشعر بمدى الحاجة للتعرف إلى هذا الشعب وتاريخه وحضارته وتجاربه وتوجهاته المعاصرة على الخصوص، وهو يقطع مراحل في التقدم والتطوير والانفتاح، ويحقق نجاحات في مجالات التنمية والاقتصاد والصناعات المتقدمة: مدنية وعسكرية.

إن كل معرفة صحيحة تقيم جسراً متيناً بين الشعوب تجتث جهلاً، وتؤسس لصداقة... ونحن تربطنا بالصين وشعوبها صداقة متينة وعلاقات تاريخية ومعاصرة، ونتطلع إلى مزيد من التواصل والتعارف تؤسس له علاقات وطيدة تقوم على الاحترام والثقة والمصالح المتبادلة. وهذا مانأمل أن نحقق خطوات على طريقه.

---

[38] هوه دا "هدى" - *كلمة حول رواية عاش اليشم*- ج2 - ص 338.
[39] هوه دا "هدى" - *كلمة حول رواية عاش اليشم*- ج2 - ص 340.

والله ولي التوفيق

د.علي عقلة عرسان

❑❑



الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب   الاتحاد العام للفنانين العرب

إعلان الخرطوم الثقافي



بسم الله الرحمن الرحيم

***بين** السادس والتاسع من شهر كانون الثاني/ يناير **2005 اجتمع في الخرطوم** عاصمة الثقافة العربية لهذا العام ممثلو الاتحاد العام للأدباء **والكتاب العرب واتحاد** الفنانين العرب وأصدروا إعلان الخرطوم الآتي نصه:*

تتعرض الثقافة العربية وأوجه أدائها الرئيسة: الفكرية والأدبية والفنية لحملة عداء أميركية . صهيونية، ترمي إلى تشويه منظومات القيم العربية والإسلامية، ومقومات الهوية والشخصية لا سيما اللغة العربية والتراث والتاريخ والتقاليد والسمات والعلاقات الاجتماعية الإيجابية التي تشكل بمجموعها روابط الأمة وسماتها وعناصر تمايزها عن الأمم، وتعمل البرامج والعناصر المعادية على تصوير الثقافة والتطلعات القومية والإسلام على أنها عناصر الخطر والتخلف وسبب المعاناة، ومن ثم يحملونها مسؤولية ما يعاني منه الوطن العربي، ويسوغون التدخل الخارجي في الشؤون الداخلية السيادية وغير السيادية للقيام بالإصلاح والتحديث وتغيير الثقافة السياسية والجغرافية السياسية في المنطقة بذريعة محاربة الإرهاب الذي تنتجه التربية القومية والإسلامية وثقافة تعزز ذلك؟ ويتناسون حقيقة أن ما يعاني منه المواطن

العربي وما يقع عليه من ظلم وقسوة وتهميش وما يصيب حقوقه وحرياته الأساسية من حيف وتضييق هو نتيجة الاحتلال والعدوان والاستلاب والنهب الغربي لثروات الوطن بشكل مباشر أو غير مباشر من جهة ولدعمهم لأنظمة وسلطات واقعة أصلاً تحت الهيمنة أو الحماية المباشرة وغير المباشرة للاحتلال الأميركي . الصهيوني والاستعمار الغربي، ومحمية منه بأشكال مختلفة وتعمل وفق برامجه المعلنة وغير المعلنة، لفرض تبعية من خلال ترويج الأنموذج الغربي وتشويه الصورة العربية وجدوى التوجهات القومية، واتهام الفكر القومي والعروبة والإسلام، وتعميق التبعية وتسويغ التدخل عند كل مرحلة ومفصل زمني يستدعيه برنامج الهيمنة الإمبريالية الأميركية المستمر. والأدباء والكتاب العرب والفنانون العرب الذين يستشعرون هذه المخاطر ويواجهون هذه التحديات، ويعرفون ما عاناه السودان الشقيق وما يعانيه منها، ويشاركونه همومه ومهامه وأفراحه وأتراحه، يتوجهون إلى السودان: قيادة وشعباً وأدباء وكتاباً ومثقفين وفنانين بالتهنئة بالمناسبات الكبرى الثلاث التي يفتتح فيها هذا العام 2005 مناسبة الذكرى التاسعة والأربعين للاستقلال، ومناسبة توقيع اتفاق السلام بين الشمال والجنوب بعد عقود من الصراع الذي كلف السودان كثيراً من الضحايا والتضحيات والمعاناة، ومناسبة إعلان الخرطوم عاصمة للثقافة العربية لعام 2005.

ويرون أن هذا البلد الذي قدم الكثير من التضحيات دفاعاً عن الثقافة العربية الإسلامية وعن انتمائه وسيادته وموقعه الثقافي بوصفه جسر تواصل بين الثقافة السودانية والثقافات الإفريقية، وكان يخوض معركة عن الأمة العربية لم تقف معه أمته بالشكل الذي تمليه الواجبات الأخوية والصلات والثوابت المبدئية وضخامة التحديات وشمول المعركة واستهدافها للثقافة العربية عامة ولموقع السودان منها بوجه خاص.

والأدباء والكتاب العرب والفنانون العرب يعلنون من الخرطوم عاصمة العرب الثقافية لعام 2005 باسم اتحاديهم:

1- أننا نقف مع شعبنا في السودان في كل ما يعزز استقلال السودان وسيادته ووحدته الوطنية: أرضاً وشعباً، واستقراره وازدهاره، ويرسخ سلامه الشامل، وهويته وانتماءه لأمته العربية، وضد أي شكل من أشكال التدخل في شؤونه الداخلية تحت أية ذريعة، ونعمل معاً على كشف الأدوات التي تستخدم ضد

أوطاننا وثقافة أمتها من قبل أعداء الأوطان والأمة، ونعمل على فضحها ومقاومة التخريب الذي تساهم به، ونقول لأشقائنا في السودان: لستم وحدكم نحن معكم ونحن مع أمتنا في نضالها المشروع، وعلينا أن نعزز جبهتنا الثقافية ومصداقيتها وحضورها المقاوم في أدائنا الفكري والفني والأدبي لنستعيد الدور الحضاري لأمتنا، ولندفع عنها شرور مركز الشر بالوعي المعرفي والتقدم العلمي والفني وبمستويات الإبداع الرفيع، ونرد على التهم وأشكال المحو والتبعية، والاختراقات التي يحاول القيام بها الموالون لأعداء الأمة. وسوف نستلهم نضال شعبنا وتضحيات شهدائنا وأداء مقاومينا في الجبهات كلها لنرفع مستوى الصمود والمواجهة والاستعداد دفاعاً عن النفس والحق والحرية والعدالة في كل مكان من وطننا العربي.

2. ندرك أن الحرب على الجبهة الثقافية هي الجبهة الأهم في الوقت الراهن، وأن المستهدف بالدرجة الأولى اليوم هو الثقافة السياسية والجغرافية السياسية في وطننا، والهوية العربية بكل مقوماتها، ومنظومات قيمنا الروحية، ومقومات شخصيتنا الثقافية: "اللغة والدين والسمات والعادات والتاريخ والتراث.. الخ"، وثوابت الأمة وحقوقها ومقدساتها والمقاومة الشريفة التي تتصدى للاحتلال والغزو وأشكال التشويه والتدخل الخارجي لتغيير الثقافة وليس لدعم ثقافة التغير أو التغيير بالثقافة والوعي المعرفي، ولذا فإننا سنعزز موقع العربية الفصحى، ونحافظ على التراث بشموله ونستلهمه ونتواصل معه ونصحح النظرة إليه ولا نحدث قطيعة معه كما يريد الغرب وأدواته المستخدمة في المجال الثقافي أن نفعل، وسوف نؤكد أصالة أدائنا في كل تعبير عن واقعنا وتطلعاتنا واستشراقنا لمستقبلنا.

3. نعلن وقوفنا المطلق إلى جانب المقاومة المشروعة لأبناء شعبنا ضد الاحتلال في فلسطين والعراق ولبنان، وندعم مقاومتهم الشريفة وندعو إلى دعمها بكل الوسائل والإمكانيات المتاحة. ونؤكد أن العنصرية الصهيونية والإرهاب ومن يفتكون بشعبنا ومقاومتنا باسم محاربة الإرهاب هم الإرهابيون الذين تنبغي مقاومتهم، وأن من يتواطؤون معهم من الرسميين وغير الرسميين العرب إنما يتواطؤون مع العدو المحتل ضد من يدافع عن الحرية ويتعلق بها ويناضل من أجلها. إن الذين يعملون مع الاحتلال الأميركي والصهيوني يخونون قضية

أمتهم ونضالهم، ويضعفون صفها، ويشكلون اختراقات مدانة في الجسم الثقافي والنضالي والإبداعي للأمة، نرفضه ونقاومه وندعو إلى مقاومته.

4. نعلن أننا مع ثقافة التغيير والتغيير بالثقافة ولكننا لسنا مع تغيير الثقافة وترسيخ التبعية باسم الإصلاح والتحديث، مع اقتناعنا بضرورة الإصلاح والتحديث اللذين يتمان من الداخل وبإرادة وطنية تامة، ونجد أنفسنا في الخندق الأول دفاعاً عن الحريات وضد الفساد ومن أجل الديموقراطية والتغيير البناء في وطننا العربي، وضد من يتدخلون باسم هذه الشعارات لاحتلال الأرض العربية والإرادة العربية والقرار العربي وفرض أشكال التبعية وتشويه الفكر والفن ومقومات الشخصية الثقافية لأمتنا.

5- ندعو الفنانين والأدباء العرب لاستلهام المقاومة ونضال الشعب الفلسطيني وصمود شعبنا في العراق لترفع أنموذجاً وقدوة في النضال والعمل أمام أجيال أمتنا وشعبنا.

6- نؤكد أهمية العمل الثقافي العربي المشترك، والتواصل البناء بين المثقفين والفنانين والأدباء في الأقطار العربية كلها لبلورة رؤية مشتركة ومواقف موحدة من أجل العمل في الداخل، وضد التدخل الخارجي والقمع الداخلي، وبمواجهة من يتاجرون بقيم الأمة ويتعاونون مع العدو والأجهزة الخارجية ضد بلدهم وأمتهم ويشوهون المفاهيم والمصطلحات والأفعال المشروعة، ونؤكد أهمية فضح أولئك الذين يتواطؤون مع الأعداء والمحتلين والفاسدين والمفسدين ضد أمتهم ونضالها وقضاياها العادلة ومصالح الإنسان وحرياته وكرامته في وطنه ويفسدون المعايير والأحكام والقيم ليستمروا في الفساد والإفساد.

7. نشجب التدخل الأميركي في الشؤون الداخلية لكل من سورية ولبنان وتهديدهما، وندعو لاستقلالية مجلس الأمن وعدم تحويله إلى أداة بيد الإدارة الأميركية وبرامجها الإمبريالية، كما ندعو إلى احترام حق الشعب الفلسطيني في العودة إلى وطنه فلسطين وتقرير مصيره بحرية تامة فوق ترابه المحرر، وفي عاصمته القدس.

نؤكد أهمية دور الاتحادات والمنظمات والنقابات القومية في الدفاع عن ثوابت الأمة، والقيام بالتحديث والتطوير والإصلاح، وبتحقيق المشاريع والبرامج النهضوية العربية، وندعو إلى تمكينها من القيام بدورها بكل الوسائل والأدوات

الممكنة، ونرى أنها ينبغي أن تبادر إلى تحمل مسؤولياتها في هذا الظرف التاريخي الحاسم، وتحمي اختياراتها وتوجهاتها السليمة.

8. نجدد تمسكنا بميثاق المثقفين العرب، وعزمنا على متابعة العمل لتحقيق ما جاء فيه، ونذكر بهذه المناسبة بنصه الذي نعتمده مجدداً في إعلان الخرطوم هذا.

ميثاق للمثقفين العرب

نحن المثقفين العرب، الموقعين على هذا الميثاق، استشعاراً منا للمسؤولية التاريخية حيال الأمة العربية وقضاياها وأجيالها، وللدور الذي ينبغي أن نقوم به، عربياً، وعالمياً، بمواجهة التحديات التي يفرضها علينا العصر، والاستقطاب الدولي الوحيد الطرف، والتقدم العلمي والتقني، والاستراتيجية الصهيونية . الإمبريالية القائمة على القوة والقهر ومحو الآخر أو فرض التبعية عليه، نعلن وقوفنا بقوة وحزم، موحدين متماسكين، حول الثوابت المبدئية والتوجهات النضالية التالية:

1. الصراع العربي الصهيوني، صراع وجود مع وجود، ولم يكن يوماً ولن يكون أبداً نزاعاً على حدود، بين العرب والكيان الصهيوني الدخيل المفروض عليهم؛ ويتحدد موقف المثقفين من السياسات والتيارات الفكرية والثقافية والاجتماعية في ضوء موقفها من ذلك الصراع ونظرتها إليه، وينسحب هذا الرأي والموقف على كل أشكال التطبيع مع العدو الصهيوني وكيانه في فلسطين المحتلة، وعلى دعاة التطبيع ورموزه وممارسيه والمروجين له.

2. الحرية والمساواة واحترام الحقوق، والحريات العامة للمواطنين، تلك التي لا تنفصل عنها حرية التعبير ولا تقوم إلاّ باحترامها، وكذلك الممارسة الديمقراطية السليمة في حدود وعي نوعي بخصوصية الواقع والبيئة والمجتمع والمرحلة التاريخية والاجتماعية للأمة العربية، كلها قضايا رئيسة تُجْمِعُ على التمسك بها والدفاع عنها، والتعامل بمسؤولية وإدراك شديدين معها، ونعلن احترامنا للتعدد في إطار الوحدة الثقافية القومية للأمة، واحترامنا لحق الاختلاف كحق طبيعي لجميع المواطنين على أرضية احترام الأنا من دون تضخيم، واحترام الآخر من دون تقزيم، والاعتراف المتبادل بينهما، على أرضية الشراكة التامة الأصلية في الهوية والانتماء والمواطنة والمسؤولية وصنع القرار وصوغ صورة المستقبل

والتماسه؛ وتقرير المصير المشترك للوطن والأمة والدفاع عنهما.

3. الثقافة العربية . الإسلامية، بكل قيمها ومقوماتها وتاريخها وتراثها وموروثها، وكذلك ما في اللغة العربية من حمل معرفي وقيم متنوعة عبر التاريخ، وما لها من فرادة وأصالة وتميز وما فيها من أصول، وما تعنيه وتستثيره في النفوس من قيم ومشاعر، هي بمجملها حدود وطننا الذي نتجذر في أرضه، ونحافظ فيه على هويتنا، وننمي فيه، بوعي معرفي عصري، خصوصيتنا، ونمارس انطلاقاً من ذلك مثاقفة مع الآخر باعتزاز وثقة وانفتاح، رافضين كل قطرية وإقليمية وطائفية تفرّقنا أو تقسمنا أو تشوه نظرتنا ومواقفنا؛ وكلّ قوقعة وفهم مشوهين أو محكومين بموقف مسبق من تراثنا وانطلاقتنا الحضارية، ولا نضع في هذا المجال العروبة في مقابل الإسلام أو الإسلام مقابل العروبة، فهما يتكاملان ولا ينفصلان، وننظر إلى كل تنازع في هذا الاتجاه على أنه تنازع ضارّ ومفتعل ومدمر ويخدم مخططات تعادي أمتنا وثقافتنا، ويرمي إلى فرض التبعية والضعف علينا.

ولا يعني التركيز على الثقافة العربية . الإسلامية، عدم الاعتراف بقيمة الجذر الثقافي العربي قبل الإسلام وأهمية ذلك الجذر، الذي يمتد عميقاً ويؤسس للمعرفة البشرية، ولا التغاضي عن إمكانية حضوره والتواصل معه على نحو ما، كما لا يعني التقليل من أهمية الإضافات التي قدمها ويقدمها العرب من معتنقي الرسالات السماوية الأخرى، فكل ذلك إرث ثقافي عربي نعتزّ به ونتواصل معه وننميّه، ونستشعر حضوره عندما نذكر الثقافة العربية الإسلامية.

4. نحن مع المثاقفة التي تقوم على أساس من الثقة والاقتدار، بأوسع صيغها وأعمق تلك الصيغ وأشملها، ولا نرى في القوقعة أي خير كما لا نرى خيراً في تبعية من أي نوع، لا سيما التبعية الثقافية، ولذا فإننا نرفض سياسات الانغلاق كما نرفض أشكال الإلحاق والغزو والمحو الثقافي، ونتصدى لها، وندعو إلى وضع الخطط والإمكانات اللازمة لذلك، بدءاً من تحصين الوعي المعرفي الذاتي وتعزيز الأمن الثقافي القومي على جميع المستويات.

كما نرفض /عربياً/ تبعية الثقافة للسياسة، وكل صيغ الإلحاق وصوره في هذا المجال، ونعترف في الوقت ذاته بأهمية تواصل الثقافة والسياسة وبضرورة ذلك التفاعل والتواصل، وبمسؤولية كل من الثقافة والسياسة عن الوعي والمصير

الفردي والجمعي، الوطني والقومي، وبمسؤوليتهما أيضاً عن مستوى الحضور الحيوي للأمة وتقدمها الحضاري، ومقدار استشعار أفرادها للسعادة والكرامة.

ونؤكد أهمية احترام العلاقة السليمة بين السياسي والثقافي، ومدى تحول الثقافي . لا سيما عربياً والآن . إلى تابع للخلافية السياسية العربية القطرية، حيث تتفاقم مخاطر الصيغة التجزيئية التعويقية الراهنة عربياً على الحاضر والمستقبل والمصير العربي كله، جراء ظهور القطرية وحضورها كصيغة اعتراضية على القومية، معوقة لها بل نافية لتأثيرها ولضرورتها.

5. نؤمن بأن الخلاص، ثقافياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً، يكون قومياً أو لا يكون. وأن جهودنا سوف تنصب على إعلاء شأن أي فعل أو قرار عربي يأخذ ذلك بعين الاعتبار ويعمل من أجله. وأن حكمنا على أي توجه في هذا المجال يتم على ضوء انسجام ذلك التوجه مع المصلحة العربية العليا، التي تعلو، معيارياً وعملياً وخلقياً، على المصلحة القطرية الضيقة، من دون أن تنفيها كلياً.

6. نؤمن بأن تقدم المجتمع العربي منوط بتقدم البُنى الفردية والاجتماعية والمدنية فيه، تربوياً وتعليمياً وعلمياً، وأن بناء الفرد والمؤسسات بناءً سليماً . علمياً . متوازناً، يتيح فرصاً أكثر للخروج من حالة الإحباط والضياع، وانتهاك الحقوق والحريات، وضمور القيمة الخلقية والشعور بالمسؤولية وعدم احترام الفرد والقانون والمصلحة العامة والآخر الشريك، التي نعاني منها.

ولذلك فإننا نرى في الطغيانية . "الدكتاتورية" . حالة سياسية متخلفة لا تتلاءم مع القيم العربية والتعاليم الإسلامية، ولا تتفق مع روح العصر وتطلعات العرب للمستقبل، وتشكل أهم معوّق من معوّقات التقدّم الاجتماعي والعلمي والروحي والاقتصادي في الوطن العربي. ولذا فإننا نعلن وقوفنا ضد "الديكتاتورية" وأشكال الحكم الاستبدادي أينما وجدت، وندعو إلى العمل من أجل الوصول إلى صيغ سياسية عربية تقوم على المساواة والعدالة وتكرسهما، وتستند إلى أوسع مشاركة جماهيرية في صنع القرار السياسي واتخاذه، والإشراف على تنفيذه والمحاسبة على ذلك التنفيذ، وعلى أساس مساهمة الأفراد بموضوعية وحرية وفعالية: روحية وقومية واجتماعية في ممارسة حقوقهم المدنية وأداء واجباتهم كمواطنين متساوين تماماً، بما لا يعطل الشرائع والتشريعات، وبما يحقق سيادة القانون، وسلامة الوطن، وإيجابية المواطن، وصحة مناخ العيش

والإنتاج والإبداع، وبما يحد من انهيار القيم وانتشار الفساد في العلاقات الاجتماعية والأوضاع العامة، متحاشين العنف ما أمكن ذلك.

إن المثقفين العرب إذ يتمسكون بهذه الثوابت التي تشكل المشترك العتيد الأولى بالرعاية والاعتبار فيما بينهم، يؤكدون عزمهم على تعزيز مكانة الثقافة ودورها، وتحرير ساحتها وتحصين استقلالها ورؤيتها وإرادتها، خدمة للأمة وخدمة للثقافة، وحرصاً على مناخ ثقافي قومي واجتماعي سليم، تنمو فيه القيمة في ظل الفعل المنقذ، وينمو فيه الشعور بالمسؤولية على أرضية الانتماء القومي والإنساني وفي ظلال الحرية والتكافؤ، كما يؤكدون عزمهم على وضع نقاط الاتفاق تلك فوق كل خلاف فيما بينهم والنظر إليها كثوابت مبدئية . قيمية . قومية . نضالية، وجعلها أساساً لمعيار يحكم مواقفهم وتعاملهم، ويحتكم إليه في تقويم الأفعال والسياسات والمواقف والتوجهات والأشخاص.

الخرطوم في 2005/1/9

عن اتحاد الفنانين العرب

نائب الرئيس

أسعد فضة

الأمين العام

علي مهدي

عن الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب

الأمين العام

الدكتور علي عقلة عرسان

□□

عناصرُ دراسةٍ مُقارنةٍ للشعر الصيني والشعر الغربي

زهو غيونغكيان

■ ترجمة: عوض الأحمد ■

عن الفرنسية

يأخذ الشعر معنى مختلفاً حسب العصور، فلكل أمة شعرها ولكل عصر شعره. إنها لمتعة أن نشرع في دراسة مقارنة ول هذا الموضوع آخذين على سبيل المثال الشعر الصيني والشعر الغربي اللذين يتماثلان ويتميزان في نقاط عديدة. ويميلان عموماً إلى موضوعات مشتركة من أهمها:

1 . العلاقات الإنسانية. 2 . الطبيعة. 3 . الدين والفلسفة. وإنني سأسعى إلى بسط دراستي بهذا الترتيب.

العلاقات الإنسانية.

إن أغلب قصائد الغرب تتركز حول الحب في حين أن قصائد الصين تعالج الموضوع كذلك دون أن تمنحه أهمية كبيرة بهذا القدر.

وإذا كانت الروابط بين الأصدقاء والروابط بين الملك والوزراء لا تشغل إلا حيزاً يمكن إهماله في الشعر الغربي فإنها في الصين تملك نفس أهمية الحب في شعر الغرب.

إن قصائد "تكويان" و"دوفو" و"لويو" كانت ستفقد كثيراً من ماهيتها لو أفرغت من صدق ولاء مؤلفيها للإمبراطور ومن ارتباطهم بالوطن وبالشعب.

فيما مضى، كان معلّقو القصائد يميلون إلى عرض قصائد الحب دلالة على

الإخلاص للإمبراطور وعلى الوطنية.

وهكذا فإن "ماو شانغ" معلقاً على كتاب الأناشيد كان يشرح قصائد الحب كنقد سياسي لاذع.

وحسب "زهانغ هويان" فإن الأربعة عشر فصلاً للقصيدة التي كتبها "وين فيكينغ" حول دافع "بوسامان" كانت معلّقة في أسفه لأنه مهمل.

هذا الشرح غير صحيح. ومع ذلك ففي العصور الأخيرة هذه وجد أناس يذهبون إلى الطرف الآخر ويلصقون بطاقات الحب لقصائد تعبر فعلاً عن الإخلاص للملك وحب الوطن.

فمثلاً قُدّمت كقصائد حب أعمال من نوع "ندم الانفصال" و"الرحلة الكبرى" هذا الشرح كذلك هو شرح غير منطقي.

إن الذين قرأوا قصائد غربية يعتقدون بأن الحب كان يجب أن يحتل مكانة مهمة في الشعر الصيني كما هي الحالة في الغرب. إنهم لا يعرفون بأن الصين تختلف عن الغرب من حيث الوضع الاجتماعي والمبادئ الأخلاقية. ففي الصين قديماً لا يشغل الحب مكانة مهمة كما يتوهمه الصينيون المعاصرون وعلى العموم فإن القصائد التي تُغنّى للصداقة هي أكثر عدداً من تلك التي تتناول الحب. إن القسم الأعظم من المجموعات العديدة من القصائد مؤلفة من خلال رسائل وأجوبة مؤلفيها. واليوم ما تزال موضع إعجاب صداقة "سوفو" و"لي لنغ" و "الأدباء السبعة الكبار في عصر "جيان أن" و"لي بي" و"دو فو" و"هان يو" و"مانغ جياو" و"سوسهي" و"هوانغ تنجيان" و"تالان شانغد" و"غوزهنغوان".

ورغم أن صداقة متينة بنيت بين "غوتـه" و"شيلر" وبين "وردزورث" و"كولوريدج" وبين "جون كيتس" و"شيلي" وبين "بول فيرلين" و"أرتور رمبو" فإن القصائد التي تذكر متعة لقاء الأصدقاء بعد الغياب قلما كانت تُنظم.

ثمة أسباب عديدة لكون الشعر الصيني يمنح مكانة أدنى للحب من الشعر الغربي. أولاً إنها الفردية التي تهيمن على المجتمع الغربي المبني في الظاهر على الدولة. وبما أن الحب في قلب الحياة فإنه يأخذ مساحة كبيرة بحيث يبزّ العواطف الإنسانية الأخرى. وبشكل عام بالنسبة للشاعر فإن الحياة هي قصته العاطفية وهذا أيضاً أكثر صحة في الأزمنة الحديثة.. والمجتمع الصيني مبني في الظاهر على العائلة. لكن المصلحة العامة في الواقع هي التي تتفوّق عليه.

في الماضي كان من الشائع أن يمضي رجال الأدب أكثر وقتهم في ممارسة وظيفة عامة بعيداً عن مواطن ولادتهم تاركين "زوجتهم العجوز في البيت" كانوا بالتالي أكثر اتصالاً مع زملائهم وأصدقاء الأدب من اتصالهم مع النساء ومن ثم فإن المرأة مع تقليد فروسية القرون الوسطى في الغرب قد عرفت وضعاً اجتماعياً مرتفعاً نسبياً.

وبما أن الثقافة كانت متطورة فإن النساء كان يمكنهن غالباً أن يتفاهمن مع الرّجال حول مناهج ثقافية وفنية.

أما في الصين وتحت تأثير الكونفوشية فإن النساء لم يستفدن مطلقاً من أي اعتبار. فالحب الزوجي تمليه الأخلاق ونادراً ما ينشأ وفق تذوّق الأدب والفن. يضاف إلى هذا أنه في المجتمع الصيني يُبحث قبل كل شيء عن مهنة رسمية باهرة. ومن كان متهتكاً فهو شخص جدير بالاحتقار، بحسب (الكونفوشيوسيين).

وأخيراً فإن مفهوم الحب يختلف بشكل كبير بين الشرق والغرب. فالحب قبل كل شيء هو مفهوم غربي. أما الصينيون فيمنحون أهمية أكبر للزواج منها للحب. إنه "في حقل أشجار التوت بجانب الماء" يوجد الحب الحقيقي. العاطلون عن العمل ومبغضو البشر وحدهم يسترون في الحياة العاطفية.

إن بعض الملوك (أسرى التهتك) مثل الإمبراطور "يانغدي دي سوي" والإمبراطور "لي هوز" كان ينظر إليهم دائماً بشكل سيء في التاريخ الصيني.

وإذا أمكن القول بأن الشعراء الغربيين يعتبرون الحب تحقيقاً لحياتهم فإن زملاءهم. الصينيين لا يرون في الحب إلا متعة عابرة في الحياة.

في الواقع يسمّي الصينيون الحب حباً بينما الشعراء الغربيون يرون أبعد من ذلك مكتشفين في الحب اختبارات عن الحياة والدين.

وهذا لا يعني أن الشعراء الصينيين غير جديرين بالتعبير عن العواطف العميقة إن قصائد الحب الغربية ترتبط بوصف جمال الشخص المحبوب وعمق العواطف. أما في الصين فإن القسم الأعظم من قصائد الحب تنظم بعد الزواج.

وغالباً ما تكون أجمل قصائد الحب مكرسة للتعبير عن ندم الفراق أو فقدان الشخص المحبوب. إن قصيدة الحب الغربية تتميز بوصف التعلق بالمحبوب.

وأجمل القصائد من هذا النوع توجد عند "شكسبير" و"شيلي" و"براونغ" أما في

الصين فإن قصائد الحب الممتازة هي الأغاني المأساوية أو الدينية: "الشُبيْط" و"مركب السرو" و"راعي البقر البعيد" و"أغنية دوكاويي" و"امرأة متقلبة" و"حكمة الإمبراطور ياندي دي ليانغ الخريفية". و"الحنين إلى الوطن" و"الندم والحلم الربيعي" لـ "لي بي".

وبالاختصار فإنه يمكننا القول بأن الشعر الغربي يتميز بالصدق والعمق والاتساع بينما الشعر الصيني يسطع بالإلماح والرّقة والإيجاز.

الطبيعة

إنّ حب الطبيعة هو عاطفة حديثة نسبياً عند الشعراء في الصين كما في الغرب. في البداية كان الشعر يعكف بالأحرى على الناس والحوادث ولم تكن الطبيعة تلعب إلا دوراً ثانوياً كما في الرسم.

في "كتاب القصائد الغنائية" يستحضر المؤلف الترغلة الساجعة فوق جزيرة النهر ليبرز الشابة الفاتنة التي يغازلها الفتى. وقس على ذلك "القصب المبيض بطبقة الجليد" إنه مخصص لاستدعاء "الشخص من الضفة الأخرى للنهر". إن تحويل الاهتمام نحو الطبيعة يكون تحريراً للشعر لأن هذا ليس فقط يؤدي إلى إغناء الموضوعات ولكنه يسمح أيضاً لأبيات الشعر المكرسة للأشخاص والحوادث أن تصل إلى العمق. إن صعود الاهتمام بالطبيعة هو حركة في تاريخ تطور الفن الشعري. حركة تتحدد في الصين عند نقطة التقاء السلالتين الملكيتين: "جان" و"دي سونغ" في حوالي القرن الخامس وفي الغرب في بداية الحركة الرومانسية يعني في القرن الثامن عشر.

إن الشعر حول الطبيعة رأى النور في الصين قبل الغرب بألف وثلاثمائة سنة. لكن النقاد بشكل عام يحتقرون شعر السلالات الملكية الست وهذا خطأ في رأيي لأنه في عصر السلالات الملكية الست بالضبط تشكّل الشعر حول الطبيعة وبدأ الشعر الصيني منفصلاً عن الموسيقى يبحث عن موسيقاه في إطار اللغة نفسها.

وهكذا انطلقت الأبحاث حول الإيقاع وعرف الشعر الصيني صيغاً جديدة ومراكز اهتمام جديدة ومصادر إلهام جديدة ومواضيع جديدة مستعارة من الفلسفة. ويمكن إذن القول بأن السلالات الملكية الست هي أيضاً مهمة بالنسبة للشعر

الصيني باعتبارها مرحلة رومانسية بقدر الحركة الرومانسية للشعر الغربي.

أما فيما يتعلق بالقصائد التي تدور حول موضوع الطبيعة فإن الشعر الصيني يشتهر بالإلماح والرقة والإيجاز والشعر الغربي بالصدق والعمق والاتساع. وهناك نوعان من جمال الطبيعة: الجمال النشيط والجمال الناعم. فالأول يختص بالجبال الشاهقة والبحر والعاصفة والطوفان والليل الهادئ والصحراء الواسعة والثاني بالنسمة وضوء القمر وبالعطور الخفيفة والظلال وبالهضبة في لحظة الغسق وبلمعان ماء البحيرة ولقد أريد أن يُمثل لهذين النوعين من الجمال في الأزمنة القديمة بالبيتين التاليين من الشعر:

"فرس يخب في الريح الخريفية في شمال جبال يانسبان.

شجرة خوخ تزهر تحت المطر الربيعي في جنوب يانغتسي"

وهذه هي الحالة نفسها بالنسبة للجمال الفني. وإن "ياوني" يعالج المسألة بالتفصيل في "جوابه إلى لي كسيفي". إن الجمال النشيط في الشعر تتمثل في أعمال "لي بي" و"دوفو" و"سوشي" و"كسين كيجي" والجمال الناعم في أعمال "وانغ وي" و"منغ هاوران"، و"ين تفجين"، و"لي شانغيان".

لكننا لو قارنا الشعر الصيني بالشعر الغربي لظهر الأول موسوماً بالأحرى بالجمال الناعم والثاني بالجمال النشيط. إن الشعراء الغربيين يحبون البحر والعاصفة والشاطئ الصخري والوادي وبزوغ الفجر ويحب الشعراء الصينيون الساقية والصفصاف متدلي الأغصان والنسمة والغيمة وانعكاس الجبل في البحيرة وضوء القمر.

لا شك أن هذا يعني هنا العمومية. فالغرب له أيضاً قصائده الموسومة بالجمال الناعم والصين لها قصائدها ذات الجمال النشيط. ولكن ذلك لا يشكل مظهرها الرئيسي. يمكن للشعراء أن يحبوا الطبيعة بثلاث طرق: الطريقة الأكثر سطحية تتمّ بالإدراك الحسي: برودة النسيم، لون ورائحة الأزهار، أصوات العصافير العذبة، خرير الساقية، السماء اللازوردية والماء الصافي.. وهذه الطريقة وقف على الناس العاديين وتقريباً جميع الشعراء لهم ميل نحو هذه الطبيعة في الغرب المعاصر فإن المدرسة الشعرية المسماة في الصين "بالمنحطين" تعرض أعمالاً محشوة بوصف الأصوات والألوان والروائح والمذاقات هذا الهوس يأتي من غرابة أطوار المؤلفين، وأعمالهم ليست من القصائد الجميلة.

الطريقة الثانية هي الانصهار عقلياً مع الطبيعة. وهذا موقف أغلب الشعراء الصينيين وهكذا: "فإنه مع جبل "جينتغ" الوحيد يكون التأمل المتبادل بدون ضجر". "والهواء يهب من بعيد على السهل الواسع والنباتات الفتية تشعر أيضاً بالتجديد" "ويشعر المرء حقاً حين ينظر إلى العالم الهادئ وأفرح الفصول الأربعة بأنها كلها مشتركة".

والطريقة الثالثة هي الحلولية. فالطبيعة التي تعتبر كانبثاق إلهي تملك غرائب غير قابلة للسبر وقوة فوق قدرة البشر تهيمن على الإنسان في كل لحظة.

هنا التعبير عن الإحساس بالطبيعة يصبح ديناً ومزيجاً من الخرافات البدائية والفلسفات الغربية. وهذا موقف أغلب الشعراء الغربيين.

والشعراء الصينيون الذين هم من هذه الشريحة نادرون. فـ "تاوكيان" و"وردزورث" الشاعران المشهوران على كلاهما الطبيعة وأعمالهما تقدم العديد من الخطوط المتشابهة. ومقارنة هذين الشاعرين تسمح لنا بالتأكد من السلوك المختلف للشعراء الصينيين والشعراء الغربيين إزاء الطبيعة.

ولنأخذ على سبيل المثال "العودة إلى مسكني الريفي" لـ "تاوكيان":

"أقطف الأقحوان قرب حظيرة الشرق

وأنتشي برؤية جبل الجنوب في الأفق

وعند المساء يبدو هواء الجبل أكثر برودة

وتعود العصافير منه زرافات

في هذه الأشياء يكمن معنى عميق

وحالما أريد شرح هذه الأشياء لنفسي فإن الكلمات تهرب مني".

ينتج من ذلك أن "تاو كيان" مخلص لعاداته: "أحب أن أقرأ دون الوصول إلى عمق الأشياء" ويكره "النار التي تتخبط في القفص" ويستمتع "بالحدائق البعيدة للعواطف المألوفة" فهو إذن يشعر بالراحة والرضا لعشرة من الخراف مع ثمانية أو تسعة من أكواخ القش وحالته الروحية منفصلة لدرجة "أنه إذ يلحظ أعلى الجبل" "يحس بلذة كبيرة في الاتحاد معه" لكنه لا يسعى عن شرح الأشياء لنفسه. وهذا ما يجعله مختلفاً بشكل أساسي عن "وردزورث" والشعراء الغربيين الآخرين. فالشاعر الإنكليزي ينفر من المألوف أيضاً ويحب الجبل. وهو أيضاً راض عن وجوده لكنه

إنسان يتأمل ممتلئاً بالعواطف الدينية فقد صرّح ذات يوم:

"إن الزهرة الأكثر تفاهة المحمولة مع الريح يمكنها أن تجعلني أستغرق في تفكير عميق لا تتوصل الدموع إلى التعبير عنه". لقد قال أيضاً في قصيدة إنه كان يشعر بأن روحاً تدفع هؤلاء الذين يتأملون ومواضيع كل فكرة وبأن روحاً تتدحرج عبر كل الأشياء".

إن اختراق الروح هذا وهذه الصوفية لا يجمعها شيء بالتأثر المنسجم لدى الشعراء الصينيين مع الطبيعة. فهؤلاء لا يرون في الطبيعة إلا الطبيعة في حين أن الشعراء الغربيين يرون فيها قوى خارقة وغريبة.

الفلسفة والدين

إن السبب الذي من أجله لا يستطيع الشعراء الصينيون الذهاب بعيداً جداً في فهمهم للحب وللطبيعة يكمن في بساطة مفاهيمهم الفلسفية وفي انفصالهم عن الدين. ورغم أن الشعر لا يفيد في مناقشة الفلسفة ولا في الترويج للدين إلا أنه لم يكن ليعرف الازدهار دون أن يجد نفسه في الأرض الخصبة، أي: الفلسفة والدين. وإذا كان الشعر الغربي بإمكانه أن يفوق الشعر الصيني مساحة وعمقاً، فذلك لأنه يقتبس بغزارة من الفلسفة والدين، فبدون "أفلاطون" و"سبينوزا" لم تكن لتوجد المثالية والحلولية المتجليتان عند "غوته" و"وردزورث" و"شيلي".

ولولا الدين لم تكن لتوجد المآسي الإغريقية ولا "الكوميديا الإلهية" لـ "دانتي" ولا "الفردوس المفقود" لـ "جون ملتون". طبعاً يمكننا لأسباب قوية أن نستمتع بالثمرات الرائعة للشعر الصيني المغروس في أرض فقيرة.

لكن في مقابل الشعر الغربي فإنه غير كاف. إنني أحب الشعر الصيني لأنه يسمو على الشعر الغربي في دقة فن القوافي وأناقة التعبير ولكن من جهة المدى والعمق فأنا لا أستطيع الدفاع عنه.

إن طباع الصينيين تشبه طباع قدماء الرومان. إنهم واقعيون جداً وعمليون ولا يستسلمون للغيبيات. وعلى المستوى الفلسفي فقد صاغوا مجموعة من المبادئ الأخلاقية دون أن يطوروا بشكل منهجي نظرية فلسفية مجردة. أما على المستوى

الأدبي فلهم مؤلفات عديدة واقعية ذات علاقة بالمشاكل الاجتماعية وبالعلاقات بين الناس دون أن ينتجوا كثيراً من الأعمال ذات الخيال المحض. إن الصينيين واقعيون جداً وإنسانيون جداً.

وهنا نقطة القوة ونقطة الضعف عندهم أيضاً. نقطة القوة لان الكونفوشيوسية التي أعطت قيمة كبيرة للعلاقات الإنسانية سمحت لمجتمع متفكك بأن يحتفظ بالاستقرار مدة عشرين قرناً من الزمن.

ونقطة الضعف لأن هذا الارتباط القوي بالإنسانية وفي الزمن الحاضر منع الخيال من التحليق وبالتالي من أن تكون التطلعات أكثر طموحاً.

ونتج عن هذا أن الاستقرار الاجتماعي جرّ الركود ومن ثمّ ضياع الاستقرار.

وعندما أقول بأن المفاهيم الفلسفية بسيطة في الصين فإنني لا أنسى فلسفة "لاوزي" و"زهوانغي". صحيح أن هذه الفلسفة أكثر صعوبة من الكونفوشيوسية لكنها تميل أيضاً أكثر نحو القضايا الإنسانية بالنظر إلى الفلسفات الغربية. فـ "لاوزي" و"زهوانغي" نادراً ما تركا القضايا الإنسانية من أجل النفاذ بعمق في ماهية الأفكار وأصل الكون وتأثيرهما على الشعر الصيني هام ولكنه غير موفق لسببين:

أولاً: إن فلسفة مبنية على التحليل الأخلاقي والمنهجي تحفظ بسهولة لكن فلسفة مؤسسة على الشعور السبقي فهي صعبة المعرفة والحفظ. إن فلسفة "لاو" و"زهوانغ" تنتمي إلى الطبقة الأخيرة وفيما بعد فإن فلسفة "لاوزي" تماثلت مع الطاوية.

ولهذا فإن الشعر الصيني متأثر بالأحرى بالطاوية. وثانياً: فإن فلسفة "لاو" و"زهوانغ" تنشر فكرة الفراغ الأوّلي وتحتقر فكرة السعي ولكن بدون السعي المدعوم والمشجّع من قبل الغربيين فإنه من المستحيل النفاذ إلى طبيعة الأشياء لا في الشعر ولا في الفلسفة.

ورغم أن "لاو" و"زهوانغ" نجحا في تعميق نظريتهما فإن تلاميذهما يميلون إلى الاكتفاء بالعناصر السطحية.

وعندما ندرس قصائد مستوحاة من فلسفة "لاو" و"زهوانغ" يستحوذ علينا هذا المنطق. فغالبية الشعراء الصينيين هم كونفوشيوسيون. و"دوفو" و"تاوكيان" هما أفضل الممثلين، لهذه الفئة لكن في هذا الشعر المتشبع بالكونفوشيوسية خلق أربعة من كبار الشعراء المتأثرين بقوة بـ "لاو" و"زهوانغ" عالماً مستقلاً. وهؤلاء هم "كيو وان"

مؤلف "ندم الانفصال" والمؤلف المفترض لـ "الرحلة الكبرى" و"روان جي" الذي ألف "أغاني قلبي" و"غيوبو" مؤلف "المتسكعون الخالدون". و"لي بي" مؤلف "الغناء حول مطلع وغروب الشمس". و"تسع وخمسين قصيدة من النوع القديم". ونحن نستطيع أن نسميهم بشكل عام شعراء مدرسة المتسكعين الخالدين. فما هي وجهات نظرهم؟

يكتب "كيو وان":

السماء والأرض وحدهما لامتناهيان
آسف على عمل البشر المتواصل
ولا أستطيع إدراك هذا الذي مضى
ولا أستطيع كذلك فهم المستقبل
أية متعة أشعر بها في صمت مجدب!
وكم يريحني الكسل العذب!
(الرحلة الكبرى)

في "أغاني قلبي" يعلن "روان جي":
"لا أستطيع إدراك الماضي
ولا أعرف المكوث حتى مجيء المستقبل
أرغب بتسلق جبل الزهر السماوية.
لأتسلى مع الأبدي "شي سونغزي"."

وفي قصيدة من النوع القديم يصرّح "لي بي":
"النهر الأصفر يصب في البحر الشرقي
والشمس تغرب في المحيط الغربي
فلْتَمْضِ سريعاً دون أي انتظار
هذه الأنهار وهذه الأنوار التي تجري".
....
"آمل أن أمتطي تنيناً
لأستمتع ببهاء المنظر"

هذه الأبيات تعبر دون استثناء عن فكرة بذاتها: يكره المؤلفون الحياة ويتمنون التفوق على العالم.

لقد أصبحوا كارهين للبشر بسبب تغير الناس وقصر مدة الأشياء.

إنهم يريدون التفوق على العالم بتقليد الطاويين الذين يزعمون بأنهم قادرون على صنع إكسير الخلود والتحليق على ظهر كُركي في عالم الخالدين لكن هذا ليس إلا حلماً ولهذا يكتب "كيووان":

"الشمس في القبة الزرقاء بعيدة جداً

حتى أنني لا أعرف كيف أمضي."

أما "روان جي" فإنه يقول:

"**قطاف** النباتات الطبية يكون بدون رجعة

والخالدون لم يعطوا أية إشارة محددة

إنني أحس بقسوة هذه الورطة

وأتعذب بلا نهاية"

و"غيوبو" يقر من جانبه:

"**أريد** حقاً أن أحلق فوق الساقية الحمراء

ومع الأسف فإن التنين ليس مطيتي".

أما بالنسبة لـ "لي بي" فإنه ينوح:

"أعتقد أن الخالدين

يوجدون في نهاية شرق البحر الأزرق

ريح سماوية تهب فوق هذا اللامتناهي القارس

والأمواج العالية المزبدة تتكسر على الجبال

والحيتان التي تنفخ الماء تمنع المرور

والحيرة تقتلع مني الدموع بلا نهاية.

لاستيائهم من العالم الذي يعيشون فيه يبحثون عن عالم آخر. هذه الرغبة المشابهة للأمنيات الدينية للغربيين يجب أن تقود إلى ابتكار عالم مثالي. لكن لا:

لأنهم حاولوا عبثاً التأكد من مشقات العالم الحالي ليست عندهم فكرة واضحة عن الأرض الموعودة. إن عالم الخالدين الذي يرغبون فيه هو أحياناً في "الغيوم اللازوردية" وأحياناً في "نهاية شرق البحر الأزرق" وأحياناً في بركة اليشب لملكة الغرب الأم والتي حسب "لي بي" ستكون فيما وراء السماء بثلاثمائة فرسخ. في عالم الخالدين يهيمن الإمبراطور يخدمه صبيان من اليشب يعزفون الأورغ بالفم ومومسات يمسكن الخبيزة بأيديهن إن "وانغ كياو" و"كيسهنغ" و"شي سونغزي" هم أتباع الخالدين في عالم حيث جميع المباهج الإنسانية فيه مثمنة عالياً أيضاً. ويمكننا تخيل قطار الحياة الفخم قطار الخالدين الذين يشربون في أكواب من اليشب فوق مصاطب من الذهب والفضة.

إن الخالدين ليسوا بالطبيعة فاقدي الحس بالمناظر الجميلة. إنهم يتلذذون أمام شلالات الماء الذي يسقط من ارتفاع عدة آلاف من الأمتار.

وفي قصورهم غيوم تحيط بالعوارض الخشبية ويشب يختلط بالسحليات. وعندهم حسب "غيوبو" "من يكون عمرهم ألف سنة هم أطفال" وحسب "لي بي" "فإن وجبة طعامهم تدوم عشرة آلاف سنة" ولهم قوة خارقة.

إنهم قادرون على "ابتلاع قطع كبيرة جداً" و"رسم مناظر وتزيينها بالأضواء المتعددة الألوان" و"كسر غصن ميت لكنس أشعة شمس الغرب" فكيف نصبح خالدين؟ يجب أن نمارس علم تحويل المعادن وأن نسجد طويلاً أمامهم طالبين منهم سِرَّ فنهم قبل أن يسافروا فوق غيمة أو فوق كُركي. إن تصوّر عالم الخالدين هو مزيج من عدمية "لاوزي" وزهو "انغزي" وأفكار الطاويين حول ترك العالم الإنساني.

هؤلاء الشعراء لا يدركون بأن الطاويين ينتسبون عبثاً إلى "لاوزي" وأن أفكارهم متعارضة مع فلسفته. وحسب "لاوزي" "فالشر الأكبر للإنسان هو أن يكون مادياً".

إنه يقترح إذن "التخلص من الشهوات للنفوذ إلى خفايا الحياة" أما بالنسبة للطاويين فهم يعملون المستحيل ليمتلكوا حياة طويلة وفاتنة جداً وأن يكونوا من ذوي الحياة الفخمة. ولا ينسون لحظة قصور اليشب هذه وهذه الخمور اللذيذة المقدمة في أكواب مصنوعة من الأحجار الكريمة.

إن تناقض شعراء مدرسة الخالدين المتسكعين يرتكز على الرغبة بالتخلي عن العالم دون القدرة على التخلي عن رغباتهم الخاصة.

والأكثر من ذلك أنهم موسومون بشدة بحب الكونفوشيوسية المرتكزة على تحسين العالم.

إنهم لم يتنازلوا نهائياً عن الإنسانية الصينية. إن "كيو وان" و"روان جي" و"لي بي" عندهم مطمح نبيل في مساعدة العالم والشعب وحتى "روان جي" والذي هو حر للغاية ومتعال يعطي هذه النصيحة في "أغاني قلبي" "كم الحياة قصيرة فلا تبخل بكدّك" وفي قصيدة من النوع القديم يعبر "لي بي" في هذه الكلمات عن رغبته "باعتناق مهنة الأديب الذي تسطع مؤلفاته خلال ألف ربيع" [تسجل آلام العالم وقصر حياة الكائنات الإنسانية] إن شعراء مدرسة الخالدين المتسكعين إذ يتخندقون في عدمية الطاويين يختارون حلمهم بمغادرة العالم.

لكن عالم الخالدين الذين يحلمون به بعيد جداً بحيث يتحسرون: "أريد حقاً أن أحلّق فوق الساقية الحمراء لكن التنين للأسف ليس مطيتي" و"الحيرة تستدرّ منبع الدموع بلا نهاية" وهكذا فإنهم مجبرون على البقاء في العالم الإنساني وإغراق حزنهم في الخمر ووجود المتعة في القرب من النساء. أتمنى أن أهجر العالم دون أن أعرف أين أتوقف، لكني لا أستطيع إلا أن أسافر في كل مكان كما يحلو لي"

إن "كيو وان" ينتحب وأما بالنسبة لـ "لي بي" و"روان جي" فهذا أسلوبهما في أن يعيشا حياتهما.

إن شعراء هذه المدرسة جميعاً يشعرون بأنهم موجودون في طريق مسدود وهم يبكون عجزهم. إنهم يبدأون بحب الحياة ثم بالتقزز منها والاستعلاء على هذه الحياة وأخيراً يتوصلون إلى السخرية من كل شيء ولا تخلو سخريتهم من الحزن. إنهم يمضون حياتهم هكذا في مزج التناقضات والنزاعات. وهذا هو نصيب جميع الشعراء الكبار الجديرين بهذا الاسم والذين هم مع ذلك قادرون على أن ينتهوا منها ويصلوا إلى سلامتهم.

وإذا كان "دانتي" و"شكسبير" و"غوته" تفوقوا على "روان جي" و"لي بي" فلأنهم انتهى بهم الأمر إلى أن وجدوا سلامهم بينما "روان جي" و"لي بي" لم ينقطعا أبداً عن الإحساس بعذاب الشك والحيرة.

إن "كيو وان" و"روان جي" و"لي بي" يرون أبعد مما يرى الشعراء الصينيون الآخرون. ويستكشفون آفاقاً قلما يرتادها مواطنوهم.

لكن إرثهم القومي ثقيل جداً بحيث لا يستطيعون الذهاب حتى النهاية ولهذا فإن

طموحات الشعراء الغربيين بعالم آخر يمكن أن تنتج "الفردوس المفقود" و"فاوست" بينما في الصين فإن الظاهرة لا تنتج إلا بعض القصائد من نوع: "الرحلة الكبرى" و"أغاني قلبي" و"الخالدون المتسكعون" وكذلك بعض القصائد من الأسلوب القديم. إن البوذية مارست أيضاً تأثيراً عميقاً على الشعر الصيني ومع الأسف فإن أحداً لم يقم بأبحاث جادة حول هذا الموضوع.

ويجب أن نعرف قبل كل شيء أن معظم القصائد المستلهمة من البوذية خالية من التعاليم البوذية ولكن مليئة بفرح الاستغراق في التأمل وبعد "تاوكيان دي جان" فإنّ "كُسي لنغيون" و"وانغ دي" و"سوشي" هم الشعراء الكبار الذين وسموا أكثر بالبوذية ومؤلفاتهم تُظهر من سطر إلى آخر فرح الاستغراق في التأمل، دون أن تتناول فيما عدا بعض الاستثناءات، مبادئ البوذية.

ونستطيع أن نستخلص هذا الانطباع العام من قراءة مؤلفاتهم الكاملة. وسأقتصر على ذكر بعض المقاطع الشعرية:

"غيوم بيضاء تلف صخرة هادئة
ونباتات البامبو الخضراء تداعب ساقية صافية"
"النقاشات انطفأت في المقصورة الخاوية
وتأتي القنادس في الباحة الخالية"

"كسي لنغيون"

"تحلق العصافير وهي تغني بينما يتلاشى فرحي
والأزهار تسقط عديدة عندما أجلس مدة طويلة"
"مستنداً على عكازي خارج باب الكوخ
أصغي إلى غناء الأزياز المتباطئة في الريح.

(وانغ وي)

"في الزورق المتحرك نرى الضفاف تهرب من ذاتها
ومتمدداً فوق ظهر الجاموس أقرأ دون أن يعرف الحيوان ذلك"
"أقرع الباب دون الحصول على جواب.
وأستند على عكازي مصغياً لارتداد أمواج النهر".

(سوشي)

وينبغي علينا أن نجد السبب في ازدواجية الواقع بأن الشعر ليس خليقاً بمناقشة الفلسفة وبأن هؤلاء الشعراء الصينيين يعجبون في الحقيقة بالبوذيين وليس بالديانة البوذية.

بعد سلالة "جين" فإن غالبية الشعراء الصينيين قد ارتبطوا بصداقات مع (المنعزلين عن العالم).

وهكذا "كْسِي لنغيون" مع "يوان غونغ". و"وانغ وي" مع "يوان غونغ" وأستاذ التأمل "كاو سوشي" مع "فويل" وإذا كانوا معجبين بفعل وسلوك هؤلاء الرهبان البوذيين. فقد كانوا يترددون على معبدهم للتمتع بلذة التأمل أو لتبادل الأحاديث الروحية معهم.

والمنظر الشعري إذ يرتبط بعدّة صلات مع صور التأمل، فإن الشاعر وأستاذ التأمل يتفاهمان غالباً بشكل كامل. وإذا كان الشعراء الصينيون قد سبقوا زملاءهم الغربيين بعشق الطبيعة والتدله بها بألف وبضع مئات من السنوات فذلك يعود إلى تأثير البوذية. ورجال الدين في عصر "وي وجين" اعتادوا بناء معبدهم في موقع رائع الجمال.

(هذا الميل لرجال الدين الصينيين ربما نشأ عن رجال الدين الهنود إن "حلقة الساكونتالا" وهي دراما مكتوبة باللغة السنسكريتية تظهر لنا أن رهبان الهند البرهميين القدماء كانوا يحبون العيش متنسكين في موقع جميل) وروابطهم مع "المنعزلين عن الناس" علّمت الشعراء هذا الفرح الجديد فرح التأمل الذي يتكوّن قبل كل شيء في الفهم الصامت للطبيعة.

وهذا ما استفاده الشعراء الصينيون من البوذية. لكن ليس بقصد الدّفاع عن المبادئ البوذية. فقصدهم الحقيقي كان التسلي دون الرّغبة في ممارسة البوذية حتى التسليم الكامل. كانوا يتأملون في الجبل ويخرجون منه ليتابعوا طريق حياتهم كموظفين كبار: أكل فاخر وحب زوجي... إن جوهر البوذية يتطلب أن "لا تترك شيئاً للكتابة وأن تصبح بوذياً بالطبيعة". ومع ذلك فقد بقي الشعر عقبة في هذه الطريق.

إن البوذية لم تقم بتوسيع سوى الأسس الجمالية وليس الفلسفية للشعر الصيني المبني دائماً على الكونفوشيوسية والطاوية. إن المذهب البوذي بوصفه فلسفة غريبة

فقد استقبل من قبل الشعراء الصينيين لأنه يُذكّر بطريقة ما بأقوال الطاويين. وبعد سلالة جين فإن الناس أخذوا يميلون إلى مزج البوذية والطاوية معتقدين أنه كي تصير خالداً يجب أنه تصير بوذياً.

وفي مغناة النزهة فوق جبل الشرفة السماوية لِـ "سن شيو" والقصيدة المهداة إلى الراهب "ياغونغ" من "لي بي" فإن مؤلفي هاتين القصيدتين يعتقدان بأن البوذية ومذهب "لاوزي" يشتركان في الأفكار. إن "هان يو" إذ دحض الأفكار الهرطقية وضعهما هو أيضاً في نفس المستوى. إن "لاوزي" ينادي بالعدم دون أن يقترح بعبارات واضحة السكون والخمود. إنه فرداني كامل. إن كتاب الطريق والفضيلة يحتوي في أغلب الحالات تجربة إنسان محرر من الوهم. لهذا استخدم فيما بعد لتسمية العقوبات القانونية المحددة من قبل "شن بوهي" و"هان في".

إنّ البوذية تراعي نشر العطف للجميع. وحسب "لاوزي" فإن الإنسانية يجب أن تعود إلى حالتها الجاهلة في العصر الأول بينما البوذية تطلب من الإنسان أن يفهم القلب وأن ينفذ إلى طبيعة الآخرين.

وطبقاً لمبدأ "لاوزي": "أخذ حذا للحكيم وتنازل عن المعرفة" فحتى البوذية يجب رفضها. فإننا نرى بوضوح أن مذهبه لا ينسجم في شيء مع البوذية إن أتباع جين وأتباع "تانغ" بوضعهم البوذية ومذهب "لاوزي" أو الطاوية في نفس السلة فإنهم يتناقضون دون أن يلاحظوا ذلك.

وما يدهش هو أن الشعراء الكونفوشوسيين هم بشكل عام تلاميذ للبوذية.

في الأصل كان "بي جويسي" و"يوان زهن" كونفوشيوسيين مائة بالمائة لكن "بي" كتب هذه الكلمات "إنني مناصر للبوذية وليس للطاوية وخلاصي الأبدي سيكون في الفردوس البوذي" و"يوان" في "وداعاً للمرض" يعلن هو أيضاً: "إني تلميذ للبوذية، منذ زمن طويل وأسكن فقط في إهاب مادي".

لقد اعتاد الصينيون أن يكون عندهم ميل للدين دون الرغبة في الذهاب حتى النهاية.

هذا الميل إلى التهاون والتسوية ليس بالتأكيد دون مزية . ولكنه لا ينسجم مع الفلسفة، ومع الأماني الدينية المضطرمة. وهذا هو السبب الذي من أجله وصل الشعر الصيني إلى الجمال ولكنه لم يدرك العظمة.

■ زهر غيونغكيان ■

□□



قصائد مترجمة
للشاعر الصيني: يي يان بين

■ ترجمة: جهاد الأحمدية■

عن الإنكليزية

بطاقة الشَّاعر (يي يانبين)

في عام 1948 وُلِد (يي يانبين) في هاربين) من محافظة (هايلونغ جيانغ). وهو شاعرٌ مرموقٌ، نشرَ عدداً من المجموعات الشعريّة تحتوي على مختارات من قصائده. وهو الآن - 1993 - يشغل منصب نائب رئيس تحرير مجلّة (نجوم) الشعريّة التي تصدر في محافظة (سيشوان).

(الشَّجرةُ الحالمةُ بالطَّيران)

تحت هذا العنوان يتحدَّث الشَّاعرُ عن نفسِهِ قائلاً:

وُلِدتُ في (هاربين) شتاءَ 1948 حيثُ حربُ التحرير في طريقِها إلى تحقيقِ النَّصر. والصِّينُ تواجهُ مرحلةً من التَّغيير الدراماتيكيّ. فكانت حياتي في مراحِلها الثَّلاثِ؛ الطُّفولةِ والشَّبابِ والرُّجولةِ تمرُّ في دوّامةٍ من المتغيّرات.

كان والداي يعملان في (نورث إيست دايلي) اليوميّة الشّمال شرقيّة التَّابعة لجيش التَّحرير الشَّعبيّ. وكلَّما تحقَّقَ انتصارٌ، كانت تنتقِلُ بي أمّي جنوباً؛ إلى (بكين) ف (تيان جين) ثمَّ إلى (ووهان). وحين لم يعُدْ في وسعِها إرضاعي من ثدييها، بدأْتُ أعيشُ على حليبِ الأغنامِ و الأبقارِ؛ إذاً أنا ابنُ الخرافِ والثِّيرانِ.

جدّي لأُمّي ملاّكٌ كبيرٌ وتاجرٌ للحبوبِ في الشّمالِ الشّرقي، وجدّتي تتحدّر من إحدى عائلاتِ (مانشو) الأرستقراطيّةِ حيث قامَتْ . بعدَ أن احتلَّتِ القوّاتُ اليابانيّةُ (شين يانغ) عام 1931 . بترتيبِ الأُمورِ لإقناعِ جدّي بالموافقةِ على إرسالِ والدتي إلى مدرسةٍ في (بكين)؛ فكان شرطُهُ على الموافقةِ أن يكونَ حرّاً في أخذِ خليلاتٍ له.

وفي عام 1937 حيثُ انتهت حربُ المقاومةِ ضدَّ اليابانِ، عادَتْ أُمّي إلى (تسي آن) مع جيشِ الشّمالِ الشّرقي. وبعدها انضمّتْ إلى (لواءِ الموتِ ضدَّ حياةِ اليابانيين) في (شان تسي)، لتعودَ بعدَ اندحارِ اليابانيين عام 1945 إلى الشّمالِ الشّرقي.

في عام 1949 تأسّست الصّينُ الحديثةُ فانتقلتِ العائلةُ إلى مسقطِ رأسِ والدي في (سيشوان). بعدها واجهتْ والدتي اتّهاماً ظالماً أدّى إلى نفيها إلى جبالِ (داليانغ) البعيدةِ، فمكثتْ هناكَ عشرينَ عاماً كمعلّمة. وعندما أُعيدَ لها اعتبارُها عام 1977 كانتْ قد أصبَحَتْ عجوزاً تعيشُ في مصحّةٍ للمصابينَ بالأمراضِ المزمنة.

أمّا والدي فهو الابنُ الوحيدُ لرجلٍ يعملُ بوّاباً. وقد شاركَ في الرّابعةِ عشرةَ من عمرِهِ في الحركاتِ الطّلّابيّةِ، إلى أن التحق بعدها بالجيشِ الأحمر. ثمَّ أصبحَ بعدَ التّحرير عميداً في الجامعة. وقد تعرّضَ في فترةِ (الثّورة الثّقافيّة) إلى النّقدِ والتّشويهِ لمدّةِ عشر سنوات.

أستطيع القولَ إنَّ والديَّ قد كرّسا كلَّ إمكاناتهما للثّورة، وكان ذلك أهمَّ ما تقدّمُهُ لي العائلةُ من تأثيرٍ على أعمالي الأدبيّة. لقد كانا في الحقيقةِ نموذجاً للعقلانيّين الصّينيّين الذين ضحّوا بكلِّ شيءٍ في سبيلِ فلاحِ الأمّة، وكُنْتُ قد عبّرتُ عن ذلكَ في إحدى قصائدي الذّاتيّة:

"الأحمرُ والأسودُ

موجودانِ في مورّثاتِ وجودي

كوريثٍ للثّوّارِ

وثائرٍ ضدَّ الوارثين

لأنَّ خيانتي وإخلاصي

كلاهما ينبعانِ من دمي

مورّثتينِ تفصحانِ بصمتٍ".

منذ بدأْتُ الكتابةَ عام 1975 وحتى الآن نشرتُ من الأعمالِ الأدبيّةِ ما يربو على ثلاثةِ ملايينِ كلمةٍ، بما فيها القصائدُ والمقالاتُ و(الاسكتشاتُ) والدّراساتُ النّقديّةُ والرّوايات. وكلُّها تقعُ تحت تأثيرِ العائلةِ من جهةٍ والمعاناةِ الشّخصيّةِ من جهةٍ أخرى.

كنتُ على أبوابِ الانتهاءِ من المرحلةِ الثّانويّةِ عندما بدأتِ (الثّورةُ الثّقافيّةُ) عام 1966. وقد شهدْتُ الكثيرَ من معاكساتِ القدرِ جرّاءَ انخراطي في هذهِ الحركةِ الثّوريّة.

في السّنةِ التّاليةِ توجّهتُ إلى (ينان) لأستقرَّ فيها؛ فعشتُ فلاحاً مدّةَ سنتين. هنالكَ قابلْتُ أخي الأكبرَ الّذي أخذَهُ فلاحٌ مذ كان طفلاً في عامِهِ الأوّلِ عندما أرادَ والدايَ أن يتوجّها إلى ساحةِ المعركةِ في الشّمالِ الشّرقي. عشتُ تلكَ الفترةِ ابناً معزّزاً لأحدِ الفلاّحينَ هناك، فتعلّمْتُ الحصادَ وحملَ السّمادِ والفحم. من هذهِ التّجربةِ استوحيتُ قصيدتي (الحمارُ حاملُ الفحمِ على الطّريقِ الجبلي)

كم كان يحلو

لي الغناءُ

وأنا أمشي

على الطّريقِ الجبلي".

لقد عكسْتُ في كتابتِها إمكانيّةَ البحثِ عن السّعادةِ في أقسى الظّروفِ، والتّعويضِ عن الفقرِ المادّيّ بمعادلٍ من الإحساسِ الرّوحيّ المفترَض.

وقبلَ أن أصبحَ كاتباً في فرقةٍ مسرحيّةٍ محليّةٍ في (ينان) عملْتُ راعياً للقطيعِ وبائعاً في متجر. وفي الثّلاثين من عمري تسجّلْتُ في قسمِ التّحريرِ الإذاعي في (بكين). لكنّ مستوى العيشِ المتدنّي لعشرِ سنواتٍ أخذَ منّي الكثيرَ من الوقتِ على حسابِ الدّراسةِ، مع أنّهُ منحني، مادّةً غنيّةً للكتابة. تتوزّعُ أعمالي على عدّةِ مراحل:

فقد شهِدَت الفترةُ ما بين 1975 و1980 إصدارَ عدّةِ مجموعاتٍ شعريّةٍ مثل: (لا اعتذارات)، (الثّنائي)، (ينبوع الحليب)، (تأمّلات القلب)، (رومانسيّة المدينة) و(السّجين واليمامةِ البيضاء). وقد استندَتْ قصائدُ تلك المجموعاتِ إلى ذكرياتِ المعاناةِ السّابقةِ من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى إلى الأغاني الشّعبيّةِ بعدَ إعادةِ صياغتِها وتحميلِها أفكاراً مدنيّة. وخيرُ ما يمثّل تلك الفترة هي (القصائدُ الثّلاثُ عن الأمِّ المرضع) المنشورةُ في عددِ أيار 1981 من مجلّةِ الأدبِ الصّيني؛ وكانت هذهِ القصائدُ قد حصلَت على جائزةٍ وطنيّةٍ للشّعر، وقصيدةُ (أمّهات) المنشورةُ في هذا العدد.

وفي الفترة ما بين 1986 و1989 حدثَ تحوّلٌ كبيرٌ في كتابي. فكانت (أغنيةَ

إلى سيشوان) . وهي قصيدةٌ غنائيّةٌ تصوّرُ العهدَ المتغيّر . قد واجهَتْ قليلاً من ردودِ الفعلِ النّقديّة. بينما نالَت التّصفيقَ قصيدةٌ بعنوان (رسالةٌ بلونِ الدّم) وهي غنائيّةٌ طويلةٌ تصوّرُ الحياةَ الرّوحيّةَ لأبناءِ جيلي بأسلوبٍ استقى تقنيّاتِهِ من الشّعرِ الغربي. وأثنى عليها النقّادُ على أنّها أسلوبُ (بي يانبين) الشّعري. وقد ضمّتْ هذهِ القصيدةَ بالإضافةِ إلى قصائدَ أخرى مجموعةٌ عنوانُها [قصائدُ مختارةٌ ل (بي يانبين)]. وكُنْتُ في هذهِ الفترةِ قد كتَبْتُ عدّةَ مقالاتٍ صدَرَتْ في مجموعاتٍ مثل: (إشراقاتٌ من الحياة) و(مختارات من المقالة المعاصرة . بي يانبين).

ومن زيارتي إلى إيطاليا استوحَيْتُ عدداً من القصائدِ فصدَرَتْ في مجموعةٍ اسمُها (بين الفردوسِ والجحيم).

انصرَفْتُ عام 1988 إلى القصائدِ الأقصرِ التي اكتشَفْتُ أنّها تنتمي أكثرَ إلى المعاناةِ اليوميّةِ للفرد. فحاوَلْتُ من خلالِها أن أوثّقَ الرّوحَ الوطنيّةَ وآمالَ وطموحاتِ النّاسِ الشّرقيّين. فجاءتْ في أسلوبِها مزيجاً من التّقليديّ والحديث. (احتمالاتُ البياض) المنشورةُ في هذا العددِ واحدةٌ من هذهِ القصائد. ولي أيضاً مقالات و(اسكتشات) متفرّقة في طريقِها إلى أن تظهرَ في مجموعات.

أمّا في هذه الفترةِ فلديّ عدّةُ مجموعاتٍ شعريّة وهي: (أساسيّات شهر العسل)، (أغنيات الدم)، (أنتِ قصيدتي 101) و(لحظة جميلة).

وفي المحصّلةِ فإنّ قصائدي في الثّمانينيّاتِ بشكلِها الرّئيسِ عبارةٌ عن أغنياتٍ حماسيّةٍ عن الثّورةِ والأرضِ والحبّ الأمومي. وهي على اختلافِها في الأسلوبِ تتساوى في كونِها تهتمُّ بالواقعيّ والزّمني.

الفنُّ هو الإبداعُ. وما هدفي إلاّ أن أصوّرَ بقلمي الوجودَ والسّعيَ والأحاسيسَ والقيَمَ الأخلاقيّةَ لأبناءِ جيلي الذين نشأوا على الجمهوريّةِ الشّعبيّةِ، وأصبحوا حرّاسَها الحمرَ وشبابَها المثقّفَ بعدَ أن لجأوا إلى الأريافِ لفترةٍ ما يحلمونَ ب (صينِ الازدهار).

الشّعرُ تاريخٌ للأحاسيسِ البشريّةِ، وكم أرغبُ في أن أنغمسَ في هذا التّاريخ وأصبحَ جزءاً منه. أنا لستُ واقعيّاً ولا أعتقدُ أنّهُ على الشّعرِ أن يتقيّدَ بالواقعِ مع العلمِ أنّي متجذّرٌ في الواقعِ ومعانقٌ له. ولستُ حداثيّاً بمعنى مواكبةِ السّائدِ والموضةِ الدّارجة. فكثيراً ما أجدُ نفسي في معضلةٍ. وقد عبّرْتُ ذاتَ مرّةٍ عن انذهالي بصورةِ الشّجرة: الجذورُ في تربةِ التقاليدِ والأغصانُ تمتدُّ إلى السّماءِ كاشفةً عن حلمِ

الأجنحة. هذهِ الشّجرةُ قد تساعدُكم في استيعابي واستيعابِ أشعاري.

•••

أُمّهات

(1)

ما الّذي يجعلُ الأُمّهاتِ
يتباهَينَ بأقفاءِ أبنائهنَّ،
وأكتافِهم العريضةِ القويّةِ
المفعَمةِ بنشاطِ الشّبابِ؟

الأعينُ مشدوهةٌ
تظلّلُها الأيدي
وهنَّ جالساتٌ
يحدّقْنَ إلى البعيدِ
أعينُهنَّ مشدودةٌ
إلى أشكالِ الرّجالِ المتضائلةِ
المؤطّرةِ بحزامٍ ذهبيٍّ
من إشعاعِ الشّمسِ.
شعورٌ أُموميٌّ بالاعتزازِ
يقوّمُ ظُهورَهنَّ
الّتي حدّبَتْها سُنونُ التّعبِ،

فتسقطُ من السَّماءِ اللازورديَّةِ
ورقةٌ بنّيَّةٌ ذابلة.
بهدوءٍ يحدّثْنَ أنفسَهُنَّ:
"حمداً لِلّهِ!
قد تجدُ المرأةُ
ما يملأُ حياتَها."
قطيعُ أوزٍّ في رحلةٍ طويلةٍ
يرفرفُ في الأفقِ
عندَ الغيومِ المتقِّدةِ.
تنهمرُ الدُّموعُ
تبلّلُ كلَّ الذّكريات؛
فالأمَّهاتُ يرَيْنَ
في الأشكالِ المتضائلةِ
ضَياعاً وشيكاً
لأغلى أبنائهن.
ماذا يتبقّى لأمٍّ
بعدَ أنْ أنجبَتْ
إلى هذهِ الدُّنيا
رجلاً آخرَ
إلاّ هذا المشهدُ الأخيرُ؛
أن تلوِّحَ بيدِها

مودّعةً عندَ الباب؟

وخشيةً منهنّ
أن يلتفت الأبناءُ
فجأةً إلى الوراءِ،
لا تبرحُ البسمةُ تحديقَهُنَّ
إلى الأشكالِ المتضائلةِ،
بينما يَكبِتْنَ في الحلوقِ
طعمَ المُرّ.

(2)

حينَ تكونُ وجهاً لوجهٍ
أمامَ ابنِك
تنظرُ إليهِ بإعجابٍ شديدٍ
مأخوذاً بالأعجوبةِ الّتي صنَعْت.
ومع أنَّكَ
لم تعُدْ تقرصُ ظهرَ يدِكَ
لتوقِنَ أنَّكَ لستَ في أرضِ الأحلامِ،
فإنَّ مثلَ هذه الحركةِ البسيطةِ
قد تعني بأنَّكَ
اهتدَيتَ إلى ملاذِك.

لا شيءَ يُقارَنُ بهذا الوجهِ
ولا حتّى يداكَ ووجهُك.
فأنتَ لم تنظرْ إلى المرآةِ
منذُ زمنٍ؛
تخافُ من رؤيةِ التَّجاعيد.
مجرَّدُ نظرةٍ إليها تُرعبُك.

لكنَّ هذا الوجهَ كافٍ
لتنسى نفسَكَ
وتقدُّمَكَ في السِّنِّ،
وتتذكَّرَ دوماً
تاريخاً تصنعُهُ الأُمّهاتُ
وقلقاً لدى الفتياتِ
في انتظارِ الحبِّ،
وأُغنياتٍ تصدحُ بها
الأُمّهاتُ الصَّغيراتُ
إلى جانبِ المهدِ،
وآثاراً لأقدامِ الأبناءِ
على الثَّلجِ ترسمُ القصائد..

(3)

هنَّ دائماً معجباتٍ

بما يمنَحْنَ أبناءهنَّ
من أسماءِ التَّدليلِ،
وفي الوقتِ ذاتِهِ
يسخَرْنَ من المعتقداتِ الخُرافيَّةِ:
كالبيتيَّةِ، والهاجسيَّةِ والكلبيَّةِ.
البيتيَّةَ؟
فهل يصبحُ رجالاً
إلاّ الَّذينَ لا يلزَمونَ البيوت؟
الهاجسيَّةَ؟
وهل قدرُ الرَّجلِ
إلاّ أن يمضي في هذهِ الدُّنيا
على سجيَّتِهِ؟
الكلبيَّةَ؟
وهل هنالكَ أمٌّ
ترضى لابنِها أن يكونَ
مجرَّدَ كلبِ حراسة؟

حسناً..
فكلُّ الأمَّهاتِ هكذا .
ينثُرْنَ حبَّاتِ الدُّخْنِ الذَّهبيَّةِ
يُطعِمْنَ صيصاناً تسقسِقُ

مختبئةً تحتَ أجنحةِ الدّجاجِ
ينظرنَ إلى السّماءِ
والنّسورِ الّتي تحوّمُ
وسطَ الغيوم.

الحبُّ يجعلُ الأُمّهاتِ
يكرَهنَ النّسورَ
ويُشفِقْنَ على الصّيصان.
والحبُّ يحدو بالأبناءِ
أن يصبحوا نسوراً
ولا يبقوا صيصاناً.

(4)

الأمّهاتُ غالباً
يخشَيْنَ الصّمتَ،
ودائماً يرغَبْنَ
في الحديثِ مع الأبناءِ.
لكنّهنَّ يلُذْن بالصّمتِ
إلاّ حينَ يقلْنَ شيئاً خاطئاً.
الأبناءُ يدخّنونَ،
يفكّرونَ في أمورِ الرّجال.
فتغدو تعابيرُ حواجبِهم

غريبةً على الأمَّهات.
قد أصبحوا شباباً
وبعدَ الآنِ لن ينادوا (ماما)
إن وجدوا جديداً.
اللَّيلِ المتباطئِ يطولُ
وضوءُ القمرِ صامتٌ
والمنارةُ الوامضةُ صامتةٌ
والأمَّهاتُ يجلسْنَ
إلى جانبِ الأبناءِ
يَحِكْنَ أو يَخِطْنَ
فالصَّمتُ شبكةٌ
تصنعُها الأمومةُ
لتحميَ الأبناءِ.

آهِ من الأمَّهاتِ
حين يخشَينَ الصَّمتَ
ويبقَيْنَ صامتات.

موسم الإزهار

في مرحلةِ البراعمِ..
حينَ تفيضُ بالخَيالِ،

تذكِّرُنا بروحٍ
في تنازُعِها.
فالجميلُ والمؤلمُ معاً.
والسَّعادةُ والحزنُ
لا يأتيانِ
إلى هذهِ الدُّنيا منفردَين.

في مرحلةِ التَّفتُّحِ..
حينَ يغمرُها الفرحُ،
ما أصعبَ أن ننسى
ذلكَ الإشراقَ
وقد دخلْنا عالمَهُ
فاغرينَ أفواهنا المرتجفةَ



عاجزينَ
عن كفِّ دموعِنا البلّوريَّة.
في مرحلةِ الاكتمالِ..
يقودُنا الإقدامُ والنَّشاطُ
في ريعانِ الشَّبابِ؛
فلا غايةٌ نسعى إليها،
ولا عاقبةٌ نخشاها،

حين تواجهُنا
النّحلاتُ والمقصّات.

في مرحلةِ الذّبولِ..
بائسةً في الرّيحِ والمطر
تثيرُ فينا
الشّاعريّةَ والتّأمّل
فيتنهّدُ المتعاطفون
على بقايا الرّحيق.
لكنّ هذا المزاج الحزين
وهذهِ العاطفة
يضيعانِ أيضاً
مع الأمطارِ والرّياح.

في مرحلةِ الذّويان..
هنالكَ استعادةٌ للماضي.
تماماً كالحديقةِ العامّةِ،
حيثُ لكلِّ ثانيةٍ
روعتُها المتفرّدةُ
الأجملُ من الأبديّة.

احتمالات البياض

إطلاقُ العنانِ
للعواطفِ والرَّغباتِ
يذهبُ مع الزَّمنِ
كما الحبرُ حينَ يُراقُ
على ورقةِ الحياةِ الجميلةِ
ويغمّسُها
تاركاً خلفَهُ
مساحتَين من البياضِ
فاتنتَينِ جذّابتَينِ
في ما مضى من السِّنين
بعمقٍ أو بسطحيّةٍ.

نظرةٌ إلى الوراء
على طولِ الممرِّ الّذي
عبرَتْ عليهِ خطواتي،
وأرى أحداثَ الماضي
كأشجارٍ مزهرةٍ
ومقصوراتٍ محاصرةٍ
بالدُّخانِ الكثيفِ والضَّباب.

فأيّ عاطفةٍ
يمثّل ذاكَ البياضُ؟
لعلّهُ الدُّخانُ الغامضُ والضّبابُ
ما يترجمُ الحياةَ
بصورتِها الأجمل.

جميلٌ هذا النّسيانُ..
جميلٌ جريانُ الماء..
فقد لا يكونُ
الحذرُ الشّديدُ
في تمشيطِ الأجَمةِ
بعنايةٍ وترقُّبٍ
لوحةً جميلةً
لمشهدِ الحياة.

الغيومُ الهاربةُ فوقَ جبل (تاي)

سريعةٌ
تلك الغيومُ الهاربةُ
فوقَ جبلِ (تاي).
هيوليَّةٌ
تلك الغيومُ الهاربةُ
فوقَ جبلِ (تاي).

ثائرةٌ
تلك الغيومُ الهاريةُ
فوقَ جبلِ (تاي).
أشباحٌ تتكسَّرُ
صاعدةً من عمقِ الوادي.
تنبعثُ
مع أوَّلِ ومضةِ فجرٍ
تتجعَّدُ منديلاً من ضبابٍ
تمتطي أجنحةَ الوقتِ
وتحلّقُ عالياً في السَّماء.

إنّها الغيماتُ
السَّريعةُ..
الهيوليّةُ..
الثائرةُ..
تلكَ الّتي
تمنحُ الأشجارَ
والأزهارَ والأعشابَ
بهجةَ الحياة.
وتجعلُ الصُّخورَ
على امتدادِ الجبلِ

وحتَّى النُّقوشَ على الألواحِ
تبدو كأنَّها
قد مسَّتها موجةٌ
من الرَّقصِ الجنونِي.
وأنا الوحيدُ المُثقلُ بالهمومِ
في بحرِ الغيوم؛
أفكاريَ انطلقَتْ بعشوائيَّةٍ
مع الغيومِ الهاربةِ
تُنصِتُ إلى أجراسِ المعبدِ
حينَ تتوالدُ بهدوءٍ
عندَ الشَّفقِ
محمَّلةً بفواكهِ التَّاريخ
الحامضةِ والمرَّة.

وهاهو التَّاريخُ
يأتي طافياً فوقَ الهواء.
ومسرعاً يمضي بعيداً
ولا يبقى هاهنا
إلاَّ جبلُ (تاي) وقلبي.

□□

نماذج مختارة من الشعر الصيني المعاصر

- للشاعر آي كَينغ -

■ ترجمة: عز الدين محمود ■
عن الإنكليزية

آي كَينغ هو واحد من أشهر شعراء الصين المعاصرين.

***ولد في** السابع عشر من آذار عام **1910 في** نيهاو من مقاطعة **زهاوينغ**[1].*

في** سنة 1928 انضم إلى **معهد** "ويست ليك" الوطني للفنون **الجميلة في هاونغ تسو** حيث درس الرسم. في عام 1929 غادر شنغهاي إلى **باريس حيث عمل رساماً** متمرناً في مرسم خاص، وآنذاك ابتدأ يكتب الشعر. لدى **عودته ثانية إلى الصين** في عام 1932 انضم آي كَينغ إلى تجمع الفنانين **اليساريين في شنغهاي**، واعتقل في شهر تموز من نفس العام. في السجن كتب قصيدته **"ديانهي مرضعتي" التي نشرت عام 1933 تحت اسمه الأدبي آي كَينغ.

أطلق سراحه في تشرين أول 1935. ومنذ دخوله السجن تخلى آي كَينغ عن الرسم من أجل الشعر.

في عام 1941 وصل آي كَينغ إلى ميان آن حيث عمل في التدريس بمعهد ليوكسان للآداب والفنون، وانضم إلى الحزب الشيوعي الصيني عام 1945. وبعد قيام جمهورية الصين الشعبية عام 1949 شغل آي كَينغ مراكز قيادية في بعض المنظمات الوطنية.

أرسل إلى شمال شرق الصين في عام 1958. وفيما بعد إلى إقليم كَسنيانغ

---

[1] منذ أقل من عامين تناقلت الأوساط الأدبية والإعلامية نبأ وفاة الشاعر آي كَينغ وكان يشغل منصب منصب رئيس اتحاد الكتاب الصينيين.

أويغار المستقل لمدة ستة عشر عاماً، وفي عام 1975 عاد ليقيم ثانية في بيجيانغ.

قصيدته "الراية الحمراء" المنشورة في "يومية وينبوي" في شنغهاي في الثلاثين من نيسان كانت أول قصيدة له بعد إعادة الاعتبار له. ومنذ ذلك الحين نشر آي كينغ قصائد عديدة وزار ألمانيا الغربية والمجر والولايات المتحدة الأمريكية.

نماذج القصائد المترجمة تظهر نضجاً تدريجياً في أسلوبه الفني واستخدامه للغة وفهمه للحياة.

•••

الليل الشفاف

ليل شفاف

... ضحك من القلب يتفجر في الحقول

ثلة من الندمان. يحدقون

في القرية التي تغفو بعمق

بصخب يشقون طريقهم

فرحين إلى القرية

حيث نباح كلب يثير رعشة

ونجوم منثورة تملأ السماء.

إلى القرية

عبر شارع يغفو

عبر ساحة تغفو، يندفعون

إلى حانة صاخبة.

الخمر، ضوء المصابيح، الوجوه السكرى
الضحكات الماجنة تنصهر وتتوحد
"هيا إلى المذبح
لنحتسي مرق اللحم..."

. 2 .

يشق الندمان طريقهم إلى طرف القرية
يدخلون باباً محملقاً بمصابيحه.

رائحة الدم، أكداس اللحم والزنخ الساخن
لجلود الأبقار....
أناس يصيحون... أناس يصيحون
وكنيران السهوب تلقي القناديل ضوءها
على عشرات من الوجوه بلون الطين
من القاطنين أراضي العشب.

"هنا مركز إنعاشنا
هذه الوجوه الأليفة...."
نتلقف
قطع اللحم الساخنة مصعدة بخارها

أفواه تفتح على مداها، تمضغ.... تمضغ
الخمر... الخمر
هات الخمر !!
وكنيران السهوب تلقي القناديل ضوءها
على دماء البقر وذراعي الجزار الملطختين
وجبينه المرشوش بالدماء.

كنيران السهوب تلقي القناديل ضوءها
على عضلاتنا المتقدة و...
في داخلنا
قوة الألم، والغضب، والكره...
كنيران السهوب، تلقي القناديل ضوءها
على المتصيدين ليلاً
والسكارى
والمتسكعين
على قطاع الطرق
ولصوص الماشية
متحدرين من كل حدب وصوب.
الخمر.! الخمر!
هات الخمر!
......

"على ضوء النجوم، مرتعشين
نمضي...."
ضحك يتفجر في الحقول
ثلة من الندمان يغادرون
القرية النائمة
إلى أراضي العشب النائمة
بصخب يشقون طريقهم
ليل! ليل شفاف!

10 أيلول 1932

الشمس

من مغاور الماضي السحيق،
من عصور الظلام،
من جدول موت الإنسانية هذا،
موقظة الجبال من سباتها
كعجلة من نار فوق كثبان الرمال
تتدحرج الشمس نحوي...

بأشعة لا تقاوم
تمنح الحياة نفساً

تجعل أغصان الأشجار تهفو إليه
تجعل الأنهار تندفع إلى الأمام بالغناء.

عندما تأتي يمكنني سماع
الحشرات النائمة تدور تحت الأرض.
الناس تعلو أحاديثهم في الساحات.
المدن تومئ لها من بعيد
بالكهرباء والفولاذ.
وعندها
يتفتق صدري مفتوحاً بيديّ النار
وروحي المتأسنة
ينتزعها النهر
ومرة أخرى استعيد الإيمان
في انبعاث الإنسانية.

ربيع 1937

جواب الفحم

. أين تعيش؟
. أعيش في عشرة آلاف سنة من الجبل المنحدر
أعيش في عشرة آلاف سنة من جرف الصخر

. وكم عمرك؟
. عمري أعظم من عمر الجبال
أعظم من عمر جروف الصخر.

. منذ متى وأنت صامت هناك؟
. منذ حكمت الديناصورات الأرض
منذ أحست الأرض برعشتها الأولى.

. هل متّ في مرارة الأعماق والضغينة؟
. الموت لا. لا. إنني ما زلت حياً
أعطني ضوءاً من فضلك، أعطني ضوءاً.

ربيع 1937

ابتسامة

لا أصدق علماء الآثار.
بعد أن تكون عدة آلاف من السنين قد مرت
وقرب شاطئ خالٍ من وقع أقدام البشر
في خراب كان في الماضي يعجّ بالنشاط
سيلتقط شخص ما فتات عظم جاف
. عظم جاف من جسدي.

كيف له أن يعرف أن ذلك الفتات الجاف
قد أحرق وتفحم في القرن العشرين؟
ومن له . في أطوار الأرض .
أن يعثر
على قطرات دمع الضحايا
ممن عانوا أشد العذاب.
تلك الدموع
التي أسرت خلف آلاف القضبان
ذات المفتاح الواحد الذي يفضي إلى بوابة السجن
لكن عدداً لا حصر له من الرجال الشجعان
حاولوا الحصول على ذلك المفتاح
وجميعهم سقطوا قتلى
تحت بنادق المدافعين وحرابهم.
لو أستطيع أن ألمَّ دمعة من تلك
لأحفظها قرب وسادتي
أكثر من جوهرة تستعاد من عمق آلاف القامات
ستصدر الضياء
مشعة عبر الزمان والمكان.

ألم يحصل لكل منا،

كلٌ في زمنه الخاص،
أن سُمرَّ على صليب؟
إن صلبنا هذا
لا يقل إيلاماً بالتأكيد
عن الصلب على أيدي أبناء الناصرة.

بأيدي أعدائنا
وضع تاج من الشوك على رؤوسنا
ومن جبيننا . ممزقةً متشحةً بالموت
تقطرت نقاط الدم، قرمزية
لكن وحتى هذا لم يستطع التعبير
عن مرارة الألم في القلب!
حقاً
علينا أن لا نؤوي الآمال الخواء
لكننا نرغب يوماً ما.
عندما يفكر فينا الناس .
كما يفكر المرء بأشياء من أقدم العصور:
أسلافنا الذين صارعوا الوحوش البدائية
. أن ترف فوق وجوههم بسمة
بسمة هادئة سمحة
لا بل بسمة القليل من الرضا.

آه. كم سأكون تواقاً آنذاك
لأن أقايض حياتي ببسمة كهذه!

8 أيار 1937

الأرض تولد من جديد

الأيام الآسنة
غاصت منذ أمد طويل عميقاً في سرير النهر.
عسى التيارات أن تعيدها نظيفة،
بحيث لا يظل للأوراق من أثر.

على ضفاف النهر،
حيث مر الربيع، خفيف الخطاء،
في كل مكان تتفتح الورود ويخضر العشب
ومن هناك، من تلك الخميلة
تتعالى السقسقات لمئات العصافير
تحتفي بالفصل.

يا زارعي البذور
إنه وقت البذار
فلنجهد بعزم وقوة

دافعين الأرض كي تقدم
خيراتها حبوباً من ذهب
الآن أيضاً وقتك
يا شاعر الأحزان والألم
لتنبذ شجون أيام خلت
ولتدع الآمال تنتعش
في القلوب التي طالت معاناتها.
فأرضنا التي كانت إلى موات
الآن . تحت سماء ساطعة،
تولد من جديد،
المنغصات الآن ذكريات لا أكثر.
في الصدر الدافئ للأرض
ستتدفع ثانية
دماء المحاربين التي تفور

6 تموز 1937

بُركة شتاء

بركة شتاء
وحيدة كقلب رجل عجوز .
قلب عرف حتى الإفراط مرارة العالم.
بركة شتاء

جافة تماماً، كعينيّ رجل عجوز
عينين أحال الجهد بريقهما انطفاء.

بركة شتاء
مبدّدة، كشعر رجل عجوز
شعر بلون الرماد، مبعثر كعشب الشتاء.
بركة شتاء
كئيبة كرجل عجوز محزون
عجوز ينحني تحت سماء مكفهرة.

كانون ثاني 1940

أشجار

شجرة، شجرة أخرى
كلّ تقف وحيدة منتصبة
الريح والهواء
تحكيان، عن امتداد كل منهما منعزلة
لكن، تحت غطاء الأرض
جذورهما تمتد
وفي أعماق لا يمكن أن تُرى
جذور الأشجار تتضافر.

ربيع 1940

نَجَدْ[1]

النهارُ هنا
لِمَ هو حار
بالغُ العلو هنا
قريب للشمس
المساءُ هنا
لِمَ هو بارد



بالغ العلو هنا
قريب للقمر
لِمَ هو حار قرب الشمس
لِمَ هو بارد قرب القمر
الشمس نار
القمر جليد

1956

أمل

صديقة الحلم
أخت الوهم

(1) تلفت النظر إلى غياب علامات الترقيم في بعض القصائد تقيداً بالنص الإنكليزي والنص الأصلي للقصائد. (المترجم).

في الأصل ظلك
رغم ذاك دائماً أمامك
متماهية كضوء
مضطربة كريح

بينك وبينها
تقيم دائماً مسافة

كطيور خارج النافذة تطير
كغيوم في السماء تطفو

كفراشات بقرب النهر
ماكرة محبوبة

حين تنهض نحوها، تفر
تتجاهلها، توقظك

هي دائماً معك
حتى النفس الأخير

الزهراء: نجمة الصباح[1]

لك الوقت
لحظة يحل النور محل الظلام
حين يفر ليل بهيم
ويتبعه نهار ساطع في يقظته
ها قد تراجعت النجوم
وأنتِ لا تزالين هناك
تنتظرين الشمس. لتشرق.
مضاءة بأول إشعاعات الصباح
تغوصين في مراتب الضوء
إلى أن لا يتمكن من رؤيتك أحد.

آب 1956

المرآة

مجرد سطح أمس
غير أنها عصية سبر الغور

تعشق الحقيقة بعمق
لا تمتثر العيوب

(1) استخدمت كلمة Morning star في الترجمة الإنكليزية للتمييز بين Venus ـ نجمة الصباح والإلهة Venus. إذ يوجد في الصينية كلمتان مستقلتان للإشارة إلى ذلك.

نزيهة مع من يبتغونها
وكل شخص يستطيع فيها أن يرى نفسه
متقداً بالخمر
أم منهكاً، بشعر أبيض كالثلج.

البعض يعشقونها
لأنهم ذوو مظهر جميل

البعض يتفادونها
لأنها بالغة الصراحة

لكن هناك البعض
يكرهونها ويرغبون في تحطيمها.

1978

المظلة

في الصباح أسأل المظلة
"هل تفضلين أن تكوني محروقة بالشمس
أم مبتلة بالمطر؟
تبتسم المظلة. تقول:

"إن هذا ليس ما يهمني"
ألحُّ في السؤال
"وما الذي يهمك إذن؟"
تقول المظلة
إن الذي يهمني
في المطر عليَّ أن لا أدع ثياب الناس تبتل
في الشمس أن أكون غيمة فوق الرأس.

1978

سور

سور كالسكين
يشطر المدينة نصفين
نصف يقع في الشرق
نصف آخر في الغرب.

كم ارتفاع هذا السور؟
كم عرضه؟
كم طوله؟
حتى وإن يكن أعلى وأعرض وأطول
فليس بالإمكان أن يكون بعلو أو بعرض أو بطول

سور الصين العظيم.
لا شيء إلاّ أثر من التاريخ
جرح أمة
لا أحد يحب هذا السور.

ثلاثة أمتار ارتفاع لا شيء
خمسون سنتيمتراً سماكة لا شيء
خمسة وأربعون كيلو متراً طول لا شيء
حتى وإن يكون أعلى بألف مرة
حتى وإن يكن أسمك بألف مرة
حتى وإن يكن أطول بألف مرة
فكيف يستطيع أن يحتجز
الغيوم والرياح والمطر وأشعة شمس السماوات؟
كيف يستطيع أن يحجز
تيارات الماء والهواء؟
وكيف يستطيع أن يحجز
بليوناً من البشر
أفكارهم أكثر انطلاقاً من الرياح
إرادتهم أكثر رسوخاً من الأرض
وأمانيهم أكثر امتداداً من الزمن

بون 1979

مختارات من
كتاب "الأغاني" الصيني

■ ترجمة: خالد حداد ■
عن الإنكليزية

"كتاب الأغاني" هو أقدم مختارات شعرية في الصين، وكانت الأغاني الثلاثمئة والخمس الموجودة في هذه المجموعة لها شعبيتها بين القرنين الحادي عشر والسادس قبل الميلاد وربما تم جمعها في كتاب واحد خلال التاريخ الثاني. ويُعتبر أكثر من نصفها من الأغاني الشعبية التي تنتمي إلى أجزاء متعددة من البلاد، بينما الأغاني الباقية هي أغانٍ احتفالية أو مهرجانية كانت تغنى في البلاط أو في المآدب وعند تقديم القرابين إلى الآلهة أو الأجداد. وقد ظلت هذه القصائد، المكتوبة بحيوية وبأسلوب بسيط طبيعي، ممتعة جداً على امتداد الأجيال.

***

طيور العقاب الصائحة

بمرح تصيح طيور العقاب،
فوق الجزيرة داخل الجدول.
لطيفة ورشيقة تلك الفتاة،

وتليق زوجة للرجل النبيل.

قصيرة وطويلة نباتات الماء العائمة،
يساراً ويميناً يمكنك اقتلاعها.
لطيفة ورشيقة تلك الفتاة،
في يقظته يحن إليها وفي أحلامه.

حينما فشل الغزل،
في يقظته يفكر فيها وفي أحلامه.
تملؤه الأفكار الحزينة،
ويتقلب غير قادر على النوم.

قصيرة وطويلة نباتات الماء العائمة،
يساراً ويميناً يمكنك جمعها.
لطيفة ورشيقة تلك الفتاة،
يريد أن يتزوجها، وتصدح أنغام الكين والسي[1].

قصيرة وطويلة نباتات الماء العائمة،
يساراً ويميناً يمكنك قطفها.
لطيفة ورشيقة تلك الفتاة،

[1] آلتان موسيقيتان صينيتان تقليديتان، تشبهان آلة القانون؛ الأولى لها سبعة أوتار والثانية خمسة وعشرون وتراً.

يريد أن يتزوجها، وتقرع الأجراس وتضرب الطبول.

شجرة الدراق نحيلة وقوية

شجرة الدراق نحيلة وقوية،
أزهارها حمراء نارية.
الفتاة سوف تتزوج،
وهذا ملائم أكثر للمنزل.

شجرة الدراق نحيلة وقوية،
ثمارها حلوة المذاق ووافرة.
الفتاة سوف تتزوج،
وهذا ملائم أكثر للبيت.

شجرة الدراق نحيلة وقوية،
أوراقها غزيرة وخضراء.
الفتاة سوف تتزوج،
وهذا ملائم أكثر للعائلة.

قارب خشب السرو

يطوف حراً قارب خشب السرو،
يتمايل على طول الجدول.
عيناي مفتوحتان، لا أستطيع النوم،
كأن قلبي مثقل بالأسى.
ليس لأنني بلا نبيذ أشربه،
أو بلا مكان أستمتع بزيارته.

قلبي لا يشبه مرآة برونزية،
تتشرب انعكاس كل شيء.
لدي أخوة، أكبر وأصغر مني،
ولكن لا أحد جدير بالثقة.
حين حاولت أن أصرح بحزني،
رأيتهم قد غضبوا مني.

قلبي لا يشبه الحجر،
ولا يمكن أن يدور ويتحرك بسهولة.
قلبي لا يشبه الحصيرة،
ولا يمكن أن يلتف حسب الرغبة،
بالكرامة والشرف،
لن أحجم أو أستسلم أبداً.

قلبي مثقل بالغيظ،
فالأوغاد يحملون أحقادهم ضدي.
وكانوا يجابهونني بكآبة مفرطة،
ويعاملونني بتحقير زائد.
وبينما أفكر بصمت في هذا،
أسحق صدري حين تتضح الحقيقة الحزينة لي.

أيتها الشمس، أيها القمر،
لم أنتما قاتمان جداً دائماً؟
قلبي ملطخ بالحزن،
لا يمكن تنظيفه مثل الملابس الوسخة.
أفكر بصمت في هذا،
ولا أستطيع نشر جناحي والتحليق عالياً.

اقترب الظلام

اقترب الظلام،
اقترب الظلام،
لم لا نذهب إلى البيت؟
إذا لم يكن من أجل سخرة السيد،

فلماذا علينا أن نعاني من الندى الثقيل؟

اقترب الظلام،
اقترب الظلام،
لم لا نذهب إلى البيت؟
إذا لم يكن من أجل شخص السيد،
فلماذا علينا أن نكدح في الطين؟

تأمل العيش مع سيدها حتى الموت

تأمل العيش مع سيدها حتى الموت،
تضع تاجاً صغيراً ذات ست جواهر.
يبدو جليلاً وأنيقاً جداً،
مثل الجبال المهيبة والأنهار الرشيقة.
الثوب المصبوغ يلائمها جيداً.
لكن القدر كان سيئاً معها،
يا لسوء الحظ الذي يستحيل تجنبه!

مشرقة ورائعة جداً
ريشات طائر التدرج المصبوغة على عباءتها.
والشعر الأسود الفاحم يتوج رأسها كالغيوم،

لا تحتاج إلى خصلات شعر مزيفة.
قرطاها مصنوعان من حجر اليَشْم،
ومشط رأسها من العاج.
واسع جبينها وبشرتها صافية.
لم يجب أن تذهب إلى السماء؟
لماذا تقدم نفسها أمام الآلهة؟

فاتنة ومتألقة جداً
في ملابسها الاحتفالية الناصعة البياض.
فوق ثياب تحتية من الحرير الرقيق
إنها ترتدي ثياباً تحتية ضيقة.
عيناها ساطعتان ومتلألئتان،
وحاجبها عريض.
حقاً، سيدة مثلها فقط
يمكن أن تكون حسناء هذه الدولة.

طيور السنونو

طيور السنونو تحلق بأجنحتها،
ريشاتها قصيرة وطويلة.
تذهب السيدة باتجاه البيت،

بعيداً وراء الحقول أودعها.
وأحدق حتى تصبح خارج مرمى البصر،
ودموعي تنهمر مثل المطر.

طيور السنونو تحلق بأجنحتها،
وتحوم إلى الأعلى والأسفل.
تذهب السيدة باتجاه البيت،
بعيداً أودعها.
وأحدق حتى تصبح خارج مرمى البصر،
وأقف وقتاً طويلاً وأنا أبكي.

طيور السنونو تحلق بأجنحتها،
يعلو وينخفض غناؤها.
تذهب السيدة باتجاه البيت،
بعيداً إلى الجنوب أودعها.
وأحدق حتى تصبح خارج مرمى البصر،
وقلبي يمتلئ بالحزن.

رين هي كنية السيدة زونج هذه،
قلبها صادق وعميق.
لطيف ورقيق،

تبقى حذرة وطاهرة.
بسبب حب الملك الراحل،
فطاعة الأولاد واجبة على أرامله.

السيدة الممتلئة

السيدة الممتلئة ضخمة وطويلة،
تضع رداء فوق ثوب من القماش المطرز.
إنها ابنة دوق (كي)،
وهي الآن عروس دوق (وي)؛
والأخت الصغرى لوريث (كي)؛
وأخت زوجة مركيز (شينغ)،
ولورد (تان) هو نسيبها.

أصابعها الرقيقة طرية كالعشب،
وجلدها أبيض وأملس كدهن خنزير ،
وعنقها طويل وناعم مثل يرقة الخنفساء،
وأسنانها مستوية وبيضاء مثل بذور البطيخ،
ورأسها ممتلئ ومربع، وحاجباها طويلان ومقوسان،
والابتسامة الحلوة تترك غمازتين عند زاويتي فمها،
وعيناها الجميلتان، يتميز سوادهما وبياضهما بوضوح.

السيدة الممتلئة ضخمة وطويلة،
عند الضواحي تتوقف لتستريح.
الجياد الأربعة نشيطة وقوية،
الزخارف الحريرية الحمراء رائعة على شكائمها،
بعربة مغطاة بالستائر، ومكسوة بريش طائر التدرج، تصل إلى البلاط.
غادروا البلاط باكراً، أيها الموظفون الكبار،
لا تزعجوا دوقنا وترهقوه!

هائلة وضخمة مياه النهر الأصفر،
تندفع أمواجه المرحة شمالاً؛
وعندما تتلاعب شبكة وتصدر صوت حفيف،
تتقافز الأسماك فيتناثر الماء،
والقصب عند الضفتين يرتفع عالياً،
جميع خادمات زفافها نحيلات ومترفات اللباس،
وجميع مقاتليها أنيقون ورائعون.

سفرجلة

رمت لي سفرجلة،

فأعطيتها بالمقابل قلادة من حجر اليَشْم.
لم تكن مجرد مكافأة،
ولكن لأظهر أنني سأحبها إلى الأبد.

رمت لي دراقة،
فأعطيتها بالمقابل قلادة من الجواهر.
لم تكن مجرد مكافأة،
ولكن لأظهر أنني سأحبها إلى الأبد.

رمت لي خوخة،
فأعطيتها بالمقابل قلادة من اليَشْب.
لم تكن مجرد مكافأة،
ولكن لأظهر أنني سأحبها إلى الأبد.

تقول الزوجة: "الديك يصيح".

تقول الزوجة: "الديك يصيح".
فيجيب الزوج: "لم يكد يبزغ الفجر".
"انهض وانظر إلى سماء الليل،
نجمة الصباح عالية وساطعة".
"سوف أنهض على راحتي،

وأذهب لصيد البط البري والإوز".

"عندما تطلق النار، ستملأ بها حقيبة كبيرة،
وسوف أعدها لك جيداً.
مع هذه الطيبات سوف نشرب
نخب شيخوخة سعيدة.
مع هذا الحب المتآلف.
الجميع سيكونون سعداء وآمنين".

"لأنني أعرف اهتمامك العميق بي،
سأهديك قلادة ملونة من حجر اليَشْم.
لأنني أعرف مشاعرك الرقيقة نحوي،
سأعطيك قلادة ملونة من حجر اليَشْم.
لأنني أعرف حبك الطاهر لي،
سأكافئك بقلادة ملونة من حجر اليَشْم.

إذا كنت تحبني حقاً

إذا كنت تحبني حقاً،
ارفع ثوبك واعبر نهر (زين)!
إذا كنت لا تحبني،

ما رأيك برجل آخر؟
أوه، إنك الأكثر حماقة بين الحمقى!

إذا كنت تحبني حقاً،
ارفع ثوبك واعبر نهر (وي)!
إذا كنت لا تحبني،
ما رأيك برجل آخر؟
أوه، إنك الأكثر حماقة بين الحمقى!

الريح والمطر

الريح قارسة والمطر بارد،
وصوت الدجاج مرتفع.
رأيت الآن رجُلي الطيب ثانية،
كم يشعر قلبي بالطمأنينة!

تصفر الريح والمطر يقرع،
وصوت الدجاج مرح.
رأيت الآن رجُلي الطيب ثانية،
كم يصبح قلبي مشرقاً!

الريح والمطر يكتسحان السماء الكئيبة،
وصوت الدجاج لا يتوقف.
رأيت الآن رجُلي الطيب ثانية،
كم يشعر قلبي بالبهجة!

المثقف ذو الياقة الزرقاء

أيها المثقف ذو الياقة الزرقاء
أحن إليك منذ وقت طويل.
ولو أنني لم أذهب لزيارتك،
لماذا لا ترسل لي بعض الأخبار؟

أيها المثقف ذو الشريط الحريري الأزرق،
أحبك منذ وقت طويل.
ولو أنني لم أذهب لزيارتك،
لماذا لا تأتي كي تراني؟

أظل أمشي ذهاباً وإياباً،
على برج سور المدينة.
إن مر يوم ولم أرك،
يبدو لي وكأنه ثلاثة شهور!

خارج بوابة المدينة الشرقية

خارج بوابة المدينة الشرقية،
تشبه البنات غيوماً ملونة.
ومع أنهن جميلات كالغيوم،
لم تسكن قلبي منهن حتى الآن.
إلا صاحبة الثوب الأبيض والوشاح المخضر
التي أشعر بالشوق للقائها.

خارج بوابة المدينة الخارجية،
تشبه البنات أزهار القصب.
ومع أنهن جميلات كأزهار القصب،
لم تمكث في قلبي منهن حتى الآن.
إلا صاحبة الثوب الأبيض والمنديل القرمزي
التي أمتلئ بهجة حين أراها.

في البراري نمت النباتلت المتسلقة

في البراري نمت النباتات المتسلقة،
بقطرات الندى الثقيلة والكثيفة.

كانت هنالك فتاة، جميلة ومشرقة،
قسماتها رقيقة وساحرة جداً.
بالصدفة التقينا،
كانت تجسد رغبتي الطويلة.

في البراري نمت النباتات المتسلقة،
بقطرات الندى الممتلئة والمستديرة.
كانت هنالك فتاة، جميلة ومشرقة،
قسماتها ساحرة ورقيقة جداً.
بالصدفة التقينا،
معها الحياة ستكون سعيدة.

مربوطة بإحكام

مربوطة بإحكام حزمة الحطب،
النجوم الثلاث[1] عالية في السماء.
أوه، أي ليلة هذه؟
هنا أقابل رجلي الطيب.
يا للقدر! يا للقدر!

[1] تختلف تفسيرات هذه القصيدة، وبعضها يوضح أنها تشير في المقطع الأول إلى نطاق برج الجوزاء ويشير البيت إلى الفصل؛ وتشير في المقطع الثاني إلى ثلاث نجوم ساطعة في برج العقرب ويشير البيت إلى وقت متأخر من المساء؛ وتشير في المقطع الثالث إلى النسر الطائر ويشير البيت إلى حلول منتصف الليل.

كم أنا محظوظة إذ أرى رجلي الطيب!

مربوطة بإحكام حزمة التبن،
النجوم الثلاث في ركن المنزل،
أوه، أي ليلة هذه؟
هنا أقابل زوجي المجهول.
يا للقدر! يا للقدر!
كم أنا محظوظة إذ أرى زوجي المجهول!

مربوطة بإحكام حزمة العليق،
النجوم الثلاث أمام الباب.
أوه، أي ليلة هذه؟
هنا أقابل رجلي الجميل
يا للقدر! يا للقدر!
كم أنا محظوظة إذ أرى رجلي الجميل!

ريش الدجاج البري

أسمع حفيف ريش الدجاج البري،
وهو يحط على أشجار البلوط.
سخرة الملك لا تترك مجالاً للهدوء والراحة،

مستحيل أن أزرع الدخن!
على ماذا سيعتمد والداي في معيشتهما؟
أيتها السماء! أيتها السماء!
متى أعيش حياة ترف وراحة؟

أسمع حفيف رفرفة أجنحة الدجاج البري،
وهو يحط على أشجار العليق.
سخرة الملك لا تترك مجالاً للهدوء والراحة،
مستحيل أن أزرع الدخن!
على ماذا سيتكل والداي في معيشتهما؟
أيتها السماء! أيتها السماء!
متى يصل هذا كله إلى نهايته؟

أسمع حفيف رف الدجاج البري وهو يأتي،
وهو يحط على أشجار التوت.
سخرة الملك لا تترك مجالاً للهدوء والراحة،
مستحيل أن أزرع الأرز!
على ماذا سيعتمد والداي لطعامهما؟
أيتها السماء! أيتها السماء!
متى تستأنف الحياة هدوءها؟

القصبات

القصبات فاخرة وخضراء،
الندى الأبيض تحول إلى صقيع.
حبيبي الغالي علي جداً
في مكان ما خلف المياه.
عند منبع النهر أبحث عنه،
الطريق شاق وطويل.
عند مصب النهر أبحث عنه،
يبدو أنه في وسط المياه.

القصبات غزيرة وقوية،
الندى الأبيض لم يجففها بعد.
حبيبي الغالي علي جداً
في مكان قرب ضفة النهر.
عند منبع النهر أبحث عنه،
الطريق شاق وقاس.
عند مصب النهر أبحث عنه،
يبدو أنه في مكان ضحل من المياه.

القصبات مزهرة ومورقة،

الندى الأبيض لا يزال ينهمر.
حبيبي الغالي علي جداً
في مكان ما قرب شاطئ النهر.
عند منبع النهر أبحث عنه،
الطريق شاق ومتعرج.
عند مصب النهر أبحث عنه،
يبدو أنه على جزيرة في المياه.

كيف تقول إنك لا تملك ثياباً؟

كيف تقول إنك لا تملك ثياباً؟
سأتقاسم معك ردائي المبطن.
الملك يبعث بجنوده ليحاربوا،
دعنا نجهز خناجرنا وحرابنا.
إلى جانبك، سأقاتل عدونا المشترك.

كيف تقول إنك لا تملك ثياباً؟
سأتقاسم معك قميصي الداخلي.
الملك يبعث بجنوده ليحاربوا،
دعنا نجهز رماحنا وفؤوسنا.
إلى جانبك، سأنطلق إلى الحرب.

كيف تقول إنك لا تملك ثياباً؟
سأتقاسم معك تنورتي المتواضعة.
الملك يبعث بجنوده ليحاربوا،
دعنا نجهز صنع درعنا عائق المستعد وأسلحتنا.
إلى جانبك، سأسير إلى الجبهة.

في السهول تنمو شجرة الكارامبولا

في السهول تنمو شجرة الكارامبولا
رقيقة ورشيقة أغصانها.
كم تبدين قوية وجميلة،
وأنا سعيد لأنك بلا مشاعر.

في السهول تنمو شجرة الكارامبولا
رقيقة ورشيقة أزهارها.
كم تبدين قوية وجميلة.
وأنا سعيد لأنك بلا بيت.

في السهول تنمو شجرة الكارامبولا
رقيقة ورشيقة ثمرتها.

كم تبدين قوية وجميلة،
وأنا سعيد لأنك بلا عائلة.

البومة

آه، أيتها بومة!
لقد أخذت فراخي،
أرجوك لا تدمري عشي.
فأنا بكل هذا الحب وهذه الآلام،
عانيت حتى تفقس صغاري.

قبل نوبة الطقس الرطب،
نزعت بعض قطع جذور التوت
لأصلح عشي، نافذته وبابه.
لكن الناس في الأسفل،
ربما تتجرأ وتستقوي علي،

عملت بجد بالغ،
وأنا أذهب هنا وهناك لأجمع زهور القصب
التي احتفظت بها مخزونة.
وكان منقاري مقرحاً ومرهقاً،

لكنني لا أزال بلا منزل ملكي.

ريشي ممزق ومتناثر،
وذيلي فقد بريقه.
وعشي يتمايل ويترنح،
تحت رحمة الريح والمطر،
وفي الخطر لا أستطيع الامتناع عن البكاء.



□□

خارج مكتب الزواج

- هيْ زياو هو -

■ **ترجمة: ثائر ديب**■

عن الإنكليزية

يقول الجميع إنني قد حظيت بزيجةٍ صالحة وإنّ عليّ أن أكون ممتناً لمكتب الزواج. غير أنّ زواجنا لم يُرتَّب داخل المكتب، بل خارجه. لا تصدقونني؟ اسمعوا، إذاً.

زواج الرجال والنساء ضرورة من الضرورات. لكنني لا أزال عازباً على الرغم من مقابلتي نصف دزينة من الشريكات المحتملات واقترابي من التاسعة والعشرين من العمر.

والشباب العازبون يبدون حساسية خاصة فيما يتعلّق بأعمارهم، فكلما كَبُرَ الرقم، ازدادت الوطأة على صدورهم.

هل كان ذلك بسبب بشاعتي؟.. لا، ففي السنة الماضية، حين عُيِّنتُ أستاذاً متقدّماً، وَصَفَ صحفيّ مظهري على النحو التالي: "على الرغم من أننا لا نستطيع وصفه بالوسامة، فإنّ عينيه السوداوين اللامعتين، تحت أهدابه الطويلة، تشعّان بحيوية الشباب، وبنيته الرياضية القوية تجعله فتى جذّاباً يلفت الأنظار".

لقد كانت مهنتي السببَ الأساسي لإخفاقي في الحبّ. فأنا أستاذ الرياضة

في مدرسة ابتدائية. وانتكاساتي في شؤون القلب زوّدتني بمرآة، أمكنني أن أرى فيها بوضوح مكانتي في عيون بعض الناس.

كان حبّي الأول زميلةَ مدرسةٍ قديمة، تعمل في مصنعٍ للنسيج، كثيراً ما كُنّا نسير على ضفة النهر ويدها في يدي، نرنو إلى الشمس الغاربة بصفرتها البرتقالية، وإلى سحب العشيّة الساحرة، فنحسّ بقلبينا يخفقان معاً، وأغاني البهجة تصدح من حولنا، آه، يا لتلك الأيام الذهبية، أيامِ أحلام الشباب.

وفي مرّةٍ، ألقت برأسها على كتفي وقالت بصوت ناعم حنون: "وي يانغ.... ألا تستطيع أن تحصل على عمل آخر؟... أصدقائي في العمل يسخرون مني".

شعرتُ بوخزةٍ تخترق قلبي.

وألحّت وهي تزداد التصاقاً بي: "غيّر عملك أرجوك. يمكن لوالدي أن يساعدك...".

وارتفعت في قلبي موجةٌ من الهدوء والسكينة. نظرتُ في عينيها، ورأيت رجاءها. غير أني رأيت أيضاً إشفاقها عليّ، وهذا ما لم أستطع أن أطيقه. كان فيه احتقار لعملي، وتحطيمٌ لاحترامي لنفسي. واحتشد في حلقي كمٌّ وافرٌ من كلمات الازدراء، لكنني أفلحت في كبتها. وافترقنا بإحسان، دون أن تصدر عني كلمة غاضبة واحدة.

آخر نقاشٍ مثل هذا كان في السنة الماضية. كانت واحدة من جاراتي قد عرّفتني على فتاةٍ عصرية على الموضة. وحين التقينا، طَرَفَتْ عيناها الواسعتان الفاتنتان ونظرتا إليّ كما لو كنتُ حيواناً نادراً، لكنها ما إن عَلِمَتْ مهنتي حتى أظلمت عيناها، مثل مصباحين يخبوان. وتركتني دون استئذان. فمضيت أنا أيضاً. وخارج نافذة جارتي، سمعتها وهي تفرغ جام غضبها: أنت تستهينين بي، يا خالة! قلتِ إنك ستعرفينني برياضيّ، رياضيّ ما! إنّهُ أستاذ الرياضة في مدرسة ابتدائية. أيّ عمل هذا؟ أساتذة الرياضة في المدارس الابتدائية يُنظَر إليهم كمواطنين من الدرجة الثانية. هذا لا ينفع!"...

كان الإعلان عن افتتاح مكتب الزواج قد ظهر في مستطيل بحجم علبة كبريت في الزاوية اليمنى السفلية من الصفحة الرابعة في صحيفة محلية. لكنّ ردّة الفعل التي أثارها هذا الإعلان فاقت بكثير ما تثيره أخبار الصفحة الأولى. أمّا موقع المكتب فكان في هواشنغ لان، وهو شارع خلفي هادئ وضيّق لا تعرفه سوى قلّة قليلة من البشر، لكنّه سرعان ما غصّ بالألوان حين اندفع إليه كثير من الفتيان والفتيات بثيابهن الزاهية، كما امتلأ برنين أجراس الدرّاجات، والضحك، والابتسام، وموسيقى القيثارة الناعمة، والموسيقى الإلكترونية على أشرطة التسجيل، وأغاني مشاهير المطربين. بل إنّ بعض الشعراء أطلقوا على هذا الشارع العادي الصغير اسماً رومانسياً هو "درب الحبّ والجمال".

وبإلحاح متكرّر من أمّي، أخذت بطاقة إقامتي، وإجازةً وصورةً لي، وارتديت بذّة صوفية جديدة ومضيت إلى "درب الحبّ والجمال".

وسرعان ما قطع أفكاري هجوم الموسيقى الإلكترونية. فقد اندفع ثلاثة أو أربعة من الشباب العصريين متباهين بآلات التسجيل التي يحملونها. كان أحدهم وَبْشاً مشهوراً من الحيّ الشمالي في المدينة. وهذا ما أحبط دفعةً واحدةً معنوياتي التي كانت مرتفعة. أيمكن أن أجد الحب بين مثل هؤلاء الأشخاص الرديئين؟... الحبّ الذي أفتّش عنه لابدّ أن يكون مختلفاً تماماً عن حبّهم.

وفي غمرة ترددي جاءني صوت ساحر رخيم يسألني: "أستاذ وانغ، إلى أين؟". ووجدتُ أمامي فتاة طويلة، نحيلة، بارعة الجمال.

كانت شقيقة واحدٍ من تلامذتي. ولم أكن أعلم سوى كنيتها "باي". "أوه، آنسة باي، أنا ذاهب إلى...". اللعنة! كيف يمكن أن أُخبرَ فتاةً غريبةً أنني ذاهب إلى مكتب الزواج لأبحث عن شريكة؟.. "أنا.... أنا ذاهب لزيارة أهل أحد تلامذتي. وأنتِ... إلى أين؟".

ابتسمت الآنسة باي، وقالت: "أنا ذاهبة إلى محلّ الخردوات شرقي المدينة".

"حسنٌ"، أومأتُ برأسي، وتابعتُ، متعجّلاً.

مشيتُ مسافة قصيرة ثم عدتُ أدراجي، مفترضاً أنَّ الآنسة باي لابدّ أن تكون قد ابتعدتْ. لكنني لمحتها وهي تعود أدراجها أيضاً. كانت ضفائرها تهتزّ، وهي تتلفّت وتجتاز بسرعة باب المكتب المدهون بالسيلقون. غمرتني البهجة، وخطر في ذهني: "مع بنات مثل الآنسة باي لابدّ أن أجد حبّاً حقيقياً". وغاب في الحال ذلك الانطباع المزعج الذي تركه لديّ مرأى أولئك الشباب قبل هنيهة. ودخلتُ بسرعة باب المكتب ودلفتُ إلى غرفة استقبال الرجال.

وقفتُ عند النافذة ونظرت إلى غرفة استقبال النساء المقابلة. كانت بين حشد الفتيات بأثوابهنّ الزاهية واحدةٌ بدت مثل الآنسة باي. كانت تملأ البيانات مطرقةً برأسها. وراقبتها إلى أن أكملت الإجراءات وغادَرتْ.

ابتسمتُ.

جاء إليّ أحد عناصر المكتب، رجل أربعيني، وربَتَ على كتفي، قائلاً: "لا تَدُخْ هكذا. املأ البيانات أولاً. يمكنك أن تعتمد عليّ. اسمي تُشِنْ سوف أجلب لك السعادة". أومأت برأسي ممتناً وأخذت الورقتين اللتين سلّمهما لي. كانتا مطبوعتَين حديثاً، ورائحة الحبر لا تزال تنبعث منهما. كان من السهل ملء الورقة الأولى، فهي أشبه بالسيرة الذاتية، أمّا الثانية فقد سبّبت لي صداعاً. ففي رأس الصفحة كان مكتوباً "مواصفات الشريك"، وتحتها عشرة أعمدة تشتمل على مهنة الفتاة المحتملة، وعمرها، وشخصيتها، ومظهرها، ووضعها المالي، وطولها، ومحلّ ولادتها، وجنسيّتها، وهواياتها، وظروفها العائلية العامة. وعبر هذه البنود المجردة، كنت أرى كائناً بشرياً حيّاً وملموساً، فتاةً ودودة عطوفة، تلمع في وجهها البيضوي المورّد عينان سوداوان برّاقتان تنمّان على طهارة قلبها. بل كانت ذات طبْع رضيّ، وهيئة جميلة بشامةٍ تخلب اللبّ تحت أذنها اليسرى.

كيف كان يمكن لي أن أنساها، على الرغم من أنني لم أكد أعرف اسمها ولم أقابلها سوى مرّات ثلاث؟...

كان لقاؤنا الأول في شتاء السنة الماضية. كنت قد أخذت تلامذتي للتزلّج في المتنزّه. فجأة، خرج أحد الأولاد خارج الحدود وسقط في حفرة جليدية، بوغِتُ

وقفزتُ في الماء وانتشلته. كان من حسن الحظ أنني أنقذته في الوقت المناسب؛ وبعد أن بدّل ملابسه. لم يلبث أن تعافى. لكن أحد الأساتذة حذّرني قائلاً: "انتظر، سوف يأتي أهله ليشتكوا! مرّة، وأنا أعطي درس ألعاب القوى، لوى أحد التلاميذ كاحله وهو يقفز فوق حصان الوثب. أقام أهله الدنيا وأقعدوها. أنت فعلت ماهو أسوأ، كدت تُغرق الصبي".

حين رافقتُ الصبي إلى بيته، كنتُ عصبيّ المزاج، متوقّعاً حصول مواجهة مع أهله الغاضبين. ولدى دخول البيت، كان الشخص الوحيد الذي استقبلني هو أخته الكبرى، الآنسة باي. وبدلاً من أن تلومني لدى سماعها القصة، نظرت إليّ بعينين ممتنّتين، وراحت تشكرني مرّة بعد مرّة وقدّمت لي الشاي والسجائر. غدوتُ بطلاً. لكنني لم أكن مرتاحاً، ورحتُ أنتقدُ نفسي. وحين خرجتُ ووصلت إلى أول الزقاق، التفتُّ وكان لا يزال بمقدوري أن أرى، تحت ضوء الشارع الخفيف، هيئتها الجميلة، وهي لا تزال تلوّح لي بيديها.

كان لقاؤنا الثاني في أول الربيع هذا العام. كنت قد أخذتُ بعض التلاميذ لرؤية استعراض ألعاب القوى في الأستاد. وبعد العرض، بدأ المطر ينهمر مدراراً ومنعنا من العودة. كانت تلك مشكلة يصعب حلّها على أستاذ مثلي. فبعد قليل كان سيحلّ وقت الغداء. وبينما كنت أفكر فيما يمكن أن أفعله، فُتِحَ باب مكتب قطع التذاكر، وأومأت الآنسة باي بيدها إليّ:"أستاذ وانغ، مادمت لا تستطيع العودة إلى المدرسة، فادخل وتدفّأ". ورفضت: "لا أريد أن أقطع عملك". لم أكن قد التقيتها سوى مرّة من قبل، فكيف يمكن أن أسبّب لها مشكلة؟.. لقد دعتني بدافع التهذيب، وماكان بمقدوري أن أقبل.

غير أنّ الآنسة باي ألحّت: "أنت أستاذ، فماذا عن تلاميذك؟... الطقس بارد جداً، والمطر لن يتوقّف عمّا قريب. تعالوا واشربوا بعض الماء الساخن. لقد قارب الوقت الظهر. يمكنك شراء بعض الخبز للأولاد. لديّ نقود وبطاقات إعاشة. ويمكنك أن تستخدمها".

ياللدقّة التي حسبتْ فيها حساب كلّ شيء!... ولما رأيتُ صدقها، كففتُ عن الرفض. سمحتُ للأولاد أن ينحشروا في غرفتها، بينما جلبتْ هي إبريقين

كبيرين وبعض الزبادي والطعام، ثم أشارت إليّ: "أستاذ وانغ، اشربوا الماء أولاً. سأذهب لأحضر الخبز".

حين وصف علماء النفس حالة العازبين الذهنية، كتبوا يقولون: "مع الاقتراب من حالة النضج، ترتسم في الذهن صورة "الشخص المثالي"، شيئاً فشيئاً، وتكون خليطاً من شخصية المرء ذاته، والأشياء المفضّلة لديه، وسلوكه، وعاداته. ولدى التواصل مع شخص من الجنس الآخر والحديث معه، فإنّ المرء يتحرّى الطرف الآخر ويفكّر فيه تبعاً لصورة "الشخص المثالي" المتخيَّل. ولقد كنتُ آنئذٍ في مثل هذه الحال. وعلى صوت المطر، كنت أتجاذب أطراف الحديث مع الآنسة باي وآكل معها. وكانت نظراتنا الخاطفة الدافئة تعبّر عن عاطفةٍ رقيقة مترددة. وأثناء حديثنا، كان أحدنا يقوّم الآخر، في محاولةٍ لإيجاد أرضية مشتركة.

توقّف المطر وسطعت الشمس من جديد، فاستأتُ. لماذا لا تنتظر الشمس أن نكمل حديثنا الشائق؟...

وبقيت في حالٍ من الاضطراب أياماً عدّة. تملّكتني ضروب من التوق والقلق. اختلّ توازني. وكنت أعلم ماينبغي أن أقوم به لكي أستعيده. وأخيراً جاءت العطلة. ركبت دراجتي وذهبت لأعيد النقود وبطاقات الإعاشة للآنسة باي أملاً أن أستأنف ماكنا قد بدأناه من حديث.

كانت تلعب الكرة الطائرة مع اثنين من الشباب أمام الأستاذ. كان أحدهما لاعباً مشهوراً في فريق كرة السلّة في المنطقة؛ أمّا الآخر فكان لاعب كرةٍ طائرةٍ من الطراز الأول، ولدى رؤيتها لي، أعلنت الآنسة باي فرحة: "هاهو رياضي آخر". وعرّفتني على اللاعبين. وحين علما أنّني مجرد أستاذ للرياضة في مدرسة ابتدائية، لم يخفِ لاعب كرة السلة ازدراءه وصافحني على مضض.

لقد أدركتُ المسافة التي تفصلني عن مثل هؤلاء الرياضيين، وتردّد في ذهني القول: "مواطنون من الدرجة الثانية. هذا لا ينفع". كيف يمكن لفتاة متألقةٍ محاطة بمثل هؤلاء الأبطال أن تقع في حبّ "مواطن من الدرجة الثانية"

مثلي؟ لقد كان تصرّفها بدافع الكياسة وحدها، أما أنا، الملتاع، فقد أسبغتُ على ذلك دلالةً وأهميةً عميقتين.عليّ أن أتمالك نفسي. لقد سبق أن رفضتني ستُّ بنات قبلها. فهل من حاجةٍ لسابعة؟...

هكذا أعدتُ النقود وبطاقات الإعاشة إلى الآنسة باي مع ابتسامةٍ باهتة ومضيت في الحال.

وها أنا الآن ألتقيها في مكتب الزواج. معنى ذلك أنها لم تجد بعد حبيبها، يالها من أخبار طيبة... فعبر مكتب الزواج، كان بمقدوري أن أواصل الحديث مع الآنسة باي وأناقش معها الأمور بمزيد من الصراحة والصدق. وحتى لو لم يُفلح الأمر، فإنني لن أشعر بالإذلال أو الارتباك.

"مكتب الزواج أمرٌ حسنٌ بالفعل"، قلت في نفسي.

وتبعاً لما أعلمه من الآنسة باي، ملأت الورقة الثانية على النحو التالي:

العمر: حوالي الخامسة والعشرين.

المهنة: ذات صلة بالرياضة.

الشخصية: ودودة، لطيفة، متسامحة.

الصفة المميزة: المسارعة إلى مدّ يد العون إلى الآخرين.

المظهر: ملامح متناسقة، جميلة ومتألقة، مع شامة سوداء تحت أذنها اليسرى.

أما بالنسبة لأوضاعها المالية وظروفها العائلية العامة، فقد كتبت: "لا يهمّ"، أو "ليس هنالك مطالب محدّدة".

سلّمتُ الورقتين لتشِن العجوز. وطرح عليّ بعض الأسئلة بينما كان ينظر فيهما.

"ذات صلة بالرياضة؟... ما معنى ذلك؟..".

أجبته: "أنا أستاذ رياضة. وآمل أن تقدّر زوجتي المقبلة مثل هذا العمل".

"بالطبع"، قال تشن العجوز، وهو ينقر بأصابعه على رأسه. "أنت تقصد فتاةً تعمل بائعة في متجر رياضيّ أو في الإعلانات الرياضية؟"...

أومأتُ برأسي موافقاً، وأضفتُ: "أو بائعة بطاقات في أستاد".

"وماهذا؟" تساءل تشن العجوز من جديد. "لقد كتبت" ذات ملامح متناسقة، جميلة ومتألقة، مع شامة سوداء تحت أذنها اليسرى". ما الذي تعنيه؟...

وسرعان ما اختلقت جواباً طائشاً:"أعني.. لأنّ أمي قد أخبرتني بأنّ في مسقط رأسنا مثل هذه العادة. فالشامة تحت الأذن اليسرى ترمز إلى حسن الطالع. والفتاة التي لديها مثل هذه العلامة يُعتقد أنها مطيعة تتحسّس ما عليها من واجبات".

"حسنٌ، أنت ولدٌ بارّ. لم يعد هناك كثيرون من أمثالك بين شباب هذه الأيام". ومع هذه الكلمات، راح يضع الورقتين اللتين سلّمتهما له بين الملفّات. ثمّ قال: "أرجوك، اترك لنا رقم هاتفك، وانتظر اللقاء السريع". ورافقني إلى الباب وضغط على يدي، وأضاف:"لا تقلق. كنت في الخامسة والثلاثين حين تزوجت. أفهم مخاوفك. وعلى الرغم من مواصفاتك غير المعتادة، سوف نبذل ما في وسعنا لكي نجد لك الشريكة المناسبة".

كانت الأيام التي تلت مفعمةً بالأمل والتوق. فجأة تملّك الهاتف أفكاري، بعد أن كنت لا أوليه أيّ اهتمام. وكلّما رنّ، كنت أول من يرفع السماعة. وحين لا يكون لديّ دروس ، كنتُ أجلس بقربه، وأربت على سماعته. وكانت أول مرّة أدرك فيها جمال الهاتف: "كان هاتفاً ورديّ اللون، بقرصٍ من الكروم، يلمع متألقاً، وشريطٍ أخضر، مثل علم خفّاق يزيّن الشارع أيام الاحتفال. ذلك كان الخيط الملوّن الذي سيأتيني بالزواج السعيد.

بعد عشرة أيام، جاءني الهاتف برسالةٍ من مكتب الزواج:"وجدنا لك شريكة محتملة. سوف يجري لقاؤكما في المقصورة قرب البوابة الشرقية للحديقة البلدية في الساعة الثالثة من بعد ظهر الغد. ستحمل الفتاة جريدة في يدها اليمنى.

تلافياً للخطأ، عليك أن تحمل مجلّة".

لم أبدّد الوقت في أن أحلق بنفسي، بل ذهبت إلى الحلاّق. وبأفضل بذّة لديّ، انطلقت إلى الحديقة كما لو كنتُ دبلوماسياً، يسافر إلى الخارج في مهمّة ذات شأن.

كانت النتيجة مخيّبة إلى أبعد الحدود. فالفتاة لم تكن الآنسة باي. ومع أنها كانت جميلة أيضاً ولها شامة سوداء تحت أذنها اليسرى، لكن عينيها بدتا لي خاليتين من البريق. وبدا صوتها خالياً من السحر. كانت تتكلّم بوتيرةٍ واحدةٍ، وتأكل أواخر الكلمات.وباختصار، كان الأمر أشبه بالإصغاء إلى موسيقى جنائزية، ولم يكن بمقدوري أن أتحمّل ذلك.

وبحسب قواعد المكتب، كان عليّ أن أقدّم تقريراً عن اللقاء الأول. وذهبت إلى هناك رأساً."إنها لا تنفع!"، قلتُ لتشن العجوز. "أرجوكِ جِدْ لي واحدة أخرى".

"ما السبب؟"، قال لي تشن العجوز وهو يخرج بياناتي، وينظر فيها متمهّلاً، ثم سألني: "ألا تنطبق عليها المواصفات التي طلبتها؟".

وأجبته: "لا بريق في عينيها".

"لا بريق؟". وابتسم تشن العجوز ابتسامته السَمْحة، وأشار إلى إحدى الورقتين، وتابع قائلاً: "لم تكتب ذلك هنا! يصعب إرضاؤكم أنتم الشباب. لا تريد فتاةً بشامة سوداء تحت أذنها اليسرى وحسب بل أيضاً بعينين برّاقتين!.. غريب!.. ها ها ها!....".

"لسنا مناسبين أحدنا للآخر، على أيّ حال".

"حسنٌ، حسنٌ!.. لقد تركت أحد الأعمدة شاغراً، وسوف أساعدك على ملئه في الحال: "عيناها ينبغي أن تكونا برّاقتين". ونهض تشن العجوز، وربت على كتفي بلطف وهو يشيّعني كالعادة إلى الباب. "لا تقلق كنت في الخامسة والثلاثين حين تزوجت. أفهم مخاوفك. وعلى الرغم من مواصفاتك غير المعتادة، سوف نبذل مافي وسعنا لكي نجد لك الشريكة المناسبة".

موعدي الثاني كان مع بطلةٍ في الرماية. كانت جميلة، ربما أجمل من الآنسة باي. وعلى الرغم من شامتها السوداء تحت أذنها اليسرى، لم يعترني ذلك الشعور المائع، المريح الذي شعرت به حين التقيت الآنسة باي. عيناها كانتا واسعتين، مثل فوّهة بندقية، يغشاهما نور باهت كما لو كانتا تسدّدان إليّ. واعترت جسدي رعشة شاملة.

هرعت ثانيةً إلى المكتب لكي أقدّم تقريراً لتشن العجوز. وكالعادة، ابتسم لي بمودّة، وقال: "كيف الحال هذه المرّة؟.. لا يمكنك القول إنّ عينيها بلا بريق...".

"بريق؟ إنهما مثل شعاعين من أشعة الليزر. لا أستطيع احتمالهما". وكالعادة، شيّعني تشن العجوز إلى الباب. وصافحني، وأضاف: "لا تقلق! كنت في الخامسة والثلاثين...".

وفي المرّة الثالثة، مضيتُ قبل أن يتمكّن تشن العجوز من القول: "لا تقلق!...".

وفي مدخل الزقاق، جلستُ يائساً على درج حجريّ ورأسي بين يديّ. لقد خاب أملي ثلاث مرّات. وكان واضحاً أنّ "الشخص المثالي" الذي تفكّر به الآنسة باي ليس شخصاً مثلي.

وحين رفعت رأسي، وقعت عيناي فجأةً على الآنسة باي. كانت تبتسم لي. ونهضتُ منتعشاً.

"أستاذ وانغ، إلى أين؟". سألتني بصوتها الموسيقي.

"أنا... أنا ذاهب لزيارة أهل واحدٍ من تلامذتي"، أجبتها بسرعة.

"لماذا تجلس هنا، إذاً؟".

"لقد تعبت من المشي... وجلست لأرتاح".

وشعرتُ بارتباك شديد: كان واضحاً أنني أكذب. وحاولت أن أخفي ارتباكي فقلت بضعفٍ:

"أراكِ ثانيةً. لديّ ما أفعله. إلى اللقاء...". وانسحبت.

بعد بضع خطوات، وقفتُ ورحتُ ألعن نفسي.

"ما الذي يجعلني، أنا الرجل الناضج، داجناً على هذا النحو؟". حين ذهبتُ إلى المكتب، كنتُ آمل أن يقدّموني إلى الآنسة باي، وقد كانت واقفةً أمامي الآن دون أن أجرؤ على أن أكلّمها. فهل ستأكلني؟".

والتفتُّ ورأيت أنها لا تزال واقفةً بلا حراك، مثل تمثال ربّةٍ يونانية، تحدّق بي.

استجمعت شجاعتي وعدت إليها. وبعد أن أطلقتُ تنهيدة عميقة، ثبّتُّ بصري إلى الأرض، وقلتُ بصوت خفيض: "لقد ذهبتُ إلى مكتب الزواج، لكنّ المواعيد التي رُتّبت لي لم تكن تنفع. هذه ثالث مرّة. أشعر بإحباط شديد".

"وأنا كذلك"، قالت الآنسة باي معترفةً. "أنا أيضاً ذهبت إلى هناك ورتّبوا لي ثلاثة مواعيد أيضاً، لم يكن أيّ منها مناسباً".

"أنتِ أيضاً...."وارتفع في صدري أملٌ لم يكن متوقّعاً، وراح قلبي يخفق بشدّة.

لم تقل الآنسة باي شيئاً. ورحنا نسير جنباً إلى جنب. ولم أتمالك نفسي عن سؤالها: "لديك في عملك فرص كثيرة لأن تلتقي نجوم عالم الرياضة. فما الذي يدفعك إلى اللجوء إلى مكتب الزواج؟".

أجابت: "مكانة الرجل وشخصيته أمران مختلفان".

استرخيت مثل جندي يتلقى الأمر: "استرح!". وكانت لديَّ الجرأة لأن أمازحها قائلاً: "لقد خيّبنا مكتب الزواج كلينا. وها نحن زميلان في المعاناة!".

"ليس الأمر كذلك بالضرورة"، ردّت قائلةً. "بحسب الرياضيات، خيبة زائد خيبة تساوي خيبتين. أما في الحياة، فقد تكون النتيجة معاكسةً تماماً في بعض الأحيان. خيبة زائد خيبة قد تساوي الأمل!"....

ما قالته كان غريباً، لكنه ينطوي على حقيقةٍ ما فلسفيةٍ. تسارع خفقان قلبي، لكنني لم أجد الشيء المناسب لكي أقوله. بدأت أتذوّق طعم الحبّ الرائع العميق، ذلك الطعم المثير والفاتن بخلاف تلك الخيبات الفعلية الكالحة التي

سبّبها مكتب الزواج. وانزلقت الكلمات من شفتيّ:"عَمَلُ المكتب أشبه بعمل أخي الأكبر. إنه يدرس الوراثة الحيوية. وكلّ يوم يسجّل على بطاقاته كثيراً من المعطيات المتعلّقة بالجنس، والوزن، ولون الشعر وهلمجرا...".

قهقهت الآنسة باي، وقالت: "باللسانك السليط!".

"لاشكَّ أن فريق المكتب يعمل بجدّ. خذي تشن العجوز مثلاً، كلما ذهبتُ إلى هناك يبدي الكثير من المودّة. لكنني لم أتعرف على الفتاة التي تروقني. لقد فشلت جميع المحاولات".

"مادامت فتاتك المثالية في ذهنك، لماذا لا تكلّمها مباشرةً. لماذا تسبّب مشكلةً لمكتب الزواج"؟...

"القول أهون من الفعل. لقد زُجرْتُ مرّات كثيرة. وعلى الرغم من حماسي لفتاة معينة، كيف يمكن أن أتأكد من اهتمامها بي؟.. فلست سوى أستاذ للرياضة في مدرسة ابتدائية". وألقيت إليها نظرةً خاطفةً مفعمة بالمعاني.

فجأةً تورّد خدّاها.

كنّا صامتين كلانا، وسرنا ببطء معاً، ننظر إلى الأرض، ونضرب أخماساً بأسداس... بعد برهة، سألتني الآنسة باي بصوت خفيض: "ما الذي تريده إذاً؟".

نظرتُ إليها، كان رأسها لا يزال خفيضاً، وكانت تحمل في يدها منديلاً أحمر. واستجمعتُ شجاعتي وأجبتُ: "يجب أن تكون لها شامة سوداء تحت أذنها اليسرى".

"وماذا أيضاً؟".

"يجب أن يكون لعملها صلة بالرياضة".

"وهل من شيء آخر؟".

"يجب أن تكون ودودةً ولطيفة، تسارع إلى مساعدة الآخرين، وعيناها برّاقتان...".

وصببتُ كل المواصفات التي أريدها.

"وهل من شيء آخر؟".

"لا هذا كلّ شيء!"، أكّدتُ لها بقوة.

"لكن"، رفعت الآنسة باي رأسها، ورمقتني بنظرة من طرف عينها، "كيف عرفت أن الفتاة التي تحلم بها قد ذهبت أيضاً إلى مكتب الزواج؟".

ولم أحر جواباً.

وتابعتْ بشيءٍ من العبوس: "ضع نفسك مكان الفتاة، كيف يمكن لها أن تقع في حبّ رجل يلاحقها خلسةً مثل عميل سرّي؟".

أثارني ذلك كثيراً، فسارعتُ محتجاً بصوت مرتفع: "لم ألاحقها. فقط راقبتها في غرفة الاستقبال حين كنتُ في الغرفة المخصصة للرجال".

ابتسمت الآنسة باي وأشارت إلى منديلها الأحمر: "أيها الوغد، لم أتخيّل أنك يمكن أن تقوم بمثل هذه الحيلة...".

......

بعد شهر، ذهبتُ إلى مكتب الزواج مع الآنسة باي.

استقبلني تشن العجوز بالمودّة المعهودة. وما إن رآني حتى بادرني بالقول: "لقد اهتممت كثيراً بمشكلتك ووجدتُ أنّ هناك إحدى عشرة فتاة تنطبق عليهن مواصفاتك. هل تريد أن أرتّب لك موعداً مع إحداهنّ؟".

وأجبته، وأنا أشير إلى الآنسة باي التي كانت تقف خلفي: "لا، أشكرك، لم يعد ثمة حاجة، لقد جئت خصيصاً لأقول لك إنني وجدت فتاتي. ولا أريد أن أزعجك بأمري بعد الآن".

"فتاتك؟". حدّق بي تشن العجوز مندهشاً ثم نظر إلى الآنسة باي، وسألها: "لم تسجّلي عندنا، أليس كذلك؟".

"بلى"، أجابت مبتسمةً، لقد سجّلت، لكن الأمر لم يفلح".

صمت تشن العجوز. ثم التفت، وأخذ رزمة من الأوراق وراح يقلّب فيها.

"كُفَّ عن البحث في هذه الأوراق. ليس سهلاً أن تصنّفوا البشر تبعاً لعشرةِ بنود في بياناتكم. حاولوا أن تجدوا حياةً أفضل للعازبين. اخلقوا لهم مزيداً من الفرص كي يلتقوا. نظّموا لهم الرحلات، والحفلات، واللقاءات، وكثيراً من النشاطات.تلك، برأيي، هي الطريقة الأفضل".

وهكذا وصلت قصتي إلى نهايتها السعيدة.

الكاتب في سطور:

وُلِدَ هِيّ زيارهو في شانكسي، في تايوان، عام 1950، بعد تخرّجه في المدرسة الثانوية، عمل لحّاماً في محطة لتوليد الطاقة الكهربائية. نشر منذ عام 1972 فصاعداً كثيراً من القصص القصيرة، من بينها "جمالٌ مُرَكّب"، و"خارج مكتب الزواج"، اللتان نال عليهما جائزتين في عامي 1980 و1981 على التوالي، وهو الآن عضواً في فرع شانكسي من رابطة الكتّاب الصينيين.

□□



ثلاث قصص من أدب (زيانغشنغ) [1]

- شيانغ شوتشين-

■ ترجمة: رشا حداد■

عن الإنكليزية

1 - حساء اللؤلؤ والزمرد والفيروز

عندما حشد جو هونغوو الجنود لإسقاط سلالة يان الحاكمة، هاجم هو وضابطاه تشانغ يوتشان وهو داهاي أرض التدريب العسكرية في بكين. لكن الحاكم التتري كان قد زرع ألغاماً هناك، واضطر المتمردون أن يفروا من المدينة وينتشروا. وانطلق جو على حصانه وحيداً، ولجأ إلى القفار، وهو يكابد البرد والجوع، حتّى استنفد قواه هو وحصانه. وأخيراً ترجل بجانب معبد متداعٍ، حيث فقد الوعي وسقط على الأرض.

بعد قليل جاء شحاذان، يحمل أحدهما قفصاً بالياً من أغصان مجدولة فيه أنواع تافهة المذاق من الكعك، ويحمل الآخر قدراً فخارياً متكسراً فيه حساء الخضار. وعند مدخل الهيكل شاهدا رجلاً مستلقياً هناك مثل خنزير ميت. وحين اكتشفا أنه لا يزال يتنفس، حملاه داخل المعبد. ثمّ أحضرا أغصاناً وقشاً

---

[1] إن تعبير "زيانغشنغ"، الذي يعني في اللغة الصينية الحوار المبني على تبادل الردود السريعة، هو الشكل التقليدي للحوار الكوميدي في الأدب الصيني. ويعتمد هذا الشكل الأدبي بصورة أساسية على استعمال التورية والمعاني المزدوجة للكلمات. (المترجمة).

ليشعلا ناراً ووضعا جو بجانبها، بوضعية القرفصاء، ليعيداه إلى وعيه.

أعاده الدخان إلى وعيه، ولكنه كان مصاباً بدوار واعتقد أن رجاله لا يزالون معه.

ونادى تشانغ يوتشان:

. أخ تشانغ!

وفكر أحد الشحاذين:

. هذا غريب! إنني لا أعرفه، لكنه يناديني باسمي.

ثمّ نادى جو هونغوو:

. هنا![1]

وفكر الشحاذ الآخر:

. هذا غير طبيعي! إنه يعرف اسمي أيضاً.

كان ذلك مجرّد صدفة.

وأشار جو إلى فمه:

. إنني جائع!

اتّضح للشحاذين أنه ليس مريضاً، بل جائع فقط. وكانا يعرفان من خبرتهما تعاسة الإحساس بالجوع. حسن، إنهما قد يحرمان نفسيهما ويعطيانه ما يأكله. وهكذا سخنا حساء الخضار على النار وقدماه إلى جو هونغوو، الذي كان بالغ الجوع والتهمه فوراً. وبعد ابتلاع ذلك الحساء، بدأ يعرق. رائع! لقد شعر بأنه أفضل بكثير.

وسأل الشحاذين عن اسميهما.

. ألم تعرف أن اسمي هو تشانغ زياندي.[2]

. أوه، إذاً أنت الأخ تشانغ.

---

[1] إن الرمز الصيني "لاي" الذي يعني "هنا" تُستخدم كنية أيضاً.
[2] يمكن أن تعني زياندي الأخ الأصغر الفاضل أيضاً.

وقبل أن يسألهما إذا كانا قد جُرحا، أدرك خطأه. لذلك قال:

. ما اسم ذلك الحساء الذي قدمتماه لي الآن؟

وفكرا:

. كان مجرد فضلات. إذا أردنا أن نطلق عليه اسماً، فلنسمه حساء اللؤلؤ والزمرد والفيروز. كيف ذلك؟ حسن، إن الملفوف وأوراق السبانخ مثل الزمرد، والتوفو[1] الزنخ مثل حجر الفيروز، وقطع قشر الأرز مثل اللآلئ. صحيح!

. إنه حساء اللؤلؤ والزمرد والفيروز.

أومأ جو هونغوو برأسه:

. شكراً لكما.

ثمّ ركب حصانه وانطلق مبتعداً.

وفيما بعد تمكّن جو هونغوو من قلب سلالة يان الحاكمة وأصبح إمبراطوراً في نانجينغ. وعاش من خيرات الأرض، وارتدى الحرائر والأقمشة المطرزة في قصر رائع، وأصبح حاكماً مطلقاً كلمته هي القانون. وإذا قال إن الفحم أبيض، من يجرؤ على مناقضته؟ وإذا قال "إن الحمقى صالحون"، فعلى الحمقى أن يرتقوا ثلاث مراتب. وإذا أعطى وزيراً قطعة من ورق المراحيض، فيجب تركيبها على حرير أصفر وعرضها في القاعة على أنها كنز.

عندما أمضى جو هونغوو بضع سنوات وهو إمبراطور، أحس بالضجر من حياة الرفاهية تلك. وفي مللِه شَعَرَ بضعف مثل ما شعر به قبل سنوات في ذلك المعبد المتداعي. وأصدر أمراً:

. هنا! أخبر الطباخين بأن يصنعوا لي سلطانية من حساء اللؤلؤ والزمرد والفيروز.

عندما نقل أحد الخدم هذا الأمر سيطر الذعر على الطباخين.

وسأل السيد جانغ السيد لي:

---

[1] التوفو: طعام صيني غني بالبروتين يُستخلص من فول الصويا ويُستخدم في تحضير بعض أنواع السلطات والأطعمة (المترجمة).

. هل تعرف كيف تصنع هذا الحساء؟

. كلا، لا أعرف.

. سيد وانغ؟

ـ إنني لم أسمع عنه مطلقاً أيضاً. أعرف أنك تستطيع تليين اللآلئ بتبخيرها؛ ولكن كيف تقطع الزمرد والفيروز؟

. إذا لم نصنعه وعصينا أوامر الإمبراطور، فقد انتهى أمرنا!

ولإنقاذ أرواحهم حاولوا عمل شيء ما. وأخذوا عدداً من اللآلئ كبيرة وبخروها لمدة بضع ساعات، ثمَّ وجدوا بعض الشظايا من الزمرد والفيروز، وأضافوا إليها بعض المرق والكزبرة. وطلبوا من خادم صغير أن يقدم هذا، وتوسلوا إليه:

. تحدّث بالخير عنا أمام الإمبراطور!

أدخل الخادم سلطانية الحساء هذه. كان منظرها رائعاً بلونها الأبيض والأخضر، وحين حركها جو هونغوو بملعقته سمع صوت رنين. لكن مذاقها لم يكن طيباً. وشعر بالغضب.

. ما هذا؟

. حساء اللؤلؤ والزمرد والفيروز.

. هراء! لقد تناولت حساء اللؤلؤ والزمرد والفيروز من قبل.

أسرع الخادم الصغير عائداً برعب إلى المطبخ الإمبراطوري.

. انتبهوا!

فسأله الطباخون:

. ما الأمر؟

ـ يقول الإمبراطور إنه تناول حساء اللؤلؤ والزمرد والفيروز من قبل. وحساؤكم هذا ليس الحساء الصحيح.

وصاح الطباخون:

ـ الآن سنتعرض للعقاب! هذا ليس مجرد فشل في تنفيذ الأوامر الإمبراطورية، إننا نرتكب الخيانة العظمى.

ولأنهم لم يأملوا أن يبقوا على قيد الحياة، فقد قرروا الاعتراف بأنهم لم يعرفوا كيف يصنعون هذا الحساء وأن يتوسلوا إلى الإمبراطور كي يجد شخصاً يعرف ذلك. ونقل الخادم الصغير هذا الرجاء. وفكر جو هونغوو:

ـ نعم، إن الطباخين عندي متعودون على طبخ الطيّبات، لذلك لا يمكن أن ألومهم إذا لم يستطيعوا صنع هذا. ولكن يجب أن أحصل على ذلك الحساء! ليس لنفسي فقط، فأنا سأقدمه إلى كل شخص في القصر وإلى وزرائي جميعهم.

ثمّ أصدر مرسوماً، جرى إلصاقه في كل مكان، من أجل العثور على الرجلين اللذين تمكنا من صنع حساء اللؤلؤ والزمرد والفيروز. كان اسم أحدهما تشانغ زياندي، بينما نسي اسم الآخر.

تمّ تعليق هذا المرسوم الإمبراطوري في كل مكان، بما في ذلك البلدة الريفية حيث كادت أن تحل الكارثة بجو هونغوو. وذات يوم كان الشحاذان يستجديان من باب إلى باب هناك عندما شاهدا حشداً من الناس يقرأون إعلاناً على الجدار خارج مقر الحكومة. وذهبا كي يسألا عن الأمر. كان الإمبراطور يبحث عن تشانغ زياندي ورجل آخر لا يعرف اسمه، كي يصنعا له حساء اللؤلؤ والزمرد والفيروز. وصاحا:

ـ حسن! إذاً فذلك الشخص الذي شرب فضلات حسائنا النباتي هو الإمبراطور! يجب أن نذهب ونراه.

مزقا المرسوم الإمبراطوري، وعندما رأى ذلك اثنان من سعاة مقر الحكومة قاما باعتقالهما.

فسأل الشحاذان:

ـ ما الأمر؟ تريدان أن تأخذانا مكبّلين بالسلاسل لنصنع حساءً للإمبراطور؟

اعتذر الساعيان:

. نحن آسفان، أيها السيدان! لم نكن نعرف. أعذرانا!

قال الشحاذان:

. لابأس.

. اذهبا من فضلكما إلى مقر الحكومة أيها السيدان.

. أين العربة؟

. إنه قريب من هنا، مقر الحكومة. سنحملكما على ظهرنا.

كان الناس الواقفون يتساءلون. لماذا يحملان الشحاذين داخل مقر الحكومة؟

وحملهما الساعيان داخل مكان الحجز.

. استريحا أولاً هنا، أيها السيدان، بينما نُعلم القاضي بهذا.

وأسرع الساعيان داخلاً لنقل هذا الخبر. وفكر القاضي:

. يجب أن تتم ترقيتي لعثوري على هذين الرجلين.

وبسرعة غير ثيابه وارتدى ثياباً رسمية جديدة، وخرج بكامل أناقته، وبشكل وقور إلى القاعة كي يستلمهما.

اندفع الساعيان خارجاً كي يعلنا:

. أيها السيدان، إن قاضينا ينتظركما في القاعة.

. حسن، رافقانا إليه.

. حاضر.

وراح الشحاذان يتمتمان:

. ذلك صحيح، يجب أن نحافظ على كرامتنا.

عندما رآهما القاضي لم يستطع أن يفهم سبب إحضار هذين الشحاذين.

وقال الساعيان:

. يا صاحب السعادة، هذان هما السيدان.

استغرب القاضي أن يُظهرا مثل هذا الاحترام لشحاذين حافيين بوجهين قذرين، وبأسمال بالية.

وسأل:

. هل هذان هما الرجلان اللذان مزقا المرسوم الإمبراطوري؟

. نعم، هذان هما السيدان.

وسأل الشحاذان:

. متى يمكن أن نذهب إلى العاصمة؟

اعتقد القاضي أنهما يخدعانه. وشعر بالغضب. كيف يمكن لمثل هذين الرجلين أن يصنعا حساء اللؤلؤ والزمرد والفيروز؟ لم يكن يصدق ذلك! ولكن إذا اعتُبر مذنباً بخداع الإمبراطور لأنه لم يأخذهما إلى هناك، واكتشف الإمبراطور الأمر، فقد يدفع حياته ثمناً لذلك. كم سيكون ظلماً إذا فقد منصبه بسبب هذين الشحاذين. لم يستطع أن يجازف بهذا.

وأصدر أوامره:

. هيا! قيدوهما وسوف نرافقهما إلى العاصمة.

عندما سمع الإمبراطور عن وصولهما فكر:

. إذاً فقد عثرت عليهما فعلاً.

استدعاهما للمثول أمامه. وأحضرهما القاضي إلى البلاط مقيدين بالسلاسل، وركع عند أسفل المنصة ليعلن ولاءه. لم يكن قد وقف في مثل هذا المكان من قبل وكان يرتعد من الخوف مثل منخل ينخل قشور الحنطة. لكنه رأى من زاوية عينيه أن الشحاذين كانا يبتسمان ويومئان نحو الإمبراطور. لماذا كان ذلك؟ لقد عرف الإمبراطور الرجلين اللذين أنقذا حياته. وفكر:

ـ كم هو غبي هذا القاضي، إنه لم يعدّهما بشكل لائق لمقابلتي! ماذا سيظن الموظفون لدي إذا قلت إني أعرف هذين الشحاذين؟

وسأل:

ـ لماذا حضرتما على هذا الشكل، يا صديقي الطيّبين؟

فأجابا:

ـ هذا هو مظهرنا المعتاد. لكننا الآن مقيدين بهذه السلاسل أيضاً.

وعلى الفور شتم جو هونغوو القاضي:

ـ أيها الأبله، كيف تجرؤ على تقييد الرجلين اللذين دعوتهما ليصنعا لي حساء اللؤلؤ والزمرد والفيروز؟ إنك تبحث فقط عن المشاكل! أخرجوه، واقطعوا رأسه!

اعتبر الشحاذان أن هذا سيكون تخلياً بالغ السهولة عنه! وقالا للإمبراطور:

ـ سامحه، يا صاحب الجلالة، ودعه يساعدنا في شراء مكوّنات حساء اللؤلؤ والزمرد والفيروز.

وافق جو هونغوو على هذا، وأعطاهما ثلاثمئة تيل كي يقيما مطبخاً جديداً، وأمرهما أن يصنعا مئتي وجبة من حساء اللؤلؤ والزمرد والفيروز. وبعد ثلاثة أيام سيقيم مأدبة لوزرائه.

انسحب ثلاثتهم إلى المطبخ الجديد. وعلى الفور ركع القاضي وقال:

ـ شكراً لكما، أيها السيدان، لإنقاذ حياتي.

ـ العفو. اذهب واشتر لنا موادنا.

ـ نعم، أخبراني فقط بما تريدان. يجب أن ننفذ أوامر الإمبراطور. إنكما صاحبا أيد بارعة، ورغم أنني غبي فإنني أستطيع شراء أفضل طيّبات تحتاجان إليها. حين أحقق هذا، وبفضل الإمبراطور ومساعدتكما أيها السيدان آمل أن أرتقي أربع مراتب أو خمس.

فكّر الشحاذان: "رائع. لقد نجوت الآن من الإعدام وتحلم بالترقية وجمع ثروة طائلة"، وقالا له:

. كف عن قول الهراء، واذهب للتسوّق.

. نعم، نعم.

. هيا. اشتر أربعمئة رطل من التوفو، وخمسمئة من السبانخ مع الجذور، وخمسمئة من أوراق الملفوف الخارجية، وثلاثمئة من الأرز الخشن، وعشرة من الملح الخام، وخمسة من الرمل، ونصف رطل من السخام، وأربعين سطلاً من مياه غسل الصحون. ذلك سوف يكفينا.

. لماذا تريدان تلك الزبالة؟

. لا تثرثر كثيراً، افعل فقط ما نطلبه. إذا أهملت أي شيء ولم يكن ملائماً لذوق الإمبراطور فستكون مسؤولاً عن ذلك. لذلك انطلق.

. حاضر.

وسرعان ما تمّ شراء كل شيء ما عدا أوراق الملفوف الخارجية ومياه غسل الصحون. وكي يحضر القاضي هذه كان عليه أن يذهب بسطلين وقفص إلى عدد من المطاعم.

خلال يومين كانت جميع المكونات جاهزة. وتفحصهما الشحاذان.

- هذا غير ملائم. إن السبانخ طازج جداً، والتوفو ليس فاسداً، وهذا لن يعجب الإمبراطور، وستكون أنت المُلام.

ركع القاضي المفزوع وسجد.

. أرجوكما فكّرا بمخرج لي، أيها السيدان!

- غداً سيقيم الإمبراطور المأدبة لجميع وزرائه. إنك لم تشتر المكوّنات الصحيحة، ونحن لدينا نقص في الأيدي العاملة، لذلك ماذا يجب أن يحدث؟

قال القاضي:

. لا يهم. أحضرا ثلاثة طباخين من المطبخ الإمبراطوري.

فرح الطباخون الثلاثة عندما طلبوا منهم المساعدة في إعداد حساء اللؤلؤ والزمرد والفيروز،

وقال أحدهم:

. إنها فرصة رائعة للتعلّم. لا نريد أن تضيع هذه المهارة.

وقال آخر:

. هذا صحيح تماماً. يجب أن نتعلّم جيداً منهم.

وقال الشحاذان:

. والآن سنصنع حساء اللؤلؤ والزمرد والفيروز.

وأمرا اثنين من الطباخين أن يغليا الأرز على نار خفيفة.

. انتبها! لا تغسلا الأرز. ولا نريد الأرز من الأعلى، بل القشرة فقط من قاع المقلاة.

وتساءل أحد الطباخين:

. لماذا يريدان ذلك؟

فقال الآخر:

. لا يهم. إننا هنا كي نتعلّم منهما، أليس كذلك؟

وقال الشحاذان للقاضي:

ـ لا تجلس كسولاً. انقع ذلك التوفو في مياه غسل الصحون وحركه، ثمّ شمسه حتّى يتخمّر.

. حاضر.

كان لا يزال هناك طبّاخ آخر.

. تعال وساعدنا في فرز هذا السبانخ. يجب رمي الأوراق الجيدة، وحفظ الجذور المتعفنة.

أذهلت هذه الأوامر القاضي والطباخين الثلاثة.

. ماذا يحاولان أن يفعلا؟

ظلّوا يعملون طوال الليل. وفي الصباح التالي جلس القاضي والطباخون

الثلاثة ينظرون بحيرة نحو السبانخ المتعفّن، وقشر الأرز المحترق، وأوراق الملفوف الخارجية والتوفو الفاسد. وعندما أشرقت الشمس فاحت رائحة عفنة من مياه غسل الصحون.

وسأل الطباخون القاضي:

. يا صاحب السعادة، متى سنصنع حساء اللؤلؤ والزمرد والفيروز؟

فدمدم القاضي:

. لا تسألوني! اسألوا هذين السيدين.

عندما سمع الشحاذان هذا أشارا إلى الدلاء وقالا:

. أليس هذا حساء اللؤلؤ والزمرد والفيروز؟ لقد أنجزنا سبعة أعشار العمل. عندما يتناول الإمبراطور هذا الحساء سوف يكافئنا.

وفكر الآخرون:

. يكافئهم! يمكننا أن نأمل فقط ألا يطردنا. أي نوع من المآدب هذه التي يقيمها لوزرائه... خضار متعفنة، أرز محترق وحساء نتن؟ يجب أن ننتبه! سنكون محظوظين إذا لم تهاجم بيوتنا.

وشاهدوا الشحاذين يغرفان بعض الحساء ليتذوقاه.

. ليس سيئاً، إنه شيء ما يشبه ذلك.

ورفع أحدهما لقمة توفو من قاع الدلو ودفعها في فمه.

. جيد! إن مذاقها رائع.

وضرب القاضي على كتفه.

ـ أنت من أعد التوفو. سنخبر الإمبراطور أخي وأنا، ويجب أن تفوز بالترقية وتصبح غنياً.

وفكّر القاضي:

. لتساعدني السماء!

سرعان ما اقترب موعد المأدبة. وطلب الشحاذان من الطباخين والقاضي

أن يسخنوا الحساء، ويضيفوا الملح ويضعوا بضع حفنات من الرمل. وحين وجداه ليس كافياً أضافا المزيد من الرمل.

وقال أحدهما:

. إنه ليس قاتماً بشكل كاف.

فسأل الآخر:

. أين السخام؟

وعلى الفور، أفرغا كتلة كبيرة من السخام وتذوقا الحساء ثانية. وعندما بدأ يغلي، كادت الرائحة الفاسدة أن تخنق القاضي والطباخين.

وقال الشحاذان:

. جيد. صبّوه في الأطباق وقدّموه.

كان القصر في ذلك اليوم مزيناً ومضاءً بشكل ساطع. وكان أقرباء الإمبراطور والوزراء قد وصلوا جميعاً منذ بزوغ الفجر بانتظار هذه المتعة... حساء اللؤلؤ والزمرد والفيروز.

وقال أحدهم:

ـ إن حساء اللؤلؤ والزمرد والفيروز هذا شيء مميّز حقاً. لقد تلطّف الإمبراطور مرّة وجعل أبي يتذوقه. وحين عاد إلى البيت راح يتغنى بمدحه. والآن سأنال هذا الشرف أيضاً، إنني محظوظ حقاً.

وقال آخر:

. سمعت أنه مصنوع من كبد التنين، ونخاع العنقاء، وكل أنواع الطيبات النادرة. إن إعداده يتطلّب عملاً طويلاً، لصنع حساء مميّز مثل هذا.

عندما بدأت المأدبة، اصطفّ الخدم الشباب وهم يحملون صناديق قرمزية مذهّبة بداخلها سلطانيات ذات تصميمات على شكل التنين من الأفران الإمبراطورية. وبداخل كل سلطانية كانت وجبه حساء اللؤلؤ والزمرد والفيروز. كان الضيوف جميعهم متأثرين بالطريقة الدقيقة التي أدار الخدم وجوههم بها

بعيداً، دون أن يجرؤوا على النظر نحو الحساء. تمّ تقديم السلطانية الأولى إلى الإمبراطور. وعندما شمّها شعر بنوع من التقزز، لكن الرائحة ذكرته بذلك الحساء الذي تناوله في المعبد المتداعي والذي جعله يسترد قوته! كان يحنّ إلى تذوقه ثانية... لماذا تفوح منه رائحة سيئة جداً اليوم؟ لا عجب أن يقول الناس: "إن القشور تبدو للجائع حلوة مثل العسل. والعسل لا يبدو حلواً كثيراً للشبعان".

وفكّر الإمبراطور بينه وبين نفسه:

ـ لقد كنت جائعاً آنذاك، بينما أعيش الآن في رفاهية. ومع ذلك لقد تناولت هذا مرّة ويجب أن أتناوله مرّة ثانية. ليس أنا فقط، بل يجب أن أجعل الجميع يتناولونه.

خفض جو هونغوو بصره من منصّته ورأى التجهم على وجوه ضيوفه كلّهم وهم يحدقون في الحساء. وأغضبه هذا. وفكّر :

. إنكم ستشاركونني هذه المتعة! ذلك صحيح! سوف نتناول هذا معاً.

وقال:

. يا وزرائي الأعزاء، هيا! اشربوا حساء اللؤلؤ والزمرد والفيروز هذا معي.

وابتلع حساءه، وكاد أن يختنق.

عند تقديم هذا الحساء الفاسد إلى الضيوف فكروا: "حتّى نحن لا يمكن أن نشرب هذا، فكيف بالإمبراطور. يجب تمزيق هذين الرجلين اللذين صنعاه". وأدهشهم الآن أن يروا الإمبراطور وقد لعقه حتّى آخر قطرة. لذلك ابتلعوا حساءهم على الفور. وأراد بعضهم أن يبصقه، فقد كان مذاقه كريهاً جداً، لكنهم لم يجرؤوا على ذلك بحضور الإمبراطور... فقد يُعتبر هذا خيانة عظمى. لذلك، حبسوا أنفاسهم وابتلعوه جرعة إثر جرعة. وتمكنوا من إنهاء سلطانياتهم بطريقة ما.

عندما رأى جو هونغوو أنهم قد انتهوا، سألهم وهو يبتسم:

. حسن، أيها الوزراء الأعزاء، ما رأيكم بحساء اللؤلؤ والزمرد والفيروز هذا

الذي طلبت من الرجال أن يعدّوه؟

وقفز الجميع على أقدامهم كي يعبروا عن شكرهم المتواضع. وصاحوا:

. إنه لذيذ، لذيذ.

فقال الإمبراطور:

. في تلك الحالة، سوف نمنح لكل واحد سلطانيتين بعد.

كانت تلك القشة الأخيرة حقا!

•••

2 ـ ثلاث ضربات في يوم واحد

إن أصعب شيء يتعلّق بأدب "زيانغشنغ" هو عدم معرفة ما يريد الجمهور أن يسمع. فبعضهم يتذوق الأدب، وبعضهم يحب قصص القتال. وليست أذواقهم هي التي تختلف فقط، ولكن طبعهم أيضاً. فبعض الناس لديهم طبع حاد، وتراهم يحملقون نحوك ولا يمكن أن يتحدّثوا بشكل حضاري. وآخرون يتّسمون بالبلادة، ولا يمكن أن يثوروا. وإذا قابل رجل حاد الطبع شخصاً بليداً فهذا أمر سيئ جداً. لأنه قد يموت من الغيظ.

سأل شخص بليد ذات مرّة على سبيل المحادثة:

. هل أتيت الآن؟

فأجاب صاحب الطبع الحاد بنزق:

. نعم، لقد أتيت الآن.

. لماذا طبعك هكذا؟

. إن رؤيتك تدفعني إلى الجنون.

. لست بحاجة إلى النظر نحوي إذاً.

. هل جئت إلى هنا لرؤيتك؟ إذا واصلت إزعاجي فسوف ألكمك.

. تلكمني؟ يجب أن أرى ذلك كي أصدقه.

. سوف ألكمك. هل تصدقني؟

. كلا. هذا مكان مسطح هنا، انظر. لماذا لا تجرب.

دفع هذا صاحب الطبع الحاد إلى الجنون، وضربه بقوة. وكان أي شخص آخر سيرد قبل أن يتعرّض للضرب ثانية: لكن البليد ابتسم فقط.

. إنني لم أصدقهم حين قالوا إنك تضرب الناس. الآن رأيت ذلك بعيني. لماذا لا تلكمني على هذا الجانب أيضاً كي تتوازن الأمور.

هزَّ صاحب الطبع الحاد قبضة يده.

. أف! إنك لا تُطاق!

وخرج وهو يستشيط غضباً.

وهناك نوع آخر من الأشخاص يحب المساومة ويبحث دائماً عن منفعته الشخصية. وإذا لم يستطع أن يشتري بأسعار مخفّضة فإنه يمرض. أخذ رجل من هذا النوع قطعة نقدية نحاسية إلى البقال. كان الناس الآخرون قادرين على شراء شيء واحد فقط بهذه القطعة، لكنه حصل على ستة. دخل المحل وابتسم في وجه البقال.

. هل تناولت فطورك؟

كانت رؤيته تُغضب صاحب أي دكان، لكن البقال كان يجب أن يخدمه.

. ماذا يمكن أن أحضر لك؟

. إنني آكل المعكرونة المسطحة اليوم.

. لا يهم ماذا تأكل. ماذا يمكن أن أحضر لك؟

ـ بنصف قطعة نحاسية صلصة فول الصويا، وبنصف قطعة نحاسية خل.

أحضر البقال هذين له.

. وقطرة زيت السمسم من ذلك الوعاء، لإضفاء نكهة.

حصل على قطرة زيت السمسم تلك... ثلاثة أشياء.

. ضع بضع أوراق من الكراث، هل تسمح؟

ممّا جعلها أربعة.

. وقليلاً من الكزبرة.

جعلتها هذه خمسة. وعندما استدار البقال ليحضر الكزبرة، سرق رأسين من الثوم ممّا جعلها ستة. شخص مثل هذا يسبب ألماً في الرقبة.

يذكرني هذا بقصة. مرّة كان قاض معيّن حديثاً. عندما ذهب لتسلّم منصبه وجلس على مقعده في المحكمة، اصطف سعاته وحجابه باحترام على كلا الجانبين. واستدعى حاجبين ليسأل:

. ما هي الحالة هنا؟

. منظّمة جداً، يا صاحب الفضيلة. لا يوجد لصوص أو قطّاع طرق هنا.

ـ حسن، أريدكما أن تقوما بتوقيف ثلاثة أشخاص: رجل صاحب طبع حاد، وشخص بليد وواحد مساوم يبحث عن منفعته الشخصية. وأعطيكما مهلة سبعة أيام. إذا نجحتما سأكافئكما؛ وإذا فشلتما فسأعاقبكما بقسوة. هيا اذهبا!

وكلما راح الحاجبان يفكران في الموضوع أكثر، تدنى حبهما لهذه المهمة. كان من السهل التعامل مع السرقات، ولكن أين يمكن أن يجدا رجلاً صاحب طبع حاد؟ لم يكن باستطاعتهما أن يوقفا الناس في الشارع ويسألا:

-هل أنت صاحب طبع حاد؟

-ما الذي أوحى لك بتلك الفكرة؟

-هل أنت بليد؟

-أنت هو البليد.

-هل أنت مساوم تبحث عن منفعتك الشخصية؟

-كلا، بل أنت.

لم يعرفا ماذا يفعلان، وبعد سبعة أيام تلقى كل منهما أربعين ضربة. ثم

مُنحا سبعة أيام أخرى كي يقوما بتوقيف الأشخاص الثلاثة. ومن جديد فشلا وتلقيا أربعين ضربة. ثم أُعطيا سبعة أيام أخرى. عند ذلك الوقت كانا قد شعرا بالسخط تماماً.

عندما غادرا مقر الحكومة قال أحدهما:

-هذه مهمة مستحيلة، يا أخي. ولا يمكن أن نستأذن أو نتحرر منها.. فهو لن يتركنا. نحن يجب أن نتحملها فقط. هيا نذهب ونشرب حتى الثمالة.

كانا يشربان في إحدى الحانات عندما شاهدا حشداً من الناس في الشارع، والكل يتجه غرباً.

فسألا صاحب الحانة:

-ماذا حدث اليوم ليجتذب مثل هذا الحشد؟

فأخبرهما:

-بينما كنتما أيها السيدان في مقر الحكومة كان هؤلاء الناس يسلمون التماساتهم. وهم الآن يخرجون من البوابة الغربية ليقدموا قرباناً إلى إله البراعم الخضراء، كما تُعرض أوبرا بدافع الامتنان للحصول على حصاد جيد. إنهم ينطلقون لمشاهدة الأوبرا.

واقترح أحد الحاجبين:

-يا أخي، هيا نذهب أيضاً.

فقال الآخر:

-كف عن هذا. بعد بضعة أيام سوف نضرب ثانية. لست راغباً في مشاهدة الأوبرا.

-لا فائدة من القلق. دعنا نستمتع ما دمنا نستطيع ذلك.

دفعا ثمن شرابهما وسارا خارج المدينة وهما يتحدثان.

في تلك الأيام لم تكن توضع مقاعد للأوبرات في الريف. وكان على المشاهدين أن يقفوا. وإذا أردت أن تجلس يمكنك أن تحضر كرسياً صغيراً من

البيت، ولكن عليك عندئذ أن تسحبه وتعيده ثانية. انضم الحاجبان إلى حشد المشاهدين وفي تلك اللحظة كان جنرال يقاتل العدو في الأوبرا بينما بدأ شجار بين المشاهدين. وفي الصف الأمامي راح شخص بليد يهتف. كان منظره عجيباً، وقد وضع يديه على خصره، وراح يتأرجح من جانب إلى آخر ويهز رأسه، وهو يصيح:

-برافو، برافو!

وأطلق شخص حاد الطبع خلفه صرخة كادت أن تطرحه أرضاً:

-رائع!

التفت البليد، وقال له:

-هل تحاول أن تفجر رئتيك؟ صفق فقط واكتف بذلك. لماذا تصرخ هكذا؟

-ما أفعله ليس من شأنك.

-هل يجب أن أبتعد عنك؟

في تلك اللحظة اقترب صبي راكضاً من الخارج ليمسك بيد البليد.

-أبي! منزلنا يحترق، يا أبي!

-يحترق، إيه؟ اذهب إلى البيت أولاً، وسآتي عندما تنتهي هذه الأوبرا.

جعل هذا صاحب الطبع الحاد يتقد غضباً. واندفع فجأة ورمى البليد أرضاً.

-هل تعتبر نفسك رجلاً؟ منزلك يحترق. يجب أن تسرع إلى البيت. إذا انتظرت نهاية الأوبرا، فإن النار سوف تمتد إلى منازل الناس الآخرين.

فأجاب البليد وهو يستلقي على الأرض:

-إنه منزلي أنا، وليس من شأنك. إذا أردت سأذهب إلى البيت بعد انتهاء هذه الأوبرا. وإذا لم أرد، فسأذهب إلى البيت بعد أسبوعين.

-إنك تثير الجنون حقاً. سوف أقتلك!

-رائع، ذلك سيجنبني إزعاج النهوض.

واعترض شخص يقف بجانبهما:

-إنكما تتشاجران بصخب ولا نستطيع أن نسمع.

عندئذ لاحظ الحاجبين.

-أوه، أيها الضابطان، انظرا إلى هذين الرجلين اللذين يحدثان تلك الضجة.

اقترب الحاجبان وسألا:

-كيف بدأ هذا؟

فقال صاحب الطبع الحاد:

-اسأله؟

كان البليد لا يزال مستلقياً على الأرض. فقال الحاجبان:

-انهض، أنت!

-إنني لن أنهض.

-لماذا؟

-إذا نهضت فسوف يوقعني ثانية.

-ليس بوجودنا هنا، لن يجرؤ.

نهض البليد ونفض ملابسه.

وسأل الحاجبان ثانية:

-كيف بدأ هذا؟

-كنت أشاهد الأوبرا عندما أتى ابني ليخبرني بأن منزلنا يحترق. فقلت إنني سأذهب عندما تنتهي الأوبرا. ثم ضربني هذا الرجل بقسوة حتى كاد أن يقتلني.

-يا لك من شخص غريب! لماذا لا تذهب إلى البيت حالاً لتطفئ النار؟ إذا انتظرت حتى نهاية الأوبرا، فربما امتدت إلى منازل جيرانك؟

-حسن، في الحقيقة لقد ولدت بليداً هكذا.

فقال الحاجبان:

-جيد. بسببك حصلنا على ثمانين ضربة.

وأخرجا سلسلة مجلجلة وقيداه. ثم قالا لصاحب الطبع الحاد:

-أنت لا يحق لك أن تضربه.

-لقد دفعني إلى الجنون.

-ومع ذلك كان يجب ألا تضربه.

-هكذا أنا.. إنني حاد الطبع.

فقيده الحاجبان أيضاً.

-هيه! ماذا تفعلان؟ سأدعه وشأنه، اتفقنا؟

-لا نفعل شيئاً. تلك الضربات الثمانون كانت بسببك أيضاً.

عندما قاد الحاجبان سجينيهما بعيداً راحا يفكران:

-جيد، لقد استفدنا من هذه الرحلة، وأمسكنا برجلين. لكن ذلك لا يكفي: فلا يزال ينقصنا المساوم الباحث عن منفعته الشخصية.

وبعد قليل وصلا إلى كشك للبيع حيث كان رجلان يتشاجران. وسأل الزبون:

-هل بذور البطيخ هذه التي لديك مقلية؟

ودفع حبتين في فمه.

-وهل الفول السوداني هذا متبل؟ لا يزال نيئاً؟

وراح يتذوق كل شيء. فقال البائع:

-لا حاجة لأن تشتري أي شيء، فقد حشوت نفسك تماماً.

-من يقول إنني لا أشتري؟ ما ثمن هذه الحلويات؟

-كل قطعة بسنت.

-ما رأيك بسنت مقابل اثنتين؟

-كلا طبعاً.

-حسن، لماذا تحدق بي هكذا؟

دفع لـه سنتاً، ومد يده وأخذ قطعتي حلوى بين إصبعيه الثاني والثالث وإصبعيه الرابع والخامس.

انزعج البائع من أكل هذه وتلك والأخرى مما جعله يأخذ حذره ويمسك به من رسغه.

-لا تستطيع أن تحصل على اثنتين.

دفع الزبون قطعتي الحلوى في فمه.

-من يقول إنني لا أستطيع؟ لقد ابتلعتهما.

-إذاً يجب أن تدفع ثمنهما.

-يمكنك أخذ حياتي، لكنني لا أملك أي نقود لك. ماذا تستطيع أن تفعل حيال ذلك!

في تلك اللحظة رأى البائع الحاجبين مع سجينيهما. وناداهما:

-أيها الضابطان! تعالا إلى هنا من فضلكما.

اتجها نحو كشكه.

-ما الأمر؟

-انظرا إلى هذا الزبون؟ كان يتذوق بضائعي كلها، ولم يشتر أياً منها. وهذه الحلويات كل قطعة بسنت. لكنه دفع سنتاً وأكل اثنتين.

فقال الحاجبان:

-إن البائع لا يكسب الكثير. كيف يتحمل أن يتركك تأخذ قطعتين؟

-في الحقيقة، يجب أن أساوم وأشتري بسعر مخفض بغض النظر عن المكان الذي أتسوق فيه، وليس هنا فقط. وإلا فإنني أمرض.

-ما الذي يجعلك تفعل ذلك.

-لقد ولدت هكذا.

شعر الحاجبان بسعادة فائقة. وسحبا سلسلة أخرى وقيداه بها.

-اتركاني، أيها الضابطان، وسوف أغير طريقتي.

-هذا مستحيل. تعال معنا.

سحب الحاجبان سجناءهما إلى مقر الحكومة وتركوهما في الأصفاد وذهبا ليقدما تقريرهما. وعلى الفور جلس القاضي على مقعده في المحكمة، وتحلق سعاته على كلا الجانبين.

وأصدر أمره:

-أحضروا السجناء.

ثم جلب الرجال الثلاثة وركعوا أمامه.

أشار القاضي إلى البليد وسأله:

-ما هي قصتك؟

نظر البليد نحوه، وقال:

-يا صاحب الفضيلة، كنت أستمع إلى أوبرا خارج المدينة عندما جاء ابني وأخبرني بأن منزلنا يحترق. فقلت له إنني سأعود بعد انتهاء الأوبرا، ثم ضربني هذا الشخص بقسوة حتى كاد أن يقتلني.

-لماذا لم تسرع إلى البيت كي تطفئ النار؟

-إنني أبدد الوقت دائماً، يا صاحب الفضيلة.

أشار القاضي إلى صاحب الطبع الحاد.

-كيف يمكنك أن تتجول وتضرب الناس هكذا؟

-يا صاحب الفضيلة، إذا لم يسرع إلى البيت ويطفئ النار، ألن تحترق منازل أخرى أيضاً؟
-ومع ذلك كان يجب ألا تضربه.
-لم أستطع منع نفسي، فأنا حاد الطبع.
أشار القاضي إلى المساوم الباحث عن منفعته الشخصية.
-وأنت؟
هذا ضعفي، يا صاحب الفضيلة. إنني أمرض إذا لم أحصل على صفقة جيدة حين أتسوق.
فقال القاضي:
-رائع. هل تعرفون لماذا طلبت إحضاركم إلى هنا؟
فأجاب ثلاثتهم معاً:
-كلا، يا صاحب الفضيلة.
-هل تريدون أن تعملوا لدي؟
غضب الحاجبان حين سمعا هذا، فقد تلقيا ثمانين ضربة، وتعرضا للكثير من العناء كي يعثرا على هؤلاء الرجال، والآن سيعملون في مقر الحكومة!
وقال القاضي لصاحب الطبع الحاد:
-أنت ستكون مرافقي، وبهذا لن أتأخر أبداً. وأنت، أيها البليد، عليك أن تعتني بأولادي.
عندئذ لا يهم إذا أزعجوك، فأنت لن تغضب. وأنت، أيها المساوم، عليك أن تقوم بالتسوق والحصول على صفقات لي.
كان واضحاً للجميع أن هذا القاضي يبحث عن منفعته الشخصية.
لكن القاضي خسر في الحقيقة لأنه وظف هؤلاء الرجال الثلاثة. ففي أحد الأيام كان عليه أن يخرج ليقابل شخصاً عالي المنزلة، وأمر صاحب الطبع الحاد أن يعد حصانه، لكن الرجل لم يستطع أن يسرجه، فهو لم يكن سائسه

كما أن الحصان لم يعرفه، وظل يتحرك إلى اليسار أو اليمين.

وصاح غاضباً:

-اللعنة! سوف أتغلب عليك!

وأحضر منشاراً من مخزن الحبوب وقطع رأس الحصان. وحين وقع ميتاً أسرجه بسهولة.

وقال متهللاً:

-حسن، لقد انتهى الأمر!

عندئذ وصل القاضي بكامل أناقته. وسأله:

-آه! لماذا قتلت الحصان؟

-تلك الطريقة الوحيدة كي أسرجه.

-حسن، لقد أسرجته، ولكن كيف يمكن أن أركبه؟ إذا جعلتني أتأخر، أيها الغبي، فسأتعرض للعقاب بسبب ذلك. إنك تريد أن تدمرني، أليس كذلك؟

-حسن، لقد ولدت هكذا. إذا كنت لا تريدني أن أعمل لديك فسوف أغادر.

-لا بأس، إنه خطئي لأنني وظفتك. أحضر لي عربة.

ركب القاضي العربة وقادها صاحب الطبع الحاد خارج البلدة باتجاه الجدول. لكن البغل خاف من الماء وحرن فجأة عند الضفة. وصرخ القاضي غاضباً:

-انظر كيف تؤخرني. ذلك الحصان كان سيعبر الجدول، وهذا البغل خائف من الماء. وإذا ذهبنا من الطريق الدائري الطويل فسيجعلني ذلك أتأخر على موعدي.

فقال صاحب الطبع الحاد:

-لا تلم البغل. إنه خائف من الماء، أما أنا فلست خائفاً. سأحملك لتذهب وتهتم بشؤونك.

وبعد ذلك أقود العربة من الطريق الدائري الطويل كي أنتظرك؟

قال القاضي:

-جيد.

انحنى صاحب الطبع الحاد ورفع القاضي على ظهره ليعبر الجدول. كان قد وصل إلى المنتصف عندما فكر القاضي.

-إنه لطف منه أن يحملني هكذا عبر هذا الماء العميق.

ثم قال له:

-إنني لن أعاقبك على قتل الحصان. وبدلاً من ذلك سأعطيك عشرين قطعة من الفضة لأنك حملتني عبر هذا الجدول.

-شكراً لك، يا صاحب الفضيلة.

وتركه، فسقط القاضي في الجدول، وكاد أن يغرق!

وراح القاضي يشتمه قائلاً:

-لماذا أوقعتني في الجدول؟

-لقد شبكت يدي كي أشكرك.

-ولماذا لم تنتظر حتى نعبر الجدول كي تشكرني؟

-أنت لم تنتظر حتى نعبر الجدول كي تكافئني.

وفكر القاضي:

-حسن، لنواجه الأمر. لقد قمت بأداء واجباتي الرسمية، وأنا الآن مثل جرذ غارق.

ثم قال:

-هيا نرجع!

حين عاد القاضي إلى مقر الحكومة ذهب إلى بيته ليغير ملابسه. وشاهد البليد وهو يتشمس في الفناء فناداه إليه. نظر البليد إليه بدون أن ينطق بكلمة.

-ألم تسمعني وأنا أناديك؟

-نعم، لقد سمعت.

-لماذا لم تجبني؟

-لقد نظرت إليك، أليس هذا صحيحاً؟

-أف، هذه ليست طريقة للرد. أين السادة الصغار؟

-أي واحد تعني؟

-أين الأكبر؟

-إنه في المدرسة، أليس كذلك؟

-والأصغر؟

-سقط في البئر.

-ماذا! متى سقط؟

-أول شيء حدث في هذا الصباح.

-لماذا لم تخبرني؟

-لم العجلة؟ كنت سأخبرك بعد بضعة أيام.

-أنت ستكون سبب موتي! هيا أخرجه، بسرعة!

عندما أخرج الناس الطفل الميت، راح القاضي ينشج قائلاً:

-لقد كان صبياً صغيراً جميلاً جداً، والجميع كانوا يحبونه. آه! يجب أن نشتري تابوتاً.

وأرسل المساوم من بين جميع الناس ليشتري تابوتاً.

وفي محل بيع التوابيت راح المساوم يسأل عن ثمن كل تابوت هناك.

-كم ثمن هذا؟

قال صاحب المحل:

-بمئة وستين تيلاً.

-وذاك؟
-بمئتين وثمانين.
-وهذا؟
-بثمانين.
-وهذا؟
فسأله صاحب المحل:
-كم عدد الناس الذين ماتوا حتى تسأل عن ثمن جميع توابيتي؟
فأشار إلى تابوت:
-كم ثمن هذا؟
-بعشرين تيلاً.
-بعشرين تيلاً! كم رطلاً تزن قطع حطب الوقود؟
-إن التوابيت تختلف عن حطب الوقود. هل ستشتري أم لا؟
-طبعاً سأشتري. هل تبيعه بعشرة تيلات؟
-لا توجد مساومة في محلات التوابيت.
-ما رأيك باثني عشر؟
-اذهب إلى محلات أخرى.
-بثلاثة عشر.
-إنني لن أبيع لك.
-بأربعة عشر.
-كلا.
-بأربعة عشر ونصف.
-ألم أطلب منك أن تذهب إلى مكان آخر؟
-اجعلها خمسة عشر.. ما رأيك بذلك؟

شعر صاحب المحل بغضب شديد، وقال:

-حسن، بخمسة عشر.

قدم له المساوم عشرين تيلاً.

-أعطني بقية النقود.

بينما كان صاحب المحل يحضر بقية النقود وضع المساوم تابوتاً صغيراً داخل الكبير. ثم أخذ بقية نقوده وحمل التابوتين، واحد داخل الآخر، إلى مقر الحكومة.

كان القاضي يشتكي قائلاً:

-ما الذي أخره كثيراً؟

عندئذ دخل وأعلن عن حضوره:

-لقد عدت.

وأنزل التابوتين.

ثار غضب القاضي وقال:

-لماذا اشتريت تابوتاً كبيراً هكذا؟ فكر بكل الحشو الذي سنحتاج إليه لنمنع جلد الطفل من الاحتكاك.

-لا تقلق، يا صاحب الفضيلة. يوجد هنا تابوت آخر صغير.

غضب القاضي، وقال:

-لماذا اشتريت اثنين؟

-يمكن أن نترك الكبير هنا حتى وقت لزومه. وعندئذ لن نشتري تابوتاً آخر عندما يموت السيد الصغير الأكبر.

•••

ولد في سنة الثور

تختلف الأمور كثيراً الآن عما كانت عليه في سالف الأيام، حين أراد الرجال أن يعيشوا مثل الطفيليات. لقد أصبح العمل شريفاً اليوم. والذين لا يريدون العمل لا يمكن أن يكسبوا رزقهم. ولا يستحسن في هذه الأيام أن تأمل في الوظيفة كي تجني الكثير من المال. وفي الأيام القديمة كان من يريد جمع ثروة طائلة يحاول التوظف. لماذا؟ لأنك ما أن تتولى وظيفتك حتى تصبح غنياً. وحين كان الآباء يعلمون أولادهم كانوا يسممون أفكارهم. كان الأب يربت على ظهر ابنه ويقول:

–يجب أن تحصل على وظيفة رسمية، يا بني، وتعيد ثروات العائلة.

فكروا فقط، كيف يمكن أن يفعل ذلك دون أن يجمع النقود بسرعة؟ كان هنالك قول قديم، "في ثلاث سنوات يجمع الحاكم الأمين مئة ألف تيل من الفضة". مئة ألف تيل في ثلاث سنوات، وبيد حاكم أمين! إذاً كم يمكن أن يجمع موظف غير أمين؟ وكيف حصل الموظفون الأمناء على هذا القدر من المال؟ بالاختلاس؟ ليس بالاختلاس. إن الحاكم كان من المرتبة الرابعة، لذلك فراتبه صغير.

حسن إذاً، من أين أتت المئة ألف تيل تلك؟ إن لديهم قنواتهم.

كان الحاكم مسؤولاً عن عدة قضاة. وكان لكل مقاطعة قاض، لكن المقاطعات نفسها تختلف، فبعضها تربتها فقيرة، وبعضها غنية. ولندع الكلام عن الأجزاء البعيدة حيث لم يكن هنالك أحد ولكن عن بعض المقاطعات القريبة منا هنا في تيانجين، والتي يعرفها الجميع. يقولون، "إن (باودي) الذهبية و(ووكينغ) الفضية لا تعادلان الساعة الخامسة في (تينغ)". اسألوا أي شخص تجاوز الأربعين ماذا يخبركم؟ لقد كانت باودي منجم ذهب، مقاطعة تضم أكثر من ألف ومئتي قرية، حيث جمع القاضي أكواماً من المال. وكانت ووكينغ منجم فضة، مقاطعة تتألف من ثمانمئة وثمان وثمانين قرية؛ لذلك كانت في سنوات الحصاد الجيد تعطي دخلاً ضخماً. ومع ذلك لم تكن أي من هذه

المقاطعات تعادل نينغ. وعند الساعة الخامسة، مع بزوغ الفجر، في نينغ، كان القاضي هناك يجمع أكثر من عائدات ووكينغ وباودي. ما سبب ذلك؟ كانت نينغ تنتج الملح؛ وقد جعلها ذلك الملح مركزاً مربحاً. وكانت هذه المقاطعات كلها تقع تحت السلطة القضائية للحاكم في بكين.

كانت بكين تضم خمس ولايات وتسع عشرة مقاطعة. هل كلها متشابهة؟ كلا، بل مختلفة جداً. فمقاطعة باودنغ في الجنوب غيرت اسمها فيما بعد إلى شينجين. وكان دخل ثماني عشرة قرية هناك لا يكفي للنفقات اليومية الصغيرة، لذلك كان مصدر دخل الحاكم هناك صغيراً. ومع ذلك لم يكن عليه جمع المال بنفسه، بل كان يطلب من القاضي أن يجمع مبلغاً من المال ليرضيه. أما مقاطعة نينغ فكان دخلها كبيراً، ولكن كان على قاضيها أن يظل إلى جانب للحاكم؛ وإلا فإنه يُنقل. وكان بإمكان الحاكم نقل قضاة مقاطعة شينجين ونينغ. وكان الأمر ملائماً تماماً لقاضي شينجين، لحصوله على موقع مربح مثل هذا، ولكن كيف يمكن لقاضي نينغ أن يستمر؟ كي يحول دون نقله كان عليه تقديم الهدايا إلى الحاكم. لكنه لم يكن قادراً على إعطائه المال. فذلك يعتبر رشوة، وإذا عرف المراقب الإمبراطوري هذا فستكون نهاية كل منهما. ماذا يجب عمله؟ كان كل ما على الحاكم أن يفعله هو الاحتفال بعيدي ميلاد سنوياً، له ولزوجته. وعندما حل عيد ميلاده ذهب أتباعه إلى مكتبه ليسألوا:

-سوف يحل قريباً عيد ميلاد فضيلته، أليس كذلك؟

-صحيح.

كم..

-حسن..

ماذا يريد فضيلته أن أقدم له؟

-كيف أعرف؟ قدم له أي شيء تريده.

-كم عمر فضيلته؟

-ستة وخمسون.

ستة وخمسون، أي هدية ستكون ملائمة؟ لنفكر. إذا كان في السادسة والخمسين فهو مولود في سنة الجرذ. حسن، اذهب إلى الصائغ واطلب جرذاً مصنوعاً من سبيكة ذهبية ثخانتها بوصة واحدة، ووزنها ست عشرة أونصة.

كان طول هذا الجرذ قدماً وبوصتين، وتطلب ذيله وحده أكثر من سبيكة ذهبية، بينما كانت عيناه ماستين، كل واحدة بوزن خمسة قراريط. تم وضع هذا الجرذ الذهبي على الطاولة المخصصة لهدايا عيد الميلاد بينما وقف القاضي بجانبه محدقاً فيه، ليلفت انتباه الحاكم. ومن وقت إلى آخر كان الحاكم يتمشى، وهو يمسح على لحيته، ليتفقد هداياه. ولاحظ الجرذ على الفور! وبينما راح يمسح على لحيته أخذ يزنه بيده. ولو وجده خفيفاً جداً، ومطلياً بالذهب فقط، فإنه كان يضعه ثانية.

وعندما وزنه بيده عرف أنه على ما يرام. وحين قرأ اسم المانح، ربت على كتف القاضي.

-رائع، رائع. إنني أحب هذا فعلاً.

كان هذا يعني: لا تقلق، يمكنك أن تبقى في منصبك، فأنا لن أنقلك. وقال:

-إن هذه الصنعة رائعة حقاً.

ماذا كان يهمه في الصنعة؟ كان الوزن هو الذي يحبه!

-حسن الآن، كان ذلك حسن اهتمام منك، بعد معرفة أنني ولدت في سنة الجرذ وصنع هذا الجرذ الذهبي لي، آه! نعم، كان ذلك حسن اهتمام كبير. بالمناسبة، إن عيد ميلاد زوجتي في الشهر القادم.. وهي أصغر مني بسنة.

فكروا في الأمر! أصغر بسنة واحدة، أي في سنة الثور. كم يكلف ثور ذهبي! كيف كان يتوقع أن الناس العاديين يعيشون؟!

□□

الرســـالـــة

- ليوكينغ بانغ-

■ ترجمة: موسى عاصي ■
عن الإنكليزية

ولد ليو كينغ بانغ سنة 1951. يعمل محرراً في صحيفة "الصن . شاين" من بين أبرز مؤلفاته: "الفحم الناصع كالثلج" و"لو تانغ. المرأة الجزّارة."

تتألف خزانة الثياب العادية من بابين، لكنّ خزانة لي غو يتشانغ تتألف من ثلاثة أبواب. يعتبر بابها الأوسط الأوسع، وله أقفال سرّية صغيرة تصل تروسها عند الإقفال إلى أطراف الباب الأوسط، إنّها خزانة رحبة تزيد من رحابتها المرآة التي غطّت الباب الأوسط بأسره. بدت الخزانة قادرة على استيعاب محتويات غرفة النوم كلّها، والنور الذي على الشرفة وحتى لي غويتشانغ التي غالباً تمشي مختالةً أمام المرآة.

بدأ موسم البرد فرغبت لي غويتشانغ في إعادة حياكة كنزة ابنها باستخدام بقايا الصوف من نسيج العام الفائت. فتحت باب الخزانة اليميني. ظهر اللوح الخشبي الذي يقسم ذاك الجزء إلى قسمين. خزّنت لي غو يتشانغ الأشياء النادرة الاستخدام في الجزء الأصغر، مثل البنطالات القطنية السود والمعطف الأزرق والتصاميم القديمة لطبعات حياكة شراشف السرير وحقيبة تحتوي على كرات الغزل المتباينة الألوان والحجوم. لا تفتح لي غو يتشانغ ذاك الباب كثيراً.

وعندما تفتحه لا تغلقه حالاً، بل تفتح درجاً في الأدنى، وتخرج كتاباً وتقرأ رسالة تتوضع بين صفحاته. احتفظت بتلك الرسالة منذ تسع سنوات. ينشرح قلبها كلّما فتحت باب الخزانة، وكأنّ يداً خفية ترشدها فتنسى ما كانت ستقوم به وتتناول الرسالة ذات الصفحات الاثنتي عشرة، ولا تُعيدها إلى مكانها حتى تنتهي من قراءة كلّ كلمة فيها. بدت وهي تقرأ كأنّها تسمع كاتبها ينادي اسمها، فاضطرت لعبور المقاطع الجميلة في الرسالة لتجده في التوقيع، المذيّل في الأدنى.

فتحت لي غو يتشانغ الدرج بهدوء وحذر شديدين، فلو كانت حمامة نائمة فيه لن تنزعج من جرّاء فتحه. تتعرّض هي للإزعاج كعادتها. خفق قلبها وأسرع وحتى قبل أن تمسّ يدها الرسالة. لكنّ الرسالة لم تكن في مكانها هذه المرّة. رفضت أن تصدّق اختفاء الرسالة التي احتفظت بها هناك منذ تسع سنوات. شككت في ذاكرتها وقدراتها الذهنية. استعادت عدداً من الأزمنة عبر صفحات كتاب الحياكة السميك دون جدوى. شحب لونها وارتعشت يداها وتلبّدت أحاسيسها. تناولت الثياب القطنية المطوية وشراشف السرير ونفضتها بطيش، وأخرجت الدرج وأفرغته في أرض الحجرة وتفحّصت كلّ صدع فيه مرتابة في أن تكون الرسالة ملتصقة بإحدى كرات "كبب" النسيج في الحقيبة البلاستيكية، وأفرغت الحقيبة فوق السرير غافلة وتدحرجت الكرات الملونة على الأرض. بدت كلّ كرة كأنّها تنشد نشيداً رائعاً وتعلن: أنا هنا. أنا هنا. لكنها ليست سوى كرات غزل ولا رسالة. جلست على حافة السرير، أغمضت عينيها جزئياً وراحت تتأمّل الموضوع ثانية. رفعت الكتاب مرّة أخرى آملة أن تخرج الرسالة إياها من بين صفحاته. بدا الكتاب مشاكساً وأوصد الدرب لتوقعاتها. أحسّت بوخز في أنفها وبالدمع يترع في عينيها.

ارتابت لي غو يتشانغ حالاً في زوجها. كان الوحيد الذي يحمل مفتاحاً للخزانة غيرها، والوحيد الذي عرف مكان الرسالة. لابدّ أنّه أخذها. استاء من احتفاظها بالرسالة واعتبرها مجرّد ورقة عديمة الفائدة، وقف موقفاً متشدداً من قراءة الرسالة وهدد بتمزيقها إرباً إرباً إذا تبين له أنّها تقرأها. لم تقرأ الرسالة

أبداً.

في أثناء وجوده في البيت . حفظتها في قلبها . أمّا عندما تكون وحيدة، فإنها تُغلق الباب والنافذة، وتربّت على صدرها وتقرأها باهتمام. تذكرت آخر يوم قرأتها بالتحديد.

تساقط المطر فغطّت أوراق شجر الحور الصفراء المبللة الأرض. حفّت أوراق الشجر خلال هبّات رياح الخريف الزائرة، وتساقطت والتصقت بالأرض، وبقيت أطرافها مدببة كأنّها آذان تصيخ السمع برويّة إلى هدير السماء والأرض الأخير. نظرتْ إلى صور ورقات الزهور المزخرفة، فاقشعرّت وتفجّر صدرها منقبضاً وعجزت عن تمالك نفسها، أرادت أن تُطلق نهدة فلم تستطع. تذكّرت وهي تراجع نفسها بنشوة أنّها لم تقرأ الرسالة منذ فترة طويلة. قالت: آسفة، آسفة، ثمّ أخرجت الرسالة وقرأتها. انتابها حلم يقظة بعيد وهلة مما أتاح لها أن تُطلق نهدة، كأنّها تلقّت عزاء مريحاً جداً، وهدأت. طوت الرسالة بحذر فائق ووضعتها في المغلف الأصلي وخبأتها بين صفحات الكتاب الذي أعادته إلى الدرج.

عاد زوجها إلى البيت متأخراً جداً ذلك اليوم. اتضح أنه عاجز عن اكتشاف ما حدث، هل شاهد الدرج بلمحة خاطفة فعرف أنّها لمست الرسالة؟ إذا صحّ ذلك فالأمر غاية في السوء. كادت ترى وجه زوجها الغاضب وهو يمزّق الرسالة بعصبية وينثر قطعها من فوق الشرفة. انقبض قلبها مع كلّ مزقة تخيّلت أنّ زوجها صنعها. وما أن أكمل طرح المزق حتى أحسّت أنّها طُرحت أرضاً. أوشكت أن تصرخ مذعورة. أو ربّما أطلقت صرخة خافتة جداً لا تسمعها سوى أذنيها. لكنّ قلبها سمعها فأفاقت من حلم يقظتها. اتضح لها أنها بالغت كثيراً في جديتها فهزّت رأسها ساخرة من نفسها وراحت تُعيد الأشياء إلى الدرج.

كان زوجها لطيفاً معها. حيّاها بحنان لدى عودته من العمل، واستخدم التعبيرات المحببة قبل دخوله إلى المنزل. فعل ذلك كلّه بيسر لكنّها لم تألف الأمر بعد، ولذلك لم يتفق الزوجان في هذا السياق. واليوم حيّته كالمعتاد عند

الباب، وتناولت حقيبته من يده وقالت: لقد رجعت. وانزلق السؤال التالي من فمها: هل رأيت الرسالة؟ قررت أن تسأله بصورة غير مباشرة عندما يأويان إلى الفراش، لكنّها عجزت عن تمالك نفسها من جرّاء قلقها على الرسالة. مع ذلك، حاولت أن تتمالك نفسها بعد انسلال الكلمات من بين شفتيها، ولكن بعد فوات الأوان.

. رسالة؟ أية رسالة؟

. الرسالة إياها.

ـ أي رسالة؟ وضحّي. لماذا تترددين في كلامك؟ ما المسألة؟ قطّب حاجبيه وترك عينيه ترقبان.

أصابها العجز في وصف الرسالة. الرسالة التي وضعتها في درج خزانة الثياب.

تظاهر الزوج بعدم الفهم. قال وهو يحرّك يديه بصورة مثيرة: كيف لي أن أعرف؟ أي رسالة هي؟ لا أهتم بوجود رسالة أو عدم وجودها. استعاد حقيبته منها وأعطاها مجلّتين ملونتين قائلاً إنه استعارهما لها. وتابع: ثمّة قصص مثيرة عديدة، واحدة عن طلاق مطرب شعبي وأخرى عن تعارف النساء في المضافات، ولمّح إلى أنّ ذلك أكثر إثارة من رسالة.

تناولت لي غو بتشانغ المجلتين وألقتهما على الصوفا بعجرفة بادية في حجرة الجلوس وأعربت عن عدم رغبتها في قراءة أي منهما اليوم، اعتاد زوجها أن يستعير مجلاّت جديدة لها كلّ بضعة أيام خلال السنوات الأخيرة. تباينت المواضيع كثيراً، وتناولت مشكلات النساء وقضايا الأسرة والقانون والأفلام السينمائية والتلفزة والأزياء ومستحضرات التجميل. وعدها زوجها ألاّ يوفر لها الطعام الفاخر والثياب الأنيقة وحسب بل والغذاء الروحي الوفير. أدركت القصد الكامن خلف ذلك، لقد أراد إشغالها بالمجلاّت لكي تنسى الرسالة. قرأت جميع المجلاّت برويّة لكنّ أيّاً منها لم يعوّض عن الرسالة. قالت: كانت الرسالة في الدرج. ليس لها أجنحة تطير بها وقت تشاء. كيف تعلل اختفاءها؟

أجاب زوجها: سبق وغيّرتِ مواضع إخفائها. من يستطيع أن يضمن أنّ بمقدورك تذكّر المكان الذي وضعتها فيه آخر مرّة؟ وزيّن نظريته بمثال: عاشت مرّة امرأة هرمة وادخرت مبلغاً من المال من خلال جمع السلع القديمة وبيعها. أخفقت في إيجاد مكان آمن تضع المبلغ فيه، فلفّته أخيراً ووضعته داخل فردة حذاء قديمة مبطّنة بالقطن. نسيت كلّ شيء عنه وباعت فردة الحذاء مع بعض السلع القديمة. اتضح قصده. قصد تحميلها المسؤولية. يجب أن تلوم نفسها بدلاً من الارتياب في الآخرين.

لكنّ لي غو يتشانغ كانت واثقة من أنّها لا تستطيع أن تتذكّر مثل هذا المكان الخاطئ. ولن تتذكر ذلك أبداً لأنّها ليست هرمة.

دعيني أسألك: متى قرأت الرسالة آخر مرّة؟

أرادت أن تقول إنها قرأتها في اليوم الماطر، إلاّ أنّها ابتلعت كلماتها لأنّها تذكّرت أنّ زوجها لم يكن يسمح لها بذلك. قالت مراوغة إنّها عاجزة عن التذكّر تحديداً وإنّها لم تقرأها مؤخراً.

تمسّك زوجها بتردّدها مفسّراً الأمر بأنّها مادامت عاجزة عن تذكّر آخر مرّة قرأت فيها الرسالة فكيف تستطيع أن تتذكّر المكان. فتح لها منفذاً جديداً. حان وقت انتهاء المدرسة. اذهبي واحضري ابننا.

عنيدة كانت لي غويتشانغ، تشبثت برأيها بإصرار رافضة رقّة زوجها. لن أذهب إلى أي مكان قبل أن أجدها. ارتعش صوتها وتفجّر الدمع في عينيها.

ضحك زوجها متوهّماً سخافة الموضوع. بعدئذ، ومثل شخص يلاطف فتاة صغيرة على وشك الصراخ، ربّت على ظهرها قائلاً إنّه لن يغفر لها حماقتها إذ اعتبرت الرسالة أهمّ من ابنهما. دعينا نسوّي الموضوع فيما بيننا، سأبحث عن الرسالة. لن ألوم أحداً سواي لأنّ أحداً لم يفرض عليّ الزواج من امرأة ترتبط حياتها بقراءة رسالة. فتح باباً يؤدّي إلى خزانة الثياب ونظر حوله لحظة. راح إلى موضع الأدراج الستة. فتّش الدرج الأول والثاني. صرخ: تعالي وانظري. أليست هذه رسالتك الكنز!

دخلت لي غو يتشانغ إلى حجرة النوم وأشرقت عيناها بالسعادة لدى رؤية الرسالة في يد زوجها. غريب. كيف كانت في الدرج؟ لابدَّ أنّ زوجها حرّكها. ربما كان يمتحنها لمعرفة إذا كانت قد نسيتها. سارت إليه حالاً وكادت تختطفها لكنّه بادر مادّاً يده. هل تُقرّين أنّك شخصياً من وضع الرسالة هنا؟

مادامت قد وجدت الرسالة فلا رغبة لديها في إثارة جدال معه. لكنّ إجبارها على الإقرار بأنّها وضعت الرسالة في المكان الخاطئ مستحيل. أنّت، أعدها إلي، أعدها إلي. ألقت بجسدها على زوجها كطفل متلّهف واختطفت الرسالة، نظرت إلى اسمها على المغلّف ودسّت الرسالة في جيبها.. غطّت جيبها بيدها خشية أن تصنع الرسالة المستردة جناحين وتطير بعيداً.

بينما كانت توشك على المغادرة لإحضار ابنهما من المدرسة أوقفها زوجها وقال برزانة: آمل ألاّ تُري الرسالة لابننا، فنعجز معاً عن إعطائه التفسير المقنع. أريد لابني أن يبقى طاهراً وبريئاً.

لم توافق لي غو يتشانغ زوجها. شعرت أنّ رسالتها أنقى من الدم. لكنّها نزلت على الدرج دون أن تُفصح عن ذلك. لم تبتعد يدها عن جيبها، وكأنّها كانت تُمسك عصفوراً صغيراً تحسّ نبضات قلبه. رغبت كثيراً في إخراجها وإلقاء نظرة عليها، لكنها توقّعت أن يكون زوجها على الشرفة يراقبها، ونجحت في كبح رغبتها. نظرت إلى الشرفة. كان زوجها يراقبها، كما توقّعت، وينعم النظر في وجهة سيرها.

شاهدا تلك الليلة مسلسلاً تلفازياً عن رجل وبضع نساء. ليس هاماً كيف تطوّر الخط الدرامي، فقد حدثت المشاهد الرئيسة في الفراش، لم تسمح لي غو يتشانغ لابنها أن يشاهد مثل هذا اللون من البرامج، وإذا تصادف وأنهى وظائفه المدرسية كانت تبعثه للنوم. شاهدت البرنامج مع زوجها دون تركيز. حاكت كنزة صوفية لابنهما بينما ردَّ زوجها على عدد من المكالمات الهاتفية. كان يشغل منصب رئيس قسم في شركة المناجم، وهذا ما جعله يتلقّى فيضاً من المكالمات الهاتفية. عاد إلى ذكر الرسالة عندما استلقيا في الفراش، سأل لي غو يتشانغ عن المدّة التي تنوي الاحتفاظ بالرسالة. فجاء جوابها: لا أدري.

صمت وبدا مكتئباً. هزّته لي غو يتشانغ لكنّ الرجل بقي صامتاً. شرحت لي غو يتشانغ أنّ الرسالة لا تتضمّن شيئاً هاماً. إنّها بريئة برمّتها. ثمّ اقترحت أن يقرأها زوجها. وعندما أنهت كلماتها قامت لتناول الرسالة من جيبها.. ومن ثمّ قدّمتها له. ألقاها جانباً قائلاً إنّه لن يقرأها مهما حثّته على ذلك. نفد صبره فدفع الرسالة والمرأة كليهما بعيداً. أحسّت لي غو يتشانغ أنّ أحاسيسها تعرّضت لجرح من جرّاء تصرفه ورأيه، فأعادت الرسالة إلى جيبها بصمت ورجعت إلى الفراش وسحبت اللحاف وغطّت رأسها. لم يرغب أي منهما في كسر طوق الصمت السمج وهلة. دمدم الرجل بصوت قوي في داخله معلناً عجزه عن تحمّل ذلك أطول.

لا يمكن اعتبار الرسالة مكتوبة بنية حسنة. لا تتضمّن كلمة مثيرة واحدة. وليست القواعد اللغوية مضبوطة في بعض المواقع. تبدو في حدّها الأعظمي شيئاً كتبه طالب إعدادي صغير.

عرفت لي غو يتشانغ أنّ زوجها قال ذلك متعمّداً أن تسمعه. لم ينطق بكلمة سارة واحدة. يا له من رجل! رغم أنّه قرأ الرسالة سابقاً في أثناء غيابها فهاهو يفاخر بأنّها ليست جديرة بالقراءة.

استمر الرجل في ثرثرته. قال إنّه يستطيع كتابة عشر رسائل مثلها في يوم واحد، وسألها إذا كانت تصدّقه. لم يكن أمامها من خيار إلاّ أن تتكلم معه. أكتب إذاً. من منعك عن الكتابة؟.

الرسائل نتيجة للفراق. نحن دوماً معاً، فكيف أستطيع أن أكتب لكِ؟

سافرت في رحلات عمل. كان بمقدورك أن تكتب إلي. حسناً، سأكتبُ في المرّة القادمة عندما أسافر في رحلة عمل، ولكن هناك شرطاً واحداً. لا تتفجّري في البكاء. ذلك يُقلق ابننا. وقد يُفكّر أنّ حياتنا تعيسة. ضحك زوجها بعدها في محاولة لتهدئة التوتر.

انفجرُ في البكاء أم لا، هذا شأني، لا تتوهم أنّ بالإمكان إثارتي بسهولة.

اقترح زوجها شركاً آخر. إذا كتبتُ لك رسالة عاطفية طويلة، فهل تتخلّين

عن تلك الرسالة وتحتفظين برسالتي؟

ترددت لي غو يتشانغ. يعتمد ذلك على مقدرتك في الكتابة.

اتفقنا. مدَّ زوجها يده لها، أحد معالم الاتفاق بالمصافحة بالأيدي.

مدّت يدها قليلاً تعبيراً عن عدم رغبتها في أن يمسك زوجها يدها، وربّتت بخفة على يده.

لم يدعها مع ذلك تسحبها بسهولة.

طار زوجها في رحلة عمل بعد بضعة أيام إلى مدينة جنوبية نائية دخلت معركة النمو حديثاً. قنعت لي غو يتشانغ أنّ زوجها سيكتب لها هذه المرّة دون ريب. لم يسبق أن كتب إليها رغم أنّه متعلّم جداً وقادر على إلقاء الخطب الممتازة في الاجتماعات. كان ظريفاً ومصدر بهجة لمن حوله غالباً. وغدتْ محط إعجاب قريناتها الإناث في حفلات الزمالة. لابدّ أنّ هذا الزوج يستطيع أن يكتب رسائل رائعة. استمرّت تترقب رسالته بضعة أيام بعد سفره. لم تصل رسالة إلى المبنى الذي يقطنون فيه، تصل الرسائل أولاً إلى مكتب توزيع الرسائل الواردة إلى المنجم والصادرة منه، حيث يجري تحديد العناوين لكلّ قسم في العمل. عملت لي غو يتشانغ في مبنى مهاجع العمال العازبين في المنجم. يشابه المبنى فندقاً، وعملها مثل عمل مستخدمة الفندق. تغسل الأرض وتجلب الماء الساخن وترتب الغرف. ستستلم رسالة زوجها فور وصولها. لم تصل رسالة حتى نهاية اليوم السابع. قلقت وتأمّلت محاسن وجوده في البيت. كانت مرغمة على الاعتراف أنّه لطيف معها وشديد التعلّق بالتفاصيل ويراعي مشاعر الآخرين ويملأ الحبّ قلبه. قالت في نفسها: لكي أكون دقيقة، يعرف كيف يُحبّ المرأة، يمطرها بالمال والكلمات الرقيقة عند اللزوم، وكم يجهد دماغه لتأمين راحتها. اختلفنا غير مرّة، لكنّ خلافنا لم يبلغ حدّ الإفراط مرّة واحدة. يعرف كيف ينسحب في اللحظة المناسبة. كان أكبر عمراً منها، لكنّ القلب المحبّ لا يتأثّر بالعمر، لا يصرخ، واست نفسها بالاعتقاد أنّه يختزن مشاعره متعمّداً إطلاقها في رسالته لها.

لم تصلها أنباء من زوجها فأخرجت لي غويتشانغ الرسالة المحفوظة بإتقان لكي تقرأها. كتبها عامل منجم شاب من قريتها. أحب كل منهما الآخر حبّاً جمّاً. لم تكن سعيدة عندما اقترحهما خطّاب لبعضهما، لأنّ عائلته فقيرة وتعيش في كوخين من القش. تلقّت تلك الرسالة منه خلال فترة ترددها حيث كان يعمل في المنجم. وافقت أن تكون عروساً له بعد قراءة الرسالة. يمكن الاستنتاج أنّ الرسالة نجحت في لعب دور حاسم في زواجهما. لسوء الحظ، وبعد أقلّ من شهرين على زواجهما، حيث كانت تعيش عروساً في المنجم، حدث انفجار غازي تحت المنجم فجأة وأودى بحياة عريسها الشاب. بكت كثيراً، وأغمي عليها ثلاث مرّات، ولم تستعد وعيها إلاّ بوساطة العلاج الطبي. لم يُرزقا أطفالاً، وأخذت مكانه في المنجم طبقاً للأنظمة. لم يورّثها الشاب شيئاً سوى الرسالة. كان ذلك بالنسبة إليها كافياً لأنها أحسّت أنّ الرسالة هي القلب النابض المفعم بالحيوية لعامل المنجم الشاب.

انتصف فصل الخريف وكان المساء هادئاً. سطع ضوء القمر على الشرفة برقة، أشعلت لي غو يتشانغ مصباح الطاولة وجلست منتصبة القامة، وبحذر فتحت الرسالة تحت النور الكهرماني الهادئ كعادتها. كُتبت الرسالة على ورق مسطّر على شاكلة رسم بياني، وكُتب كلّ حرف داخل أضلاع مرّبع، بهت لون الورقة نتيجة للقدم فبدت ساكنة وجافة ومتجعدة. أدّت كلّ لمسة لها إلى حفيف كحفيف أوراق الشجر في أثناء هبوب رياح الخريف، ورقّت ثنياتها وشقّت مما جعل الكلمات واضحة من تلك المواقع لحسن الحظ لم تنشطر الرسالة إلى نصفين. لم ترغب لي غو يتشانغ في إحداث ثنيات جديدة في الرسالة، ولذلك ما أن أنهت عملها في الحقول حتى ذهبت إلى معرض المعبد أو وقفت على ضفة النهر تُحدّق في الزمن البعيد البعيد. ليس هاماً أين وُجدت أو ظهرت، فقد لاحقتها عينان خجولتان وتأمّلتاها ملياً. حاولت تفاديهما وسارعت الخطوات وجرت على طول النهر ذات يوم ربيعي. اعتقدت أنّها ابتعدت كثيراً فتوقفت كي تمسح العرق عن جبينها وتُسرّح شعرها الأشعث. نظرت إلى الوراء في تلك اللحظة ورأت العينين الثابتتين ثانية. تمالكت نفسها

بدلاً من الهلع وبحثت عن تعليل في ذاتها لمعرفة سبب مثابرة هاتين العينين المتواصلة. أثارتها النتيجة حتى البكاء. لم تتفحّص ذاتها بحرص شديد سابقاً بل فعلت الرسالة ذلك. نظرت إلى جسدها في المرآة لكنّها أدركت أنّ مجرّد صورة جسدية أمامها. ساعدتها الرسالة أن ترى في ذاتها شخصاً مختلفاً، وأن ترى صورتها في قلب رجل آخر، خلافاً لصورتها التامة في المرآة، كانت صورتها الداخلية غامضة وكذلك قسماتها، لكنّ قسماتها كانت مختلفة أكثر. منحها الفرق بين ما هو واقعي وبين ما رسمته ريشته إحساساً بولادة جديدة. أرادت أن تجعل من الشخصية الجديدة مسعى حياتها وهدفها.

لا تتضمّن الرسالة كلمات وعبارات مميّزة حقاً. كلّ ما فيها اعتيادي مثل الحقول في فصل الخريف. مع ذلك، انطلق صدى منها يستحيل وصفه من بدايتها وحتى نهايتها. أصدرت صدى ثقيلاً وكئيباً أو بعيداً في الزمن والمكان، لكنّ ذلك يُعقّد وصفها بدقة، قد توجد إيقاعات أو أنغام مناسبة أكثر للمقارنة، أو ربّما خوار بقرة راجعة إلى صغيرها عند غروب الشمس في برية فسيحة، أو غناء رجل يكابد وحدة بينما يهبّ نسيم المساء، أو ثرثرة رذاذ فوق كومة قش قديمة في ليلة ربيعية. تساوق جمال ذلك كلّه مع صوت الرسالة بصورة طبيعية أشبه بضباب خفيف يعلو الحقول في فصل الخريف، ضباب خفيف ولطيف ورطب يبلل أهداب المرء لدى ملامسته، يعوق الضباب الرؤية لمسافة بعيدة، إلاّ أنّ هذه الإعاقة تفسح مجالاً للرؤيا التي تلعب دوراً في جعل المرء يرى الأماكن النائية. لقد كان الخط رائعاً وليس له بديل، رغم أنّ لي غو يتشانغ لا تميل إلى محاكمة أنماط الخطوط، فقد يكون جيداً أو رديئاً، قرأت مرّة العبارة التالية، "إنّ قراءة الرسالة توازي لقاء كاتبها". لم تكترث بها في البداية، ولكنّها منذ تلقّت الرسالة، بخاصة بعد رحيل كاتبها إلى دنيا البقاء عن عالمنا البشري، أدركت عمق الأحاسيس المركّبة التي تجمع بين الحزن والعزاء في العبارة. ومادامت آراء الأفراد المتباينين تختلف فإنّ خطّ المرء يُجسّد خصوصيته، ويتفرّد كلّ فرد شأنه شأن خلايا الجسد. ثمّة رابطة دم ثابتة بين الفرد وخطّه. بدا خطّ عامل المنجم الشاب انطوائياً ومتناقضاً ومستنكراً، وفي الوقت ذاته

كان ظريفاً ومنضبطاً ومحافظاً. بدت لي غو يتشانغ في كلّ مرّة تقرأ فيها الرسالة وكأنّها ترى اليد تخطّ الكلمات وبعدئذ ترى جسده النحيل وابتسامته الصامتة. ما تزال تحسّ به يمسك يدها ويأبى الرحيل عنها لفترة طويلة بعد قراءة الرسالة.

هتف زوجها في اليوم التاسع من المدينة الجنوبية واستفسر عن أوضاعها وأحوال ابنهما. وبعد أن اطمأن عليها قال إنّه سيرجع بعد يومين. سألت تذكّره بوعده: هل كتبت إلي؟

اعتذر قائلاً إنّه رغب في ذلك لكنّه انشغل كثيراً واحتسى قدراً من الكحول مع كلّ وجبة وعانى من ألم في رأسه. كانّ ذلك مزعجاً لكنّ عمله يقتضي الشراب مادام يطلب إسداء خدمات من الآخرين، إضافة إلى أنّه المضيف في هذه الحفلات. لم يكن قادراً على تفادي ذلك. وأضاف، إنّه ليس مضطراً لدعوة الناس إلى الحفلات والشراب وحسب بل لتقديم ضيافات أخرى، وسيخبرها عن ذلك بالتفصيل في البيت.

لم تذكر لي غو يتشانغ الرسالة ثانية. تعال إلى البيت بأسرع ما تستطيع. ابنك يتوق إليك.

أحضر لها العديد من الهدايا . ثياب وملحقاتها ومستحضرات تجميل. سألها رأيها في كلّ قطعة وهو يريها واحدة بعد الأخرى. وعد أن يكتب لها خلال رحلة العمل القادمة ويجعلها تعرف موهبته في الكتابة. ابتسمت لي غو يتشانغ. لم تثق كثيراً في ذلك.

في المساء.. سألها زوجها إذا قرأت الرسالة خلال غيابه. اعترفت هذه المرّة واستغرقت في التأمّل. لم تكتب إلي، فكيف تجرؤ على منعي من القراءة؟ أثنى زوجها على إخلاصها خلافاً لتوقّعاتها. تابع بعدها الإدلاء برأيه حول الرسائل، إنّها واسطة اتصال قديمة لأنّها بطيئة ومحدودة المعلومات، ففي الوقت المهدور على كتابة رسالة واستلامها يمكن إجراء مئة مكالمة هاتفية.

الهاتف سريع وملائم، والأهم أننا نسمع بعضنا الآخر. لماذا نستبدل الجيد

بالرديء؟ وطلب من لي غو يتشانغ أن تستخدم تقنية الاتصالات الحديثة وألاّ تعتمد على الرسائل بعد الآن.

أجابت لي غو يتشانغ: إنّهما واسطتان مختلفتان ولا تتوافران بالتساوي.

ردّ الرجل مؤنباً عنادها. إنّهما متساويتان. أنتِ مولعة بوسيلة الرسائل كثيراً مما يُشير إلى أنّك عاطفية ومحافظة. قد تواجهين المتاعب في تقبّل الأفكار الجديدة نتيجة لأفكارك وعواطفك وقد تتخلفين عن الزمن، لا يستقرّ جوهر الموضوع هنا، بل في الحقيقة أنّ تصرفاتك تجرح مشاعر الآخرين، والأسوأ أنّها تؤثّر على حياة الأسرة والحفاظ عليها.

إنّك تبالغ كثيراً. كيف جرحت مشاعرك؟

مادمت تسألين فسأرد صراحة. لقد احتفظت بتلك الرسالة، التي تزعجني طويلاً، أحسّ أنّ زواجنا جسدي فقط، ورغم أننا تزوجنا ما نزال منفصلين عقلياً. أتوهّم أحياناً أنّ ما تخفيه في الخزانة ليس رسالة بل رجل قد يخرج في أي وقت ليكون الثالث بيننا.

استرقت لي غو يتشانغ النظر إلى الخزانة المقفولة. هذا في خيالك فقط.

يحدد الوجود الإيديولوجيا. لن أتخيّل شيئاً لولا وجود تلك الرسالة. ليتكِ تفعلين شيئاً بها.

. ماذا أفعل؟

. أعتقد أنّكِ تملكين سبلاً لمعالجة الموضوع.

. كلا، لا أمتلك.

غضب الرجل، أعرف أنّك مازلت غارقة في حبّه.

. أي نوع من الحبّ هذا؟ كيف تسمّيه حبّاً؟ كاتب الرسالة ميت، أليس من حقي أن أحتفظ برسالة؟ ما أن أنهت كلامها حتى اعتراها حزن عميق وانهمر الدمع على وجنتيها.

عندما لاحظ كآبتها صمت كعادته وانتظرها حتى تهدأ. تابع حديثه بلهجة

حذرة مداهنة كأنّه خشي انفجاراً آخر. قال إنّه أحبّها حباً جماً، وإنّه منذ زواجهما لم يرجع مرّة واحدة إلى بلدته ولم يكتب إلى زوجته السابقة التي ما تزال تعيش مع عائلته بعد الطلاق. فعل ذلك لأنّه أحسّ أنّ واجبه يُحتّم عليه أن يكون مسؤولاً عنها وعن ابنهما وعن أمن أسرتهما وسعادتها. أدرك أنّ كلماته لم تُحدث وقعاً عليها فانتقل إلى موضوع آخر، اقترح عليها أن تنمّي هواية مثل جمع الطوابع مثلاً. وأضاف: لا يهم إذا كتب شخص ما إليها، كما أنّ بإمكانها اقتناء الطوابع الجديدة من البريد. ترتفع قيمة الطوابع مع الزمن.

اختفت الرسالة الثمينة نهائياً في حادثة ما ذات يوم. وفي اللحظة التي تبينت فيها اختفاء الرسالة سألت زوجها عنها. ابتسم محاولاً تهدئتها وقال إنّها بانتظار مفاجأة كبيرة. أعلنت لي غويتشانغ أنها لا تريد مفاجأة بل تريد الرسالة فقط. لكنّه وعد بمفاجأتها فقط. عجزت بعد الانتظار الهادئ بضعة أيام عن تحمّل الأمر أطول فحاولت إرغامه على إعادة الرسالة. لم يبقَ أمام الرجل سوى خيار البوح بكلّ شيء: بعث الرسالة إلى مكتب جريدة المنجم طالباً نشرها. جادل أنّ نشر الرسالة مرّة يسهّل الاحتفاظ بها. تلقّت صدمة وامتعضت، ولم تكن مسرورة أبداً. شحب وجهها وارتعشت يداها وهي تعارض فعلته بشدة. سألت زوجها: بأي حق تبعث الرسالة، وطلبت منه استرجاعها في الحال، انفجر هو الآخر يوجّه اللوم إليها لأنّها لا تعرف مصلحتها، وتبدّى انفجاره غير مسبوق، تجادلا بعنف جداً وتقاتلا جسدياً. ضرب المرآة إثر نوبة غضب وحطّمها إلى قطع مما كشف لوح الخزانة الخلفي، بدا فراغ الخزانة الخادع الكبير أصغر وأعطت حجرة النوم إحساساً خانقاً.

قال الرجل: حسناً، لقد تحطّمت الآن. أدى تحطيم المرآة إلى صمت الزوجين لحظة.

رأى لي غو يتشانغ تشقّ دربها إلى مكتب الجريدة طلباً للرسالة. أخبروها أنّهم لم يتسلموا رسالة من هذا النوع.

شارة ماو

- فينغ جيكاي -

■ ترجمة: نبيل المجلّي ■
عن الإنكليزية

تعريف بالكاتب:

ولد فينغ جيكاي FENG JICAI في عام 1942 ضمن أسرة ثرية من تيان جين، في الصين، وبدأ فينغ جيكاي يكتب ويرسم في سن مبكرة. عزم على أن يدرس الفنون بعد التخرج في المدرسة العليا، لكن طول قامته الاستثنائي لفت انتباه أحد مدربي فريق كرة سلة محترف، فأقنعه بأن يصبح لاعب كرة سلة. ورغم أن فينغ كان يستمتع بهذه الرياضة، فإنه كان يفتقد ممارساته الفنية وأخيراً انتقال من الفريق فأقيل.

كانت جهود فينغ ككاتب ورسّام موضع شجب من الحكومة الصينية الشيوعية. كان قائد الشيوعيين في هذا الوقت، ماو تسيتونغ، قد بدأ بما كان يسمى بثورة العمال الثقافية العظمى (1965 . 1968)، وهي برنامج وضع على نطاق الأمة الصينية لغرس مبادئ ومُثُل ماو في الجماهير. ولم يتسامح مع أية فعالية كان يمكن أن ينظر إليها على أنها مناهضة للشيوعية، أو مناهضة لماو، أو مناوئة للصين من قبل الحكومة. واعتدي على فينغ الذي كانت كتاباته تتجه نحو النقد السياسي اللاذع من طرف الحرس الأحمر، ودُمّرت مجموعة كتبه وفنه. ولتجنب المزيد من الاضطهاد، شرع فينغ يخفي أعماله: التي كان من الممكن أن يؤدي اكتشافها من قبل الموالين لماو إلى اعتقاله أو حتى إلى إعدامه.

ومن دواعي السخرية، أن الثورة الثقافية التي أدت إلى اضطهاد فينغ هي ذاتها

حرّضت أيضاً كثيراً من كتاباته. فلقد قال مرة إن الأعمال الوحشية لهذه الفترة قد زودته بنفاذ البصيرة إلى الطبيعة البشرية التي تعبر عنها أعماله.

بعد وفاة ماو في 1976، بدأت أعمال فينغ تظهر مطبوعة، فقد طبع عدة روايات وكثيراً من القصص القصيرة، والمقالات. وعلى النقيض من المواضيع المناصرة للشيوعية والمتبناة من قبل الكثير من الكتاب الصينيين المعاصرين، فإن كتابات فينغ تستكشف مواضيع أوسع، وأكثر عالمية يمكن أن تروق لشريحة أكبر من القرّاء.

***

أقسم أن يحصل على شارة ماو[1] ضخمة هذه الليلة بعد العمل.

فعلاً، كانت الشارة التي حملها اليوم إلى المكتب كبيرة وغريبة بما يكفي لتثير قدراً طيباً من الحسد.

كان صهره قد استحصل عليها خصيصاً له من وحدة معينة في الأسطول وأحضرها إليه الليلة الفائتة فقط. بعد خصام بشأنها لحوالي النصف ساعة، وافقوا على أن يرتبوا دوراً: كلٌ سيحملها يوماً حتى تكون قد دارت مرة، ثم يحتفظ بها كل واحد مدة أسبوع في كل مرة. حصل عليها أولاً، لا لأنه رب البيت، وإنما لأنه قد أراد بإلحاح كبير أن يعرضها في العمل. أصرَّ، وكسب.

كان مسروراً بنفسه في المكتب طوال الفترة الصباحية. فلقد أحدث تأثيراً حقيقياً.

قال كل من رآه، بينما انحنوا لتأمل الشارة كما لو كانت نوعاً من الجواهر: "لقد فُقْتَنا جميعاً اليوم، يا سيد كونغ!".

توجهت نظراتهم الحسودة إلى رأسه مباشرة. وكان واثقاً من أن شارة ماو خاصته كانت الأفضل في المكتب اليوم. عند الغداء طاف في أرجاء الكافتيريا ليتحقق أن كل أحد قد لاحظه. لكن حينذاك اقترب منه السيد تِشن، من قسم الإنتاج، عارضاً شارة أكبر، وأكثر جدة، وأكثر لفتاً للعين على سترته المكوية

---

[1] *حلية ذات دبوس تصور ماو تسيتونغ، الرئيس السابق لجمهورية الصين الشعبية.*

بأناقة. صورة مزينة بنقوش نافرة للقائد ركزت في شمس عظيمة من الميناء الأحمر، تحتها باخرة ذهبية عملاقة كانت تتحرك عبر الأمواج[1]. رُسم القائد من الأمام بدلاً من الصورة الجانبية. كان يعتمر قبعة عسكرية، وكانت قبعته وياقته تحملان شارات. كان الطلاء الذهبي رائعاً: كان وميض الذهب في مقابلة الحمرة يبهر العين. وكانت الشارة درة جامع الشارات. أحس كونغ بشارته تظلم مثل نور خبا. وهي صغيرة أكثر من اللازم بالمقارنة. كل شارته لم تكن أكبر من الصورة التي على شارة السيد تشن، الذي لا بد أن شارته كانت بقياس ثلاث إنشات طولاً: بحجم قرص برازق[2] تقريباً.

كان السيد تِشن هادئاً إلى أبعد حد ويمتلك دائماً وجهاً صريحاً، بينما كانا يمشيان جنباً إلى جنب، نظر السيد تشِن فقط إلى صدر كونغ وتجاوزه مثل بطل رياضي يقابل هاوٍ شاب. قرر كونغ مجروحاً، وغيوراً، وغاضباً أن يخرج ويحصل على شارة ضخمة لماو، حتى لو كلفته مدّخرات حياته. كان عليه أن يحط درجة السيد تشن درجة أو درجتين فقط.

حين وصل إلى البيت في المساء أخبر أسرته بفشله. بعد عشاء سريع جمع كل شارات ماو التي في البيت، ولفها بمنديل، وحشاها في جيبه. انتزع حتى الشارتين اللتين كانت زوجته وابنه يحملانها. ثم اندفع خارجاً إلى جادة "الشرق أحمر[3]"، أكثر شوارع التسوق نشاطاً في البلدة. فلقد سمع بأن الفسحة المكشوفة التي وراء مرآب المخزن التنويعي الكبير كان المكان الذي يُرحل إليه لشراء شارات ماو، كان الناس يقولون إنك تستطيع أن تحصل على أحدث الصيحات هناك.

عند وصوله إلى هناك كانت السماء مظلمة وكانت كل المصابيح موقدة، لكن المتسوقين كانوا ما يزالون يملؤون الشارع. عملياً كان كل شخص يحمل شارات ماو؛ كان الأمر يبدو كما لو أنها أصبحت جزءاً آخر من الجسد

[1] تمثل الشمس الحمراء الثورة الشيوعية، التي تتقدم تحت قيادة ماو.
[2] نوع من الحلوى يصنع من دقيق القمح والسكر والسمسم.
[3] شعار شائع في الصين؛ يحتفل بأن الصين قد تبنت حكومة شيوعية.

البشري. بعض الناس كانوا يحملون أربع شارات أو خمساً على صدورهم، بالطريقة التي اعتاد الجنرالات الأوروبيون أن يحملوا بها أو سمتهم قبل مئة عام مضت. بدا لكونغ أن الناس ذوي الشارات الاستثنائية لماو كانوا يرفعون رؤوسهم أعلى من الباقين؛ في حين أن أولئك الذين يحملون شارات عادية صغيرة قديمة الطراز كانوا يتحركون بكآبة خلال الحشد. أياً كان المركز الاجتماعي، أو الدخل، أو القوة التي لديك، فإن نوعية شارة ماو التي تخصك هي القضية الحاسمة في هذه اللحظة الدقيقة. هل أضحت شارة ماو الدليل القاطع على الموقف السياسي لحاملها وعلى إخلاصه للقائد؟ والمحك وجهاز مراقبة القلب؟

بينما كان يمشي لم يلق بالاً للناس المتجهين نحوه؛ كانت عيناه فقط على شارات ماو خاصتهم. كانت تتدفع نحوه شارات ملونة، ومتألقة من كل القياسات مثل شُهب على مقربة من مركبة صاروخية في الفضاء الخارجي، ثم اكتشف شارة مثل شارة السيد تِشن تماماً. مد يده وقبض على يد حاملها.

سأل الرجل وقد فوجئ بشكل واضح: "ماذا تظن أنك فاعل بالضبط؟"

ألقى كونغ نظرة أقرب إليه: جندي قصير، وسمين، ذو كرش وعجوز. ربما كان ضابطاً.

سأل كونغ بضحكة بارعة "عفواً، آه . أيمكنك أن تستغني عن شارة ما وخاصتك؟ إن لدي كل الأنواع . بإمكانك أن تختار، هل بإمكاننا أن نجري صفقة؟"

سخر الجندي كما لو أنه يقول إن هذه الشارة كانت إرثاً أسرياً لا يقدّر بثمن. نظر بانزعاج إلى وقاحة كونغ. كان كونغ ما يزال قابضاً على كمه، قال بجفاف "لا سبيل إلى ذلك"، دافعاً كونغ جانباً، وتهادى مبتعداً.

كان كونغ غاضباً، لكنه عزّى نفسه بفكرة أنه حتى لو حصل على الشارة، فإنها ستضعه فقط على قدم المساواة مع السيد تِشن. ما كان يريده هو أن يبزه.

ثم لَمَح حشداً من تجار الشارات خلف مرآب السيارات. بدأ قلبه يخفق بقوة مثل قلب صياد يكتشف قطيعاً من الأسماك البرّاقة، وانطلق يعدو. حالماً صار ضمن الحشد، شعر كونغ بالحرارة وتورّد، لكنّ المشهد كان مدهشاً: تنوع لا نهاية له من شارات ماو ومجموعة من الباعة المتجولين يتبارون.

كان البعض يضعون الشارات التي يأملون أن يبيعوها وينادون على الأنواع يبحثون عنها: "من لديه أشغال ووهان[1] الفولاذية بقياس اثنين ونصف؟". شعار بقطر اثنين ونصف إنشاً. "سأقايضكم عليه!"

وكان البعض يعرضون شاراتهم على مناشف اليدين؛ والآخرون، الذين كانوا يعتبرون الألوان الزاهية هي الجمال، وضعوا بضائعهم في صناديق زجاجية مسطحة مبطنة بالورق الملون على الجوانب والحرير الأخضر في الأسفل. ومع ذلك كان آخرون يثبتون شاراتهم على قبعاتهم بحيث كان على الناس أن يمدوا أعناقهم ليروها. كان الحشد يملأ الطرفين الجنوبيّ والشرقي لمرآب السيارات. بعض الناس تناثروا حتى في المرآب وكانوا يمرون بصعوبة بين السيارات. كان المكان بصيحاتهم المماحكة، والضحك، أكثر صخباً من سوق في العراء في أكثر ساعات الصباح نشاطاً.

ضربه أحدهم على كتفه "عن أي نوع تبحث؟"

كان المتكلم رجلاً منتفخاً، طوالاً متوسط السن ومتملقاً كبائع متمرس. لكنه كان يرتدي سترة زرقاء منتفخة بشارة وحيدة لماو بحجم غطاء زجاجة على الصدر. لم يكن يبدو أنه يملك بضاعة خاصة.

"أريد واحدة كبيرة على الأقل بقياس ثلاثة ونصف. هل لديك أي منها؟"

سأل الرجل "أو . هو . لا أشياء صغيرة من أجلك، إيه! هل يضيرك إذا كانت الصنعة خشنة قليلاً؟" بدا أن لديه ما كان يريده كونغ.

"دعني أراها".

[1] مدينة صناعية في وسط الصين فيها تم تنظيم العمال لنصرة ثورة ماو.

أجاب الرجل دون أن يطرف لـه جفن "قل لي أولاً ماذا لديك". كان متعجرفاً مثل مليونير . شارات ماو.

قال كونغ، ماداً يده إلى جيبه "إن لدي دزينات من مختلف الأنواع"

لمس الرجل معصم كونغ. "لا تخرجها بين هذا الجمع. فسيسرقها أحدهم. تعال معي!"

شقا طريقيهما بمرفقيهما خارج الحشد، وعبرا الشارع، ودخلا الزقاق المظلم بجانب مخزن الثورة للقبعات والأحذية. قاده الرجل إلى عمود الإنارة الثاني.

طلب "دعني أرى بضاعتك".

سلم كونغ الرجل باليد منديل شارات ماو خاصته. تفحصها الرجل، هازاً رأسه ومقهقهاً باستنكار، وأعادها.

سأل بعد تفكر للحظة "هل لديك أشياء أفضل؟".

"لا، هذا كل ما لدي".

توقف الرجل ثانية. قال مشيراً إلى منديل شارات كونغ "ستواجه وقتاً عصيباً في بيع تلك المجموعة من الشارات في مقابل واحدة بقياس ثلاثة ونصف. لا تنس . الشارات الكبيرة مادة رائجة الآن".

رد كونغ بسخرية "حسناً، علي أن ألقي نظرة على شاراتك، سواء كنت ستقايض أم لا. ثم سنرى الأشياء المهمة". مع ذلك، فإنه لم ير بضاعة الرجل أيضاً.

وبدلاً من الإجابة، فك الرجل سترته الخارجية وفتحها بسرعة. أوشكت عينا كونغ أن تخرجا من رأسه: مائة شارة مختلفة من شارات ماو على الأقل كانت مثبتة إلى سترة الرجل الداخلية. فقد كان خزينة متنقلة لشارات ماو. لم يكن كونغ قد رأى قط شارات من هذه النماذج من قبل.

قال الرجل قبل أن يتمكن كونغ من أن يملي ناظريه "لم تر شيئاً بعد، ألق

نظرة إلى الداخل . هناك حيث توجد الشارات الكبيرة". وفتح الستزة المغطاة بالشارات ليُظهر كساءً آخر أيضاً محمّلاً بصفٍ فوق صف من الشارات اللامعة. كانت ضخمة: كانت كلها بحجم قبضة اليد على الأقل، وواحدة بحجم غطاء إبريق، كان يلفت العين مثل كركي بين دجاجات.

صاح كونغ بسرور، وقلبه يدق بثقل "تلك هي الشارة التي أريد!"

سأل الرجل بضحكة خافتة "ماذا؟ هذه الشارة؟ هل تعرف حجمها؟ إنها بقياس أربعة، أنت ترى حيث تقول "الولاء" ثلاث مرات بالذهب على طول هنا؟ إنها شارة "ولاء مثلث"[1] من كسيانجيانغ[2]. لا أحد في هذه الناحية قد رأى هذه الشارات بعد. أخمّن أنك لا تعرف السوق: حتى أربعة أضعاف الشارات التي تملك لا تشتري لك واحدة من هذه. كل شاراتك معاً تساوي على الأكثر واحدة بقياس (ثلاثة ونصف). وذاك فقط إذا قايضتني . لا أحد آخر سيعطيك مثل هذه الصفقة الجيدة. شاراتك صغيرة زيادة عن الحد وعادية.

توسل كونغ "لماذا لا تدعني آخذ هذه التي بقياس (أربعة) فقط؟ إن لدي هنا أربعين أو خمسين شارة، و...." كان مفتوناً بجنون بالشارة. لو أنه يستطيع فقط أن يحملها غداً، فإن السيد تِشن وكل شخص آخر في المكتب سيتغير لونه من الحسد.

عندها فقط ظهر رجل قزم داكن اللون إلى اليسار واقترب لينظر إلى شارات ماو على صدر الرجل الطويل.

ألقى الرجل الطويل نظرة عجلى على الوافد الجديد وأغلق سترته الخارجية بعنف. أعلن بفظاظة "لا صفقة!"، واختال مبتعداً، مجلجلاً مثل حصان مسرج بجرس.

فكر كونغ، "لا أستطيع أن أدعه يمضي . على الأقل علي أن أقايضه على شارة بقياس (ثلاثة ونصف) كان على وشك أن يركض وراء الرجل

---

[1] الولاء المثلث: شعار يعني الولاء لفكر ماو، والولاء للطريق الثوري لماو، والولاء لماو نفسه.
[2] مدينة صناعية صينية تقع جنوب الصين.

الطويل عندما مد الرجل القزم ذو اللون القاتم ذراعه ليوقفه. بدا، بذقنه ذات الشعر القصير الأسود الشائك وملابسه السوداء، كما لو أنه نحت من الكهرمان الأسود. بدت عيناه المدورتان المومضتان كأنهما تنثران رونقاً على كل جسده.

قال بصوت مثير "لا تقايضه . فخداع المبتدئين صنعته، وشارات الولاء المثلث تلك التي من كسينا نجيانغ فكل دزينة منها بعُشر دولار؛ فهي تعتبر قديمة الطراز. أخبرني ماذا لديك . سأقدم لك صفقة، فلدي شارة ماو لا تشبه شيئاً رأيته من قبل على الإطلاق".

"أهي كبيرة؟"

"كبيرة؟ حسن، إنها أكبر من شارة الولاء المثلث خاصته تلك. لكنها ليست مجرد كبيرة . إنها بدعة حقيقية، ولكن دعني أرى شاراتك أولاً".

قدم كونغ صرته من الشارات ثانية وترك الرجل يتفحصها مثل مفتش الجمارك. ثم قاده الرجل عميقاً في الزقاق. كانت مصابيح الشارع مطفأة، وكان المكان حالك الظلمة، كان كونغ خائفاً من أن الغريب سيسلب ما معه. وكلما مضيا أبعد، كلما كانت الظلمة أشد، حتى أن الصورة الظلية للرجل امتزجت تقريباً بالظلال السوداء الكئيبة.

سأل، باذلاً جهداً فائقاً ليكون شجاعاً: "ألا أستطيع أن ألقي نظرة عليها هنا؟"

"من غير ريب" وافق الرجل القزم ذو اللون الداكن، ومثل الرجل الطويل من قبله فك سترته، لكن صدره كان غشاوة مظلمة دون أدنى شارة لماو. قبل أن يتمكن كونغ أن يسأل أية أسئلة سمع قرقعة، وظهر شيء، مدور ومتوهج، يشبه القمر سحراً عل الجانب الأيسر من صدر الرجل. بدا لكونغ أن فتحة منيرة قد فتحت في صدر الرجل أو أن قلبه قد أضاء. وفي الداخل كانت

صورة: صورة ملونة للرئيس ماو ملوحاً من على منبر تيان آنمن[1].

حين أفاق من ذهوله العارض، فهم كونغ: كان الرجل يحمل محفظة زجاجية مضاءة بحبابة مصباح جيب. في المحفظة صورة ملونة للقائد ملوحاً بيد عملاقة كانت مرتكزة خلف حاجز كرتوني أحمر. كانت المدَّخرة مخفية مع الرجل؛ وكانت التمديدات متدلية من خلفية المحفظة؛ وكان مفتاح القابس في يده. نقرة من القابس وتظهر! وستضيء شارة ماو مثل تلفزيون ملون. اختراع عظيم حقاً!

أطفأ الرجل الضوء. جاء صوته المعتد، والمتملّق في الظلام "حسنٌ، كم أعجبتك؟ أليست أمراً لا يصدق؟ ماذا ستعطيني ثمناً لها؟ لكن لا تنس أن المدَّخرات والقابس تساوي قدراً كبيراً من المال!".

كان على كونغ أن يوافق على أن الشارة كانت حلية حقيقية. لكن اهتمامه تلاشى بسرعة. كانت هذه بدعة بيتية الصنع، وليست شارة مناسبة. وعليك أن تحمل معك جهازاً كاملاً من المعدات الكهربائية. تمديدات، ومدخرات، وقابس. كما لو أنك مروحة كهربائية. إضافة إلى، أنها يمكن أن تكون لافتة للعين ليلاً، لكنها ستكون باهتة كلياً نهاراً.

قال بكياسة بعد لحظة تفكير "لكني أعتقد أنني لن آخذها، بما أنها ليست شارة مناسبة. ما أحبه شارة مألوفة، على الأقل بقياس ثلاثة ونصف إذا كان لديك أي منها".

بدأ الرجل بنغمة البيع، لكن كونغ لن يغير رأيه. عندئذ جسَّه الرجل برغبة من رسغه. ظن كونغ، الذي كان خائفاً من أن يباغت، أن الرجل سيسلبه شارات ماو خاصته. ركض، محرراً ذراعه بدفعة، نحو مدخل الزقاق المضاء بسطوع.

سمع الرجل يصرخ خلفه "أوقفوه!"

---

[1] منبر الخطيب في ساحة "تيان آنمن"، أكبر ساحة عامة مركزية في بكين، عاصمة الصين.

خطر في بال كونغ أن بعض أصدقاء الرجل ربما كانوا كامنين في الجوار. انطلق خارج الزقاق وإلى الشارع، حيث اصطدم تقريباً بدراجة هوائية قادمة. قفز، جفلاً مثل أرنب من فوق الدولاب الأمامي وارتد منطلقاً إلى حشد تجار الشارات قرب المرآب، وخشية أن يكتشفه القزم ذو اللون الداكن، انحنى، مخفياً وجهه، وانسلَّ خلال الحشد.

لحسن الحظ أنه نجا دون مزيد من الحوادث ومضى إلى البيت راكضاً كل الطريق.

حين رأت زوجته كم كان شاحباً ولاهثاً، ظنّت أنه مريض. وبختْه، حالما علمت ما حدث، وصبت له فنجاناً من الشاي لتهدئ من روعه.

قالت: "هل شارات ماو في دماغك! أنت أبداً لا تفعل ما يفترض بك أن تفعله عندما تصل إلى البيت من العمل. وهذه الليلة، إضافة إلى كل شيء، تخرج إلى الشوارع لتقايض على الشارات. ألا تعلم في أي نوع من الرعاع يمكن أن تدخل هناك؟ وأخذت شارات الأولاد وشارتي أيضاً! لو أنها سرقت، ماذا كنا سنحمل غداً؟ سيقول الناس إنني ذهبت بدون شارتي لأنني لا أحب الرئيس ماو. سيقبضون عليّ كمناهضة للثورة، ولن يكون هناك أحد ليطبخ لكم حين تعودون إلى البيت من العمل كل يوم. إن الحصول على شارات ماو جيدة يتطلب براعة. انظر إلى السيد وانغ. هناك الآن ميكانيكي حقيقي. إنه ربما يكون متواضعاً، لكنّ لديه من الشارات أكثر من أي شخص آخر".

"أي سيد وانغ؟"

"الشخص الذي يعيش في الطابق الثالث من البناء الأمامي. أمازلت لا تعرف من أعني؟ طبعاً أنت تعرف. زوج السيدة وانغ. ماذا دهاك؟ هل أفزعوك هناك أيها الساذج؟"

"أوه. أجل. فهمت، من أين أتى بهذا المقدار الكبير من الشارات؟"

"إنه مسؤول عن هيئة مصنع للشارات حيث لا يصنعون شيئاً سوى

شارات ماو. ورب عمله يعطيه مئات منها ليصطحبها في كل جولات العمل. عليك أن ترشو بها هذه الأيام للحصول على غرفة في فندق، ولشراء بطاقات القطار، أو لطلب خدمة من أي شخص. إنها أفضل من الأموال النقدية. منذ بعض الوقت أخبرتني السيدة وانغ أن زوجها لم يدفع من أجل شراء شاحنة لعمله شيئاً سوى شارات ماو".

"كم شارة كلّف ذلك؟"

"الرجل ذكي. ومن الممكن ألا يكون قد تخلى عن تلك الكمية. وظني أن شخصاً داهية مثله يملأ جيبه خلسة كلما سنحت له الفرصة. وإلا فلماذا تحمل السيدة وانغ شارة ماو جديدة في كل مرة أراها فيها؟ وحين أسألها عنها فإنها تراوغ فقط ضاحكة عوضاً عن الإجابة، لكنني متأكدة من أنها تحصل عليها كلها من زوجها. الآن فقط صعدت إلى هناك لتحصيل فاتورة الماء خاصتهما ووجدتهما يتأملان شاراتهما بإعجاب. اندفعت داخلة دون قرع وفي الواقع ألقيت نظرة".

"هل ألقيتِ عليها نظرة جيدة؟ ما هي الأنواع التي لديهما؟"

"لم أستطع أن أبدأ بإخبارك. كان هناك على الأقل ألف . كان السرير والمنضدة كلاهما مغطيين بها"

"أكان هناك أية شارات كبيرة؟"

"شارات كبيرة؟ أقسم أن واحدة منها كانت بحجم غطاء القِدْر".

وهكذا فإن هدف بحثه الواسع كان تماماً في البيت المجاور كل الوقت. ركض، تاركاً شايه لم يلمس على الطاولة، إلى المبنى الأمامي بأسرع ما تستطيع رجلاه أن تحملاه. أخذ يصرخ "سيد وانغ!" حتى قبل أن يصل إلى الطابق الثالث. قبض الابتهاج، مثل يد غير مرئية، على حباله الصوتية وجعل صوته يرتجف.

وحالما صار داخل شقة السيد وانغ، توسّل إليه أن يريه كنوزه. كان السيد

وانغ ملزماً قسراً، بما أن كونغ جار قديم. كانت هنا الآن شارة ماو كبيرة! كان السيد وانغ مليونير شارات ماو لو كان هناك واحد. وكان كونغ يعاني عقدة نقص.

ثم اكتشف الشارة الضخمة التي ذكرتها زوجته. قال السيد وانغ إنها بقياس خمسة ونصف. وزنها كونغ بكفه. كانت ثقيلة بصورة مدهشة: نصف باوند على الأقل. لكن الصورة كانت مألوفة: شمس حمراء كبيرة مع صورة جانبية للقائد في الوسط وسلسلة من تسع زهرات عباد الشمس في الجانب الآخر من الشارة. كانت الزهرات تبدو أشبه بمناخل خشنة.

كانت الصورة، المصقولة، والطلاء رديئين.كانت على أي حال، بلا ريب أكبر شارة في العالم . ستبدو شارة السيد تشن بالغة الصغر بالمقارنة معها. كان كونغ يريد شارة كبيرة: إنها الأفضل . إنها تظهر وتُكسبُ ذِكراً، توسل إلى السيد وانغ من أجلها وأبرز شاراته مرة إضافية.

لحسن الحظ كان لديه واحدة بصورة للكرة الأرضية والتعليق: "إن شعوب العالم تتوق للشمس الحمراء". وتصادف أن السيد وانغ يحتاج إلى هذه الشارة ليكمل مجموعة من أربع شارات، لذا أعطاه كونغ إياها، مع اثنتين أخريين، في مقابل أكبر شارة في التاريخ. وصل إلى البيت محتضناً كنزه بيدين مرتجفتين.

تعجبت زوجه وولده حين شاهداها "واو !"

في الصباح التالي استيقظ باكراً، حلق، وغسل وجهه وعنقه، وارتدى ملابس نظيفة، بعنايةكما لو كان ذاهباً لاستلام ميدالية. بعد ذلك، استخدم مناديل زوجته الجديدة الناعمة، متجاهلاً احتجاجها، ليلمع الشارة الكبيرة بالسَّحم. كان لديه مشكلة بشأن تثبيتها. لقد غطت صدره الضيق حين حملها على جانبه، ولكنها حين وضعت في المنتصف بدت تافهة، مثل درع صدري لجنرال قديم. وتدلت سترته تحت ثقلها الضخم. أسوأ ما في الأمر، وبما أن الدبوس كان في مركز الخلفية بالضبط، أن الشارة مالت باتجاه الخارج مثل إطار صورة بدلاً من أن تبقى مستوية. ظل كونغ في حيرة إلى أن اقترحت

زوجته أن ينتقل إلى سترته القطنية السميكة؛ مع أن الطقس كان لا يزال حاراً زيادة عن الحد على القطن السميك، سمح القماش القاسي للشارة أن تبقى مستوية بالطريقة التي يفترض بها أن تفعل.

قام بعدة وضعيات، حاملاً الشارة، وأعجب بنفسه في المرآة.

هلل ولده، مصفقاً بيديه "هوراه[1]! أبي شخص ممتاز! أبي رقم واحد!".

كان الطفل جديراً بالاحترام. كانت تعليقاته مثل قشدة على الكعكة.

أجل، فلقد كان حدث اليوم! كان الناس يرمقونه بينما كان يمتطي دراجته العادية على طول الشارع. كان بعضهم يشير إليه لرفاقه، لكنه كان يسرع متجاوزاً لهم قبل أن يستطيعوا أن يلقوا نظرة ملية عليه. كان مسروراً جداً. ولإطالة السرور، سلك الطريق الطويل إلى العمل. ضغط الناس في حافلة عابرة أنوفهم على النوافذ ليحدقوا. حين اقترب من بوابة بناء مكتبه توتر مثل ممثل على وشك أن يخطو خطوته الأولى والحاسمة عبر باب خشبة مسرح مضاء بسطوع. كان متوجهاً نحو بريق الشهرة.

دخل البوابة وأقفل دراجته في الباحة.

صاح أحدهم "هيه، تعالوا جميعاً، وانظروا إلى شارة السيد كونغ!" في مثل لمح البصر ومباشرة صار محاطاً بحشد. كان الناس يدفع بعضهم بعضاً بالمناكب ويمدون أعناقهم ليشاهدوا. كانوا ينظرون إلى شارته بذهول وحسد، وإليه باحترام جديد. كل واحد كان يصيح، مما جذب مزيداً من الناس.

"تلك شارة كبيرة الآن. من أين جلبتها؟"

"سيد كونغ أنت ملحاح حقيقي مثابر!"

قال بضحكة معتدة، مبقياً يداً على الشارة في حال حاول أي شخص أن يختطفها: طبعاً! فأنا موالٍ للرئيس ماو".

حاول بعض الناس أن يبعدوا أصابعه من الطريق كيما يستطيعوا أن

---

[1] هتاف ابتهاج أو تشجيع.

ينظروا بشكل جيد إلى الشارة؛ آخرون حاولوا أن ينظروا خلسة إلى الخلفية ليعرفوا أين صنعت.

صاح، قابضاً على الشارة "لا شيء مكتوب على الخلفية، إنها أنتجت من قبل معمل عسكري مصنف. رجاءً كفوا عن سحبها، فالدبوس صغير أكثر من المعتاد..." بدا قلقاً، لكنه في الواقع كان متهللاً. فالإثارة التي كان يسببها كانت لا نظير لها لا في المكتب فقط، بل من المرجح في المدينة كلها. إلا أن يصنع شخص ما شارة بحجم غطاء جرة، يستطيع عملاق فقط أن يحملها، ثم تذكر السيد تِشن: أين هو منتصر الأمس الآن؟

تضاعف الحشد إلى ثلاثين أو أربعين إنساناً. وكل شخص كان يثرثر على الفور. لم يكن يستطيع أن يسمع أي شيء. تسببت سترته القطنية السمكية بظهور العرق على جبينه. بدأ، غير قادر على تحمله أكثر، يشق طريقه بصعوبة خارجاً من بين الجمهور المحتشد والذي لا يحتمل، بعيداً عن الأيدي التي كانت تسحبه.

"دعوني أخرج، إنكم تسحقونني!"

ولقد دُغدغ حتى صار بلون القرنفل.

أخيراً شق طريقه بصعوبة خارجاً مثل الشعرية من آلة صنع الشعرية.

انتعش. لكنه عندها بالضبط سمع رنيناً، مثلما لو أن طبقاً معدنياً كبيراً سقط إلى الأرض. ثم سمعه يتدحرج حوله. لم يدرك ما كان الصوت إلى أن وصل واكتشف أن شارة ماو خاصته قد ذهبت.

صاح "أوه، لا! لقد سقطت شارتي!" تجمد كل أحد وبدأ هو بحثاً مسعوراً. لم تكن الشارة على الأرض أمامه، لذا خطا إلى الوراء لينفتل وينظر خلفه. أحس بشيء ما صلبٍ وزَلِقٍ تحت قدمه.

سمع امرأة تقول، قبل أن يفطن لما حدث "أوه، لا! إنك تقف على شارة عليها صورة الرئيس ماو!".

نظر إلى الأسفل برعب ورأى شارة ماو تحت عقبه. كان يجب أن يكون قادراً على رفع قدمه بسرعة، لكنها كانت جامدة مثل قطعة خشب. صار جسمه ضعيفاً وغرق ثقله إلى الرّجل المذنبة. وقف ملتصقاً بتلك البقعة، وكانت كل العيون مثبتة عليه.

كان هذا الخطأ جريمة شنيعة أوصلته إلى شفير الدمار. لا حاجة لتعداد التفاصيل هنا. يكفي أن نقول إنه شفي من هوسه بشارات ماو وصار ينظر إلى هذه المواضيع السابقة لشغفه بخوف وارتعاش. صارت كل هذه الحوادث وراءه الآن. لكن هناك سؤالاً واحداً ظل يحيره حتى اليوم. ولعل المفتاح الوحيد للإجابة عليه يكمن فيما يلي "ظاهرة طبيعية": فبإمكانك اليوم أن تسافر إلى كل الثلاثة ملايين وسبعمائة ألف وسبعة آلاف ميل مربع لبلدنا ودون أن ترى شارة واحدة لماو....

((رابليه الصيني))
و((الحسناوات الكاتبات))

■ ترجمة: نبيل أبو صعب ■
عن الفرنسية

مقدمة

تظل الصين تلك البلاد البعيدة والمثيرة والتي لا تنفك تدهش العالم سواء بثوابتها أو بمتغيراتها...

وهي بين هذه وتلك تعيش حالة من الولادة المستمرة... ومع كل ولادة ثمة الآلام الصعبة التي تسبق بهجة الحياة الجديدة وترافقها.

هنا، مقالتان:

الأولى مقابلة أجرتها مجلة نوفيل اوبسرفاتور بتاريخ 2004/11/13 مع الكاتب الصيني مويان والذي تصفه بأنه رابليه الصيني لما احتوت عليه آراؤه من تفتح وقبول للآخر وسعة أفق...

سبق لهذا الكاتب أن نشر من بين كتبه العديدة روايتين الأولى بعنوان "بلاد الكحول" والثانية بعنوان "نهود جميلة أرداف جميلة" أثارتا الكثير من الجدل في الأوساط الأدبية الصينية... وقد ترجمت معظم أعماله إلى اللغة الفرنسية...

ولد مويان في غاومي عام 1955 في أسرة من الفلاحين الفقراء، وانخرط في السلك العسكري منذ عام 1979 وبدأ بالكتابة عام 1981.

المقالة الثانية فهي تتحدث عن الحسناوات الكاتبات اللواتي شغلن الوسط الأدبي الصيني وأثرن حفيظة الشيوخ من نقاد وسياسيين. وهن يتمتعن اليوم بشعبية

واسعة يعود جزء منها لكيفية تعامل الرقابة مع أعمالهن.

نشرت هذه المقالة في مجلة لوبوان بتاريخ 2004/3/25.

***

إنه رابليه الصيني

*** ثمة من يتحدث عن أفول الأدب الصيني. ما هو شعورك حيال ذلك؟**

** لا أوافق مطلقاً على مثل هذا القول، بل أعتقد وعلى العكس من ذلك أننا دخلنا في عصر خصب جداً.. واليوم يمكن أن يتحقق ذلك الحلم القديم للمثقف: حلم "المئة زهرة". فقد تحررنا أخيراً من القيود، ومن القوالب المفروضة من فوق. وتفجرت الحياة الأدبية، بالمعنى الحرفي للكلمة، بتنوع زاخر. وثمة تعايش بين عدة أجيال من الكتّاب: من السبعينيين إلى اليافعين، وبين أعمال متنوعة جداً سواء من حيث المضمون أو من حيث الشكل.

*** لكن مع ذلك فإن الروايات السهلة والفضائحية، وعلى وجه الخصوص، روايات "الحسناوات الكاتبات"[1] هي التي تحوز أكبر قسط من النجاح. فهل تعدّ هذا من الأدب في شيء؟**

** بالتأكيد. فهي أنواع جديدة، لها أنظمتها ولها قيمتها، ما قولك بحديقة لا يتفتح فيها إلا نوع واحد من الأزهار؟ لقد تمنيت طويلاً تضاعف الأنواع الأدبية، وأنا الآن في غاية الغبطة لرؤية ذلك يتحقق. وأنا أتلقى في أحيان كثيرة مخطوطات كتبها طلبة من المرحلة الثانوية. وقد قدمت منذ فترة بعض المساعدة لفتى من "هينان" كان قد أرسل لي رواية فروسية طويلة، مشغولة بإتقان كبير، تجري أحداثها في عصر أسرة "مينغ". والآن حين تفكر الصين بدولة القانون فإن الوعي ذاته ينبغي أن يسود في عالم الأدب: وطالما ظل الأديب في الإطار القانوني فإنه يحق له أن يكتب ما يشاء كيفما يشاء، ينبغي أن يترك الأدباء وشأنهم!

*** يؤخذ عليهم بعض من غياب العمق، وجانب من المجانية.**

** إن عالمهم مختلف عن عالمنا. جيلي، جيل الكتّاب الذين ولدوا في سنوات

---

(1) - راجع المقالة اللاحقة.

1950 مثل . "سي تونغ"، "يوهوا"، "وانغ أيني"... . يحافظ على صلة حميمة بالناس البسطاء، بالفلاحين. ونحن نذكر مآسي الثورة الثقافية، والاضطهاد، والجوع والعزلة التي طبعت سنوات الستينات. أما شباب اليوم، فإنهم ينتمون إلى عالم من الفنطازيا المستعار من آخرين. إنه عالم الخيال الجامح بشكل ما. يستمدون مادتهم الأولية من القصص المرسومة ومن كتاب رسوم المانغا . Mangas .[1]والرسوم المتحركة . وبالطبع فليس في هذا أي شيء من الواقعية. ونحن لن نجد فيه أية نظرة على المجتمع ولا أية أشياء شديدة الأهمية في نظرنا مثل المصير أو الألم. لكن ينبغي قبول واقع أن كل جيل يعبّر عن أصالته وأنه يكيّف اللغة الأدبية كما يفعل هؤلاء الشبان باستعاراتهم الغريبة المستمدة من اللغة المعلوماتية.

*** لقد تمدن الأدب كثيراً لدرجة أن الفلاحين . ثلثي سكان الصين . اختفوا من المشهد الأدبي. ألا تجد هذا مؤسفاً؟**

** هذا صحيح، ليس ثمة كتاب شباب يهتمون بالفلاحين، فالشباب الذين ينجحون في مغادرة الأرض يفضلون الكتابة عن حياتهم الجديدة، وليس عن حياتهم القديمة. لكني واثق من أنه سرعان ما سيأتي من بينهم من سيستوحون أعمالهم من العالم الريفي. ذلك أنه عالم شديد الغنى. وبانتظار ذلك، فإن جيلي ما زال هنا، وهو يعرف هذا العالم بحميمية شديدة. أهلي، أخوتي، ما زالوا يعيشون في قرية "غاومي"، ولدي مشروع رواية ضخمة حول ظروف الفلاحين وأوضاعهم منذ التحرير عام 1949. أما الآن، فهناك ما يشغل البال حقاً إذ أن الشقة تتباعد ما بين الفقراء والأغنياء. بالطبع، طرأ تحسن عظيم خلال خمسة وعشرين عاماً على مستوى الحياة عموماً. لكن توجد ثروات ضخمة ذات مصدر غير مشروع، وهذا يولّد الحقد والغضب وعدم الاستقامة. إن فساد السلطة يؤثر على كل المجتمع. وقد انطلقت الثورة منذ بضع عشرات السنين لأن الصين كانت تعاني من مثل هذه المصائب ذاتها... ولعلها سخرية التاريخ القاسية... ومهما يكن الأمر فإني أشعر في هذا الوقت بمزيد من الرغبة للكتابة عن أزمة الأجيال في المدينة، وعن اختلاف القيم، وعن العلاقات العاطفية بين "الخمسينيين" و"العشرينيات".

*** حينما حصل "غاو كسينغ جيان" على جائزة "نوبل" كنتَ واحداً من الكتّاب الصينيين النادرين الذين حيّوه. لماذا هذا الحماس الفاتر؟**

[1] - *"الرسوم الوفيرة" مجموعة رسوم لـ هوكوساي تقع في 13 مجلداً، رسمها ما بين 1814 - 1848. وهي موسوعة مصورة.*

** هذا إنساني جداً، فزامر الحي لا يطرب، والعبقرية هي دائماً في مكان آخر، أليس كذلك. إن المرء يعرف جاره معرفة وثيقة بحيث لا يجده عظيماً... لقد قيل أن "غاو" اقتبس كثيراً من موضوعات مسرحه الطليعي والذي جعله شهيراً في أوربا في سنوات 1980، من الكتّاب الأجانب الذين كان بمقدوره الوصول إلى أعمالهم بفضل معرفته باللغة الفرنسية في وقت لم تكن هذه الأعمال قد تُرجمت فيه إلى الصينية بعد. وهذا صحيح نوعاً ما. لكن هذا لا يمنع أنه أدخل المسرح الطليعي إلى "الصين". كما أنه ألفّ كتاباً صغيراً حول الأساليب الأدبية المعاصرة أفادنا جميعاً إفادة جمة في أعمالنا الأدبية. بالنسبة لي، فإن "غاو" هو "بروميثيوس" آخر سرق النار وأحضرها لنا، وعلى أية حال، فإنه ليس على كل أولئك الذين يشعرون بأنهم أكثر جدارة واستحقاقاً للحصول على جائزة نوبل إلا أن يكتبوا أعمالاً رائعة لكي نتحدث عنهم مجدداً بعد عشرين عاماً.

***

الحسناوات الكاتبات

بقلم: كارولين بيول

أهي نزجة عابرة؟ أم ظاهرة أدبية؟ ذلك أن مجموعة صغيرة من شابات صينيات، حسناوات ومثيرات، انخرطن في الكتابة. وعلى الرغم من أنهن لا يعرفن بعضهن بعضاً، فإنه يتحدثن عن حياتهن اليومية في المدن الصينية الكبيرة حالياً، وعن عواطفهن وعن عشاقهن، وعن لذاتهن. الأمر الذي يمكن اعتباره ثورة صغيرة في بلاد الانفعالات المموهة. فقد أصبحت كتبهن المترجمة إلى اللغات الأجنبية من الكتب الرائجة في الخارج، أما في الصين، فإنها تنتشر وبعشرات آلاف النسخ بطرق سرية. فقد تمّ منع تداولها بعد أن حكُم عليها بأنها "غير لائقة أخلاقياً".

ذلك أن Les Meinu Zuojia ويعني الاسم حرفياً "الحسناوات الكاتبات" انتهكن كل ممنوعات التراث القديم والطهرانية الشيوعية. يكفي أنهن جرؤن على الكتابة. وهو امتياز نادر جداً في هذا المجتمع الذي تهدهده روايات عاطفية كبيرة مثل "الحلم في الجناح الأحمر"، "جناح الفوانيا" وغيرها، التي كتبها رجال... صحيح أن سنوات الشيوعية سمحت لبعض النساء الكاتبات بالتعبير عن أنفسهن. فوصفن

مشاهد من الحياة في بدايات الانفتاح والإصلاحات، لكن لم يكن وارداً الدخول في تفاصيل هذا القدر من الحميمية.

تعتبر "سيلفي جنتي"، وهي عالمة بالشؤون الصينية تقيم منذ أكثر من خمسة عشر عاماً في بكين، وترجمت إلى الفرنسية رواية: "السكاكر الصينية" لمؤلفتها "ميان ميان"، تعتبر أن "الحسناوات الكاتبات" قمن بإدخال الأدب الصيني إلى طوره الحديث". وقد سبق لرجل أن اقتحم هذا الباب، في بداية سنوات الثمانينات، هو "كسوكسينغ" والذي عرض في كتابه: "السلطعون ذو النظارتين"، ولأول مرة في الصين، حزمة الأحاسيس الممنوعة. بيد أنه لم يكتب سوى كتاب واحد، كما لم يقتف أحد أثره خلال أكثر من اثني عشر عاماً. أما "وانغ شو"، ذو الشعبية الكبيرة في بداية التسعينيات فقد كتب عن عالم آخر، هو عالم الزعران، مستخدماً بصورة متواترة اللغة الخاصة بهم.

أما "الحسناوات الكاتبات" فإنهن يتحدثن عن نمط حياة هذا الجيل الشاب من سكان المدن، ذي النزعة الفردية، الذي لا يهتم بالسياسة، وإنما يمتلك هذا الاندفاع للعيش والتجريب. صحيح أنه لا يمكن اعتبار كتاباتهن من الأدب الرفيع دائماً بيد أن وصفهن لحياة الشبيبة المعاصرة المترفة له قيمة الوثيقة تقريباً.

لقد شدَّ اهتمام النقاد كتاب "طفلة شانغهاي" الذي نشر في أيلول من عام 1999، وفيه تروي "ويهوي"، المولودة عام 1973، قصة حياتها في "شانغهاي" التسعينيات. "كوكو" امرأة شابة، مطلقة، تحار بين قلبين: قلب "تيان تيان" وهو رسام رقيق لكنه عِنّين، وقلب "مارك" العشيق الألماني. وكان قد صدر من الكتاب أكثر من مئة وعشرة آلاف نسخة، دون حسبان النسخ المصورة، حينما صدر قرار بمنعه. "إنه عمل ذو مستوى منحط، وفوق ذلك، فهو مليء بمقاطع مُخلة بالحياء، ويروّج للأفكار العدمية لمفهوم من الحياة المبتذلة والمنحطة" كما جاء في تعليق النقد الرسمي. وقد نشطّت الرقابة بقرارها هذا من المبيعات السرية لهذا الكتاب.

من جهتها، نشرت مجلة أدبية محترمة جداً، قصة "السكاكر الصينية" لمؤلفتها "ميان ميان". وتصف هذه الفتاة الشنغهاية، المولودة عام 1970، عبر سيرة ذاتية، هبوط طالبة في المرحلة الثانوية إلى الجحيم، بعد انتحار صديقتها في الصف وعشقها لموسيقي يتعاطى المخدرات ويجرها إلى عالم المخدرات هذا. تصف "ميان ميان" مدينة "شنيزهن" في الثمانينات، إنها نوع من ماخور تجريبي كبير للرأسمالية. ومُنعت هذه القصة "السكاكر الصينية" أيضاً في ربيع عام 2000، وأثيرت حرب

كلامية حينما اتهمت "ميان ميان" "ويهوي" بأنها انتحلت إحدى قصصها السابقة.

تعيش "ويهوي" الآن في "الولايات المتحدة" بينما لا تزال "ميان ميان" تعيش في "شانغهاي": "حياتي هنا، ثم إن "شانغهاي" تثير الأحلام وأستطيع العمل على ذلك" تقول المرأة الشابة التي تستقبل زوّارها بخفين ونظارتين سوداوين، في شقتها الواقعة في الحي الإنكليزي القديم، والمزينة بملصقات لـ "مارلين مونرو". في كل مساء، إما أن تخرج أو تقيم حفلات استقبال في بيتها، مرتدية ثياباً سوداء بالكامل، "يأتي الناس في الساعة الثانية صباحاً، فنتحدث طيلة الليل". كما أنشأت موقعاً على "الإنترنت"، تخبرنا صفحة الاستقبال فيه "أنت منهك بيد أن جارك منهك أكثر أيضاً". وتمزح "ميان ميان": "أجيب على الرسائل حينما يتاح لي الوقت". ستتمحور روايتها القادمة حول العلاقات الصعبة بين الرجال والنساء، وكذلك حول "شانغهاي" و"باريس"، وحول الـ Ecstasy المخدر الذي يفتك في الأوساط المهتمة من "الجيل الكيميائي".

ثمة حسناء شانغاهية أخرى هي: "زهاو بو" تصف في كتابها "بسكويت مشكّل" العلاقات بين امرأة مطلقة ترفض حياة عادية وتبحث عن الحب مع رجل غاو ومع فتاة تجد تسليتها في التحريض على الخيانة. وتوزع المؤلفة كتابها مصحوباً بقرص (CD) يحتوي على موسيقى ويضم مقتطفات من تقنياتها المفضلة. يمكن أن نذكر أيضاً الكاتبات: "زهو ويتينغ" من مدينة "سيزهو" و"وي وي" من "نانكين"، و"زهو جيرو" من "شانغزهو" وكذلك "ليلباي"، في "بكين"، و"جيودان" و"جيزي".

وهذه الأخيرة تتابع حالياً دراسة السينما في "باريس" ضمن مشروعها بتقديم أعمالها القادمة على الشاشة. وقد اختطت "جيزي" مساراً طريفاً. فتحت إهاب فتاة حسنة السلوك رصينة نشرت كتاباً هرطقياً يصف علاقة عاطفية بين امرأتين. وكان والداها يظنان أنها تعمل مديرة دعاية في شركة أجنبية إذ ظلت تدعي أنها تذهب إلى العمل كل صباح ولمدة عامين في حين أنها كانت تتردد على غرفة صغيرة مستأجرة في إحدى العمارات، لكي تكتب.... وأخيراً فإن الحسناء "زهو بينغ" وهي الأكثر تقليدية في تقنية التعبير، تكتب الشعر وترسم، وقد اختارت طريق الجنسية. تبحث في كتابها "زهرة الفردوس"، وقد فُتنت بالموت، عن عاشق تائه كانت عناقاته رائعة. أما الأزهار التي ترسمها والتي ترافق كتاباتها فتفوح بعطور غامضة جداً. وتكتب "زهو بينغ": "أنا الوحيدة التي أعرف أن الجسد الأكثر حرية ينطوي على الفردوس الأكثر هدوءاً"....

الأدب الصيني نجم مَجَرَّتَيْ [1]

"غوتنبرغ" "والسبرانيت"

■ ترجمة وإعداد: هدى أنتيبا■
عن الفرنسية

يمخر الأدب الصيني الحديث عباب التاريخ والنهضة الثقافية الاقتصادية والتقلبات الاجتماعية في تلك البقعة من العالم.. لتغطي فضاءاته المواضيع المحلية والدولية المرتحلة من الميثولوجيا والأساطير إلى الواقع المعيشي... أما أبعاده الإبداعية فهي تراثية حيناً ومعاصرة حيناً آخر ومستقبلية أحياناً... وإذا التراث يطفو على سطح الثقافة الصينية من جديد فيعيد إلى الذاكرة ما طوته يد النسيان... وإذا دور النشر الصينية تفرد لأدبها المهاجر جناحاً لا تقل مكانته عن أدبها المقيم... ولتحظى الآداب الأجنبية بركن مماثل... فاللغة الصينية مطلع الألفية الثالثة في مقدمة اللغات الأكثر تداولاً على شبكة "الإنترنت"... أليست المرشحة الوحيدة لدك أركان الثقافة الأنغلو ساكسونية على الصعيد العالمي؟.. ألا يتجاوز عدد القراء الصينيين الأربعمائة مليون قارئ في الصين وحدها دون الأخذ بعين الاعتبار أنسابهم في "هونغ كونغ" "وتاي وان" وأولاد عمومتهم الموزعين في دول الجوار؟! ألا يفوق هذا الرقم عدد سكان كل من الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة مجتمعتين؟!... لكن ما جديد الأدب الصيني؟... وما دور التراث في الحفاظ على اللغة والفلسفة والملحمة الشعرية والرواية وآداب الأطفال... حية في الصين اليوم؟.....

---

[1] من الصحف الفرنسية.

وماذا بالنسبة لعملية ليّ الأذرع بين حراس الأدب الكلاسيكي وبين التيارات الأكثر حداثة؟

"السبرانيت": أدب رقمي!!...

ما أن نشر "اكزينغ يوسن" . وهو دكتور في المعلوماتية عام 1997 روايته: "العيش كمخلوق بشري" فوق شبكة "الإنترنت" حتى أصبح نجم "الأدب السبراني الصيني كما يدعون cyberlittérature ويشغل "يوسن" منصب أستاذ جامعة علوم الاتصالات في العاصمة "بكين"... جل اهتمامه تعقب النثر الأدبي على مواقع شبكة الشبكات التايوانية والهونغ كونغية... وسرعان ما تم نسخ هذه الرواية فوق أسطوانات وأقراص مدمجة وقد أغفل اسم صاحبها في زحمة منشورات الفضاءات السيرانية.... ثم نشرتها مجلة "تيانيا" الأدبية الواسعة التوزيع وتصدر في مقاطعة "هينان" الصينية... وما أن كشف "أكزينغ يوسن" هذه العملية حتى طالب المجلة بحقوقه فكان له ما أراد لتعيد "تيانيا" قبل أيام معدودة طبع "العيش كمخلوق بشري" على نفقتها الخاصة وبين دفتي كتاب مشيرة إلى خطأ إغفال اسم الروائي الصيني المذكور... ويعتبر "يوسن" وجهاً من وجوه تيار أدبي يسعى اليوم لتغيير المفاهيم الأدبية الكلاسيكية في الصين....

فقد ظهر خلال أقل من عقد جيل من الروائيين اعتمد "السيرانية في الأدب" لنشر روائعه أمثال "لي أكزوهوان" . "ونانغ كيشن"... و"أنتابابي"... و"جين هزاي"... "ومورنغ اكزوكون"... ونشر هذا الأخير العام الماضي رواية عنوانها "شانغ دوانسيني هذا المساء".. وتشكل ظاهرة جديدة في "أدب السبرانيت".. المحمول على شبكة الشبكات... وتسعى منذئذٍ عشرات الروايات لاقتباس أسلوب "اكزوكون" الأدبي والسير على خطاه... ومن أبرز تلك العناوين: "فقاعات هانغ زو"... و"قمامة جنيان".. "وفي شين زين" و"الغرق عشقاً"... وتندرج تلك الأعمال ضمن قائمة: "تعقيدات المدينة" حيث وصل عسر الحضارة إلى أوجه من خلال تحدي البرجوازية الصينية الصغيرة الصاعدة لعبثية المدينة الغربية وتكنولوجيا اللامعقول... وعلى غرار "يوسن" هاهي الأديبة والصحفية "موزيمي" تشعل الحرائق فوق شبكة "الإنترنت"... وتكتب "مو" الافتتاحية في مجلة "كانتون" إلى جانب تحريرها لمقالات

نقدية أدبية في عدة صحف محلية.. نشرت "زيمي" مقتطفات من مغامراتها العاطفية في موقع "بلوغ" أي "اليوميات الخاصة" مما أدى إلى هجوم الصحافة عليها لتقدم على إغلاقه أواخر العام الماضي... وذلك رغم الحرية التي تتمتع بها تلك المواقع في الصين.. ولأن "الويب" ملجأ عشرات الأعمال التي ترفض دور النشر الصينية طباعتها لأسباب مادية أحياناً أو لاعتبارات أخرى كأن يكون المؤلف باكورة أعمال كاتب مغمور أو ناشئ... وجدت زميلة "مو" الأديبة الشابة "شون شو" ذراعي الإنترنت مفتوحة أمام روايتيها "بي جين واوا" و"تسلية الألعاب".. وليعلق الأديب السبراني "لي اكزون هوان" على هذه الموجة قائلاً: "أدبهم ينتمي لعالم ألعاب الفيديو"... فالنجاح الذي يحققه هؤلاء على الإنترنت مفتاح دخولهم إلى دور النشر المطبوعة لأن "الشبكة" مؤشر على رواج العمل في أسواق "أون لاين"... ألم يتخذ هذا النجاح كذريعة للربح التجاري السريع عند حفنة من تلك الدور؟ ألا تجتذب الدعاية للرواية بتلك الكلمات "إنه العمل الأدبي الأكثر سخونة اليوم على الإنترنت" جماهير القراء الشباب؟! فالأساليب الكلاسيكية المعتمدة سابقاً للحصول على الاعتراف والمجد الأدبي تمر عبر المجلات المتخصصة في هذا المجال مما يعني تقليص عدد الأدباء الذين يحظون بهذا الشرف... لذا كان دور المواقع الأدبية على شبكة الشبكة مصيرياً بالنسبة للأقلام الشابة والواعدة... فهاهو موقع "رونغ هواكزيا". وترجمته "تحت ظلال البانيان" والبانيان = شجرة تين هندية ذات جذور متشبعة وبارزة فوق سطح الأرض .يقوم بدور محوري على صعيد إطلاق الأسماء الجديدة في سماء الأدب الصيني المعاصر... وليغدو الجسر المعلق بين عالمين الأدب الكلاسيكي والأدب الرقمي الحديث... أسس هذا الموقع "ويليام زهو" عام 1997 وهو أديب صيني هاجر إلى بلاد العم سام قبل أن يعود إلى وطنه الأم ويقيم في "شنغهاي" = الملقبة باريس الشرق الأقصى... ويستقبل الموقع أكثر من مئة ألف مشترك... عرف شهرة طبقت الآفاق يوم نشره "مذكرات ميت": الرواية التي كتبها "لويوكينغ"... وتسرد معاناة شاب مصاب بالسرطان يدون مذكراته... كذلك الأمر بالنسبة لـ "معركتي الأخيرة" لصاحبها "لي جيا مينغ"... وتسلط الأضواء على يوميات رجل يكتشف نقص المناعة وقد بدأ يزحف إلى دمه... ويؤكد "رونغ هواكزيا" على أن الموقع المذكور يدشن شهرياً أحدث فضاءات التواصل بين أجيال الكتاب... ويقيم هذا الموقع مسابقات أدبية يشارك فيها أدباء متوجون أمثال: "وانغ شوو" "وهوهوا"

و"جيابيغ وا" بصفة لجنة تحكيم.. ليطلق "شووا" الكاتب المتمرد في أدب الثمانينيات من القرن الماضي كلمته: "الأدب السيراني مستقبل الآداب العالمية"... فالتجربة التي يخوضها الجيل الشاب من الكتاب هي التي ستنجب عمالقة الأدب الصيني غداً... وهاهو موقع "رونغ هواكزيا" يعقد صفقة شراكة مع أشهر دور النشر في القارة العجوز وهي دار "بيرتلسمان" الألمانية ليبدأ الثنائي اختيار أبرز الأعمال الأدبية المسجلة فوق هذا الموقع الصيني ليتم نشرها ضمن دفتي الكتب الصادرة باللغة الألمانية ومن ثم ترجمتها إلى اللغات الأوروبية الأخرى... على غرار روائع "زيمي" و"اكزيكون" "وجيا مينتغ"....

"أنطولوجيا" الأدب الصيني...

يشبه المستشرقون الأدب الصيني بغابة عذراء يتوقف المثقفون الغربيون عند أطرافها دون أن يجرؤ أشجعهم على اقتحام أعماقها... ألم تتمحور معظم الدراسات والأبحاث حول مختارات من الشعر والمسرح والقص الغرائبي.. الصيني ليس إلا؟.. ليطل رأس الجبل الجليدي للأدب الصيني إلى النور مع بقاء جسمه تحت سطح مياهه البيضاء... فمن قرأ دعابة "مينسيوس" ونكات "كونفيشيوس" المثيرة للضحك؟! وأي قارئ يعرف روايات السلالة المندوشية أو قصائد "التانغ" و"السونغ" أو مسرحيات "اليوان" أو قصص "المينتغ" الصينية؟!.. فاختيار مقاطع من تلك الأعمال لا يعني معرفة البيئة التي ولدت فيها أو أسماء أصحابها أو... ثم لماذا يفضل الصينيون رواية "زيمي" على سواها؟ وكيف يختار المترجمون القصيدة الفلانية من الديوان دون سواها؟! وهل وراء انتقاء قصيدة "لي باي" الوطنية . يحفظها الأطفال عن ظهر قلب منذ المرحلة الابتدائية . وقصة القرد "سون ووكونغ" كما ترويها" ملحمة "الرحلة إلى الغرب" . أي هدف تربوي أو تعليمي أو؟!...

ثم إن لغة "وانغ اكزياوبو" في روايته "العصر الذهبي" وتقترب من "ألبير تو مورافيا" . تختلف كلياً عن لغة مواطنيه الروائية "جيانغ زيدان" في رائعتها "لمن يرتفع دخان أشجار التوت" والمشابهة "لإسماعيل كندورة"... وتصف "العصر الذهبي" الريف الصيني خلال سنوات الثورة الثقافية التي عرفتها البلاد أيام الزعيم الراحل "ماوتسي تونغ"... أما "اكزواكزينغ" فيعقد مقارنة . خلال رحلة بطله من الصين إلى

الدول المجاورة . بين تراث وطنه وما شاهده في الخارج في روايته:

"كل ما تبقى سيكون ملكاً لك"... ومن أبرز الأسماء التي يرد ذكرها في أنتولوجيات الأدب الصيني المعاصر الصادرة باللغات العربية والفرنسية والإنكليزية... هناك عدد من الشعراء الأحياء أمثال "بي دو" و"شين لي" و"ديوديو" و"بينغ كوان" و"يانغ ليان"... والفلاسفة وأهمهم: "لواكزون" الملقب "فولتير" الصين و"تشوانغ تسو" و"ينيغ تشين"... والروائيين على غرار "مويان" و"بي فيو" و"غوو اكزياو" و"وانغ مينغ" و"فينغ جيكاي" و"لو وينغ فو" و"هان شاونغ" و"زهانغ وي" و"مويان" و"يوهوا" و"لي روي"... ومن أهم الخصائص التي تتميز بها كتابات الأدباء الشباب استعراض المادة المتخيلة في رواياتهم لزمن وفضاء متعدد الأقطاب... فأحداث رواية "أوبرا القمر" للأديب "بي في يو" تدور في الصين المعاصرة خلال مرحلتين متقاربتين نسبياً (نصف قرن)... كذلك الأمر بالنسبة لرواية "مدينة لبير" للكاتب "غوو اكزيالو" رغم أن الأماكن التي يرتحل إليها العمل الثاني متباعدة . قرابة 1800 كم . فيما بينها... ويرى النقاد أن التركيز على الزمان والمكان بهذا الشكل الاعتباطي طارئ على الرواية الصينية التي اشتهرت بفرسكاتها التاريخية... فرائعة "يوهوا" وترجمت إلى عشرات اللغات الأجنبية وعنوانها: "أن نعيش" تصف محطات مفصلية في تاريخ الصين القديم لكونها ترسم طباع شخصيات حية لعبت دوراً بارزاً في الحياة الاجتماعية دون التوقف ملياً عند الحبكة الدرامية... ولأن اللغة الصينية لا تولي اهتماماً كبيراً للمتوالية الزمنية في قواعدها (على سبيل المثال: الماضي البعيد والفعل المبني للمجهول والخ...) تأقلمت مع قص وسرد كلاسيكي تأريخي... لتسهم في عملية قياس الأفعال المرافقة للأحداث بتوقيتها الثابت أي الزمن الحاضر.... وإذا ما استخدمت الأعمال الأكثر معاصرة الزمن المتحول فإنها تجيره لاستكشاف العوامل النفسية التي تحرك الشخصيات أولاً وأخيراً..."فأبطال الرواية الصينية المعاصرة تقول "آني كورين" . أستاذة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية في المركز الوطني للبحث العلمي في باريس المتخصصة في الآداب الصينية ولغتها . تتغير مسيرة حياتهم بين ليلة وضحاها... من هنا انطلقت التواترات والأزمات النفسية وأعمال العنف التي تسكنهم وتحرك "أفعالهم" ... تطور المدينة على سبيل المثال . يحرض القلق ويثير المشاعر المتضاربة لإنسان ملتزم بإيقاع مدينة "شنغهاي" أو

"بكين" وآخر متمرد على قوانينها المتحولة... فهاهو "اكزي يانغ" يضرب في روايته: "حبيبة الحلاق" لعام 2003على وتر عصر السرعة والاستهلاك الذي اجتاح المدن الصينية منذ مطلع الألفية الجديدة خلال معايشة أبطاله لنمط الحياة الغربية... لكن تمجيد الأرياف والحياة الرعوية لا تزال تستهوي العديد من الأقلام على غرار الروائية "شي زيجيان" في رائعتها "سوار الجاد" لعام 2002 التي تعيد للقيم الريفية مكانتها في سماء الأدب... هذا إلى جانب نزول الرواية البوليسية إلى الساح لتحتل مرتبة متقدمة في عالم الأدب ولتغدو الأكثر شعبية بين أنواعه المتعددة... ويصور "زانغ يو" ببراعة الدوامة التي يقع فيها بطل روايته: "الشرطي" عندما يحقق في أوساط المافيا عن عملية تهريب المخدرات من "تاي وان" إلى كبرى المدن الصينية... وسرعان ما يساق هذا الإنسان الأمين النزيه إلى عالم الأنفاق حيث الجريمة المنظمة وأصابع الاستخبارات الأجنبية توجج نار الفتن وتجارة الأطفال والأعضاء و... ولتسجل تلك الأعمال الأدبية الحديثة الإصدار مستجدات على صعيد الشكل والمضمون معاً... إذ اقتبست شريحة واسعة من تلك الروايات مفردات من اللغة المحكية في شارع مدن ناطحات السحاب كشنغهاي إضافة لإدخال عدد من الروائين العامية إلى حوار الشخصيات "والأرغة" المرتبطة بدنيا اللصوصية والجريمة.. كذلك طعّم عدد آخر نصوصه بكلمات ذات جذور إنكليزية حور الصينيون لفظها لتغدو لفظة جديدة مدمجة بين لهجتين... كذلك التزمت حفنة من الأدباء بإحياء اللهجات المحكية في الأرياف على غرار "هان شاوغونغ" الذي ضمّن أعماله المفردات التي يستخدمها فلاحو مقاطعة "هونان" حيث يعيش هذا الروائي حتى اليوم... ويقول "لي روبي" في كتابه "الأدب الصيني ولغته المعاصرة" صدر عام 2001: "إن اللغة الأدبية أشبه بجهاز كشف الحقائق... تقيس نبض هوية ثقافة أو أدب أي شعب"... أليست الأدوات الأدبية لغات تعتمد أثناء تدوين القصيدة أو المسرحية أو؟! وهي محور العمل الإبداعي في "هونغ كونغ" و"تاي وان" و.. حين خضعت المقاطعتان للاستعمار البريطاني خلال قرن ونصف (حتى عام 1997 بالنسبة لـ (هونغ كونغ).....

ولا تزال "تاي وان" تحت رحمة اللغة الإنكليزية بلهجتها الأنغلو . أمريكية كما يفيد "يوفانغ" الأديب الصيني المتخصص في العلوم اللغوية.. ففي هاتين المقاطعتين "الهونغ كونغية" و"التايوانية" حيث يسيطر عالم المال والأعمال التجارية على نبض

الشارع وحيث يجد المثقفون صعوبة في شق طريقهم نحو المجد أو حتى الاعتراف بمكانتهم . ظهر أدب يجمع بين الهم الشعبي وتطلعات الأوساط المصرفية الحاكمة الفعلية للجزيرتين....

أبرز أسماء هذا التيار : "لونغ بينغ كوان". وتعكس رواياته التأثيرات الأجنبية في حياة المجتمع التاي واني بشكل خاص... وكيفية تغلغل مفردات يابانية إلى اللغة الصينية لهذه الجزيرة التي احتلتها جيوش طوكيو مطلع القرن العشرين وصولاً إلى العلاقات الوثيقة بين الولايات المتحدة الأمريكية وحكام "تاي بي" اليوم....

وتتباين لغة روايات كل من "هوانغ مينغ" المرتبطة بهموم الفقراء . وتترجم معاناتهم بتعابير مشتقة من حياتهم اليومية . وزميله "وانغ وينغ اكزين" في روايته "خصومة عائلية" لعام 1999 والمتمسكة بالتقاليد الصينية العريقة... كذلك الأمر بالنسبة للأديبة "لي آنغ" في روايتها "حديقة الضياع" صدرت عام 2003 وزميلها "تيين ياكي" في روايته "إلى أخوتي في القرية" لعام 2001 ويستخدم كل منهما لغة الريف حيناً ودروب المدينة الضيقة حيناً آخر....

صاحب النوبل...

لأنه الوجه المعروف في المدرسة الواقعية للأدب الصيني المهاجر ولأنه حصد جائزة نوبل في الآداب عام 2000 تتوقف هذه المقالة عند "جاو اكزينغ جيان"" أوغاو كسينغ جيان"... حصل "جاو" على الجنسية الفرنسية عام 1998 رغم أنه لا يزال يكتب وينشر بلغته الأم الصينية. ويعتبر النموذج الشامل لأدباء لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة... فإلى جانب كونه روائياً ودراماتورجيا وممارسته الفن التشكيلي (الرسم) يحترف "جاو" الإخراج المسرحي والنقد الأدبي وأدب المراسلات والرحلات... وحين يسأله الصحفيون لماذا لا يكتب باللغة الفرنسية؟ يجيب "اكزينغ جيان": "أنا كاتب خارج الحدود.. ليس مهماً من أين جئنا أو إلى أين سنرحل... فالوضع الشخصي اليوم مرتبط إلى حد ما بالعولمة الهوجاء التي اجتاحت هذا العصر لتجعل الفن يخضع لمعطيات السوق... أما الأدب فهو مرفأ للحرية الفكرية ويمثل آخر خط الدفاع عن الكرامة الإنسانية"....

وهاهو ينشر أواخر العام الماضي كتابين صدر كل منهما عن دار "السوي"

ترجمهما إلى اللغة الفرنسية "نويل" و"ليليان دوكري"... وعنوانهما: "محقق الموت" و"شهادات الأدب"... ويحتوي الأول ثلاث مسرحيات تهاجم كل منها عمليات الاتجار بالفن والفنانين وكيفية تحول حفنة من المتاحف إلى سجن للأعمال الإبداعية.... ألا ينضوي النتاج التشكيلي تحت عنوان: "فن القمامة" بعد أن أصبحت لوحات ومنحوتات عدد من الرسامين والنحاتين لا ذائقة لها تعتمد على جمع الخردة وزجها في العمل الفني؟! ليخضع هؤلاء "للموضة السائدة" في أروقة مصممي الأزياء أو للهرطقات السياسية التي تتناقلها صحافة القمامة!!.. ويشير "جاواكزينغ جيان" في مقدمة كتابيه إلى "أوجين ايونسكو" الدراماتورجي الروماني الذي انتقل إلى فرنسا ليغدو أبرز وجوه المسرح الطليعي في فرنسا بعيد الحرب العالمية الثانية وحتى منتصف سبعينيات القرن العشرين.. ففي "وحيد القرن" نقد صريح وواضح لنزعة اللامعقول التي غرق في لجاها المجتمع الأوروبي آنذاك...

وهو ما يصيب ضفتي الأطلسي اليوم وقد اجتاحتهما العولمة بأعاصيرها وتكاد تبتلع الأخضر واليابس حسبما أفاد "جاو".....

وتشيد ثالث مسرحيات "جوا" وعنوانها "الثلج في آب" وتحمل الثانية عنوان "الضفة الأخرى" . يسادس بطريرك الفلسفة البوذية "هوينغ" ويصفه "اكزينغ جيان" بأنه أكثر حداثة من السيد المسيح ذلك لأنه لم يطالب بالخلاص وانقاذ العالم على غرار المسيح ولم يحاول التضحية بشخصه وشبابه... ولم يدشن طقوسية خاصة به ولم يمنح مفاتيح السماء لأحد بل اكتفى بدعوة الناس للاعتماد على أنفسهم ليس إلا... ويتضمن مؤلف "جيان" وعنوانه "الأدب كشاهد" مطبوعات 2004 دار "كاراكتير" الفرنسية . مجموعة من المقالات النقدية والكلمة التي ألقاها "اكزينغ جيان" في استوكهولم أمام الأكاديمية السويدية ويدافع فيها "جوا" عن "الفرد الذي يجب أن يكون أولاً شاهداً على الطبيعة الإنسانية لا يطيع إلا الواقع الملح وهذا التوق هو مطلبه الأخلاقي الأسمى... وعليه أن يحرص على التعبير باسم هذا المطلب... فالأدب لا قيمة له إلا عندما يسمع صوت الفرد...

يستشهد "جوا" بعبارة "ديكارت": "أنا أعبّر إذن أنا موجود"... ويروّج "اكزينغ جيان" لاستقلال الفكر حين يعمل على تربية الشك الضروري للإبداع الأدبي.. وتترجم هذه النزعة التحدي الذي يطلقه المبدع في وجه المجتمع... ويتابع "جوا" في

مقابلة له مع ملحق "اللموند" الخاص بالأداب الصينية قائلاً: "أنا لا أنتمي لأية مدرسة رغم أنه عام 1980 لقبني النقاد بالأديب الحداثي إثر نشري أربع روايات تسلط الأضواء على المجتمع الصيني المعاصر... وفي عام 1983 كتبت مسرحيتين تتكلم عن اللامعقول في الحياة وعن المجتمع الاستهلاكي في الغرب... فاتهمت بالعبث ثم نقلني النقاد ثانية عام 1985 إلى صفوف الأدباء الباحثين عن جذورهم.. وفي عام 1990 أصبحت الكاتب المتمرد...ولازلت أعتقد أن الأدب هو وسيلة لإنقاذ الذات رغم أني لم أتمكن من تغيير تفكيري ومنهجيتي في الكتابة: فكيف أستطيع الإدعاء بأني سأتمكن من تغيير الآخر؟!....

الفلسفة بين النسقية والمنبرية

اعتمدت الفلسفة الصينية على امتداد القرن العشرين سياسة توفيقية بين تيار تمسك بالتراث وآخر انفتح على أساليب التفكير الغربية.. ولأن الفلسفة محرك المجتمع الصيني بقواعده الشعبية والنخبوية على حد سواء ظلت الكونفوشسية صاحبة الكلمة الفصل نظراً لتجذرها في التقاليد الاجتماعية منذ قرابة ألفيتين ونصف الألفية... ولم تنجح "الطاوية" ولا حتى "البوذية" رغم معاصرتهما لتلك الفلسفة في التغلب عليها في عقر دارها.. فالعودة إلى "النيوكونفوشسية".. خلال العشرينيات من القرن الماضي . حين مرافقتها للشيوعية عملت على تربعها مجدداً على عرش الفلسفة الصينية اليوم... ولم يبتعد كل من "فانغ يولان" و"موزونغ سان" و"توويي مينغ" عن "الكونفوشسية" رغم تأويل الأول لهذه الفلسفة على ضوء الواقعية المنطقية والثاني انطلاقاً من النظرية "الكانتية" (نسبة للألماني "كانت") والثالث طبقاً "للبروسيس ثيولوجي" أي العلوم الدينية النسقية المنضوية داخل أطر العولمة... لكن هذا النهج الفلسفي الحديث . وأطلق عليه الدارسون "كونفوشيوسية المنبر" يواجه صعوبات جمة على صعيد فصل الطقوس الفكرية والجسدية عن المدرسة الأم... فالكادر الأنتروبولوجي/المؤسساتي لهذه الفلسفة يواجه تيارات مناهضة له تتصارع من أجل بقاء الأكثر شعبية والأقوى حجة... لكن ما الذي يميز تلك الفلسفة عن شقيقاتها الشرق . أقصوية؟؟؟ هل هي اللغة أو الكتابة بالرموز الإيديوغرامية (حيث الرمز يمثل كلمة كاملة) أو طريقتها في فهم العالم وتغيره بأساليب مختلفة عن سواها؟!...

في منتصف الألفية الأولى قبل الميلاد ازدهرت في الصين مدارس للحكمة والبحث عن المعرفة وسبر أغوار النفس البشرية... عاصرت تلك المدارس نظيراتها في بلاد اليونان.. ولتتنافس فيما بينها في البلاطات والأوساط الأكاديمية... تناولت المناقشات آنذاك الطبيعة البشرية... ودوران الأزمنة... والعلاقات بين الأمراء وأفراد الشعب.. وأخلاق المحاربين و... ليتوقف تلامذة "كونفيشيوس". واسمه الحقيقي كونغ فوتسو هو" . من أشهر فلاسفة الصين (551 . 479 ق.م) مؤسس نظام أخلاقي رفيع . عند أولويات تعاليمه وتقضي احترام التقاليد المتوازنة وتجاوز الذات والإخلاص للتراث الشعبي... هذا وطرح فلاسفة "الطاوية" أتباع "لاوزي" . حوالي القرن السادس ق. م . وأندادهم أنصار "زوانغ زي" (369 . 286؟ ق.م) "وهو ينان زي" (179 . 122 ق.م) . نظرية الاتحاد مع "الداو" أي الفراغ والانعزال عن العالم... لكن أباطرة سلالة "الكين" (221 ق.م) سرعان ما أمروا بإحراق مؤلفات ابتعد أصحابها عن القوانين والأعراف المتوازية خاصة تلك التي ليست قابلة للتطبيق العملي... ثم جاءت سلالة "الهان" (206 . 220 ق.م) فعمد عدد من حكامها إلى تنظيم فهرس يجمع أبرز التيارات الفلسفية في أرجاء الإمبراطورية... ليصل عددها إلى مئة مدرسة فكرية بين تقليدية وتجريبية... وما إن ظهرت "البوذية" إلى الوجود قبل ألفيتين حتى استعار تلامذة هذه الفلسفة حفنة من المفاهيم الطاوية لتتنوع تلك الأنظمة في طروحها وتأثيراتها... لكنها لم تختلف كثيراً فيما بينها... فالفلسفة الصينية بمجملها لا تنظر إلى الزمن من خلال مسيرته الثقافية التراكمية المتطورة على غرار نظيراتها الأوربيات إنما ترى حركة الزمن دورية... فالثورة على سبيل المثال ليست إلا عودة إلى حالة سابقة لحدوثها... كذلك الأمر بالنسبة للإله الواحد الكلي القدرة الحامل هم الإنسان ومصيره.. "فالداو" طاقة فراغية تولد قوتين متكاملتين متجابهتين: "الين" و"اليانغ"... تنتمي تلك الطاقة لفراغ يسمو فوق الوجود المادي لتتصل بالنهايات والأخلاق... ولأن الفلسفة الصينية رغم تعددها وتشعبها لا تملك خطاباً ثيولوجياً اهتمت بشعور الإنسان في علاقته مع الأفكار أكثر من تركيزها على طبيعة تلك الأخيرة... ألم تلتزم الصين بترجمة التاريخ على أرض الواقع؟! فما من ثقافة تناولت تاريخ أمتها كتابياً كما فعل المؤرخون والفلاسفة في الصين... إذ استخرج هؤلاء العِبَرَ والدروس لتسيير الأمور الراهنة... وليغدو المستقبل صورة طبق الأصل عن الماضي... فالصين المعاصرة تحكمها

الأفكار وإيديولوجيات الشيوعيين والليبيرالين على حد سواء... ولأنها تجل الماضي بشكل لا مثيل له ينظر المفكرون الصينيون إلى المستقبل نظرة كونفيشيسية أي "الفرد يقرر مصيره عن طريق إغناء ذاته بالثقافة والمعرفة"...

"تشوانغ تسو" أنموذجاً...

من يقرأ تساؤلات "تشوانغ تسو" يدرك أن الفلسفة الصينية أقرب إلينا اليوم مما كانت عليه بالأمس.. فرغم ظهور هذا الفيلسوف في القرن الثاني قبل الميلاد إلا أن تعاليمه ظلت تنبض بالحياة عبر العصور لكونها تتناول استقلالية الفكر وطواعية اللغة... وهاهو الباحث الفرنسي "جان فرانسوا بيلوتير" في كتابه الذي صدر العام الماضي عن دار "اكيا" وعنوانه "دراسات حول تشوانغ تسو" يعطي هذا الفيلسوف حقه في تأسيس الفكر الصيني الأساسي.. يقول الباحث: "إن تساؤلات تشوانغ تسو وحوارياته تحدثنا عن حياتنا اليومية: عن حريتنا وإنسانيتنا؛ عن السلطة أكانت صينية أو سواها في قيادة المجتمع... من هنا جاء انسجام تعاليمه مع توجهات الأرستقراطية المتعلمة إلى جانب تأييد فئات المتشككين والمتصوفين وحتى الثوريين الماركسيين له"....

فالجانب الاجتماعي يقول "تشوانغ تسو" هو بحد ذاته شر لابدّ منه... تحكمه التقاليد = التشبه بالآخرين إلى جانب الصراع من أجل البقاء"... ورغم أن هذا الفيلسوف متشائم في جوانب من تفكيره إلا أنه ليس ساخراً.. إنه لا يقول أن الأمير يملك الحق الإلهي حين يفرض سلطته كما فعل المفكرون القانونيون التجريبيون... ثم إن "تسو" لا يدعو إلى موقف لا مبالٍ بالنسبة لهذا الشر... إنه يرى أن على الفيلسوف دراسة هذه النزعة نحو الشر عن كثب في محاولة لتفكيكها في ذاته وعند الآخرين وهذا أقصى ما يمكن أن يقوم به الإنسان حسب نظرياته... فعالم الجنس البشري سطحي أي المجتمعات الإنسانية محدودة الرؤية ومصابة بجنون العظمة وعشق الأرقام: ألا ينظر المجتمع إلى السماء من خلال ثقب غصن الخيزران؟ أما الكائن الذي يتبع "الطريق" فهو تلقائي يغير مواقفه طبقاً لأهوائه بحيث لا نستطيع أن نمسك به ليظل ثابتاً خاصة وأنه لا يملك نوايا مسبقة الصنع... ألا يعلم أن الجحيم

مرصوف بالنوايا؟ وأن بإمكانه البقاء قابعاً في زاوية النسيان؟ يدرك العاقل أن باستطاعته مواجهة الآخر ليظهر الوجه الحقيقي للفيلسوف "تسو" الذي لا يجيب على أية أسئلة تتعلق بعالم ما وراء الطبيعة لأنه منغمس في رسم مخيلة جديدة تنسجم مع الحقيقة المكتشفة تدريجياً عبر المتغيرات والمستجدات الثقافية... ورغم محاولة البعض تصنيفه في قائمة الفلاسفة "الطاويين" وأحياناً بين أتباع "الكونفوشسية" إلا أن تلامذته اليوم في طليعة مدرسة علم الاجتماع الصينية وأشهرهم: "اكزيا ووتونغ".. وقد تأثر هذا الأخير بـ "مالينو فسكي" وصاحبه "هوشيي" الذي اعتمد نهج البراغماتية الأمريكية.. ألم تطرح أكاديمية العلوم الاجتماعية مؤخراً دراسة حول شرعية الفلسفة الصينية المعاصرة؟! تلك التي تسعى لتطبيع التقاليد "الكونفوشوسية" و"الطاوية" لتتأقلم مع العولمة الثقافية الجديدة؟! فظهور الليبراليين في العشرينيات في القرن الماضي كان وراء الدعوة إلى اعتناق مبادئ الفلاسفة الغربيين إلى جانب مطالبة المحافظين الجدد بإعادة قراءة الكتب الفلسفية الصينية بمنظار جديد في حين تأثر التيار اليساري الجديد بتعاليم "ماوتسي تونغ".. وسرعان ما عرفت الفلسفة الصينية بُعدها الثالث حين نزل الأنثولوجيون "علماء الأعراق والسلالات البشرية إلى الساح للقيام بدور جديد في المجتمع معتمدين على الفلسفة الأنثروبولوجية (علم الأجناس)...

طريق "الطاوية"...

على غرار السائح الذي يتوجه اليوم إلى "بيجين" وليس "بكين" كذلك يهتم الدارسون اليوم "بالداو" وليس "بالتاو" -نسبة إلى الطاوية.. يقول "هوينان زي" في دائرة معارفه: "فلاسفة الطاوية" ترجمة "شارل لوبلون" عن دار غاليمار "الابلياد" صدر عام 2003: "نحن الآن جنوب الصين في القرن الثاني ق.م أيام حكم سلالة "الهان" حين يحمل "ليوان" لقب الحاكم ولم يتجاوز السابعة من عمره.. إنه طفل يعشق المطالعة والموسيقى والكتابة ولا يهتم مطلقاً بالصيد أو الفروسية على غرار نبلاء... عصره يصبح في الخامسة عشر من عمره أمير مقاطعة "هوينان"... وما أن يتربع على هذا العرش حتى يستقبل العلماء والأدباء الوافدين من أنحاء الصين للتزود بمعارفهم....

في الأربعين من عمره يغدو أديباً مرموقاً.. لكن في تلك المرحلة يتوّج ابن شقيقه "ووه" إمبراطوراً ليتم اغتياله بعد فترة وجيزة... خلّف هذا الأمير قصصاً وروايات وكتباً فلسفية تتمحور حول "الواو" أي "الطريق هنا" الذي يحدد مسار كل مستجدات حياة البشر... إنه مبدأ يعتمد على التناوب المعرفي "الين يانغ"... بواسطته نستطيع سبر علوم الفلك والتاريخ والكيمياء والطب والموسيقى والحرب وعوالم النباتات والحيوان والميثولوجيا لأنها أي تلك المعارف ذات أصداء "غان يينغ"... فالسماء دائرية.. صداها يغطي المعمورة... والأرض مربعة يولد صداها التناسل... أما الحياة والموت فمتساويان لأن أصداءهما واحدة في حين تحدد "الفصول" إيقاع الأزمنة لذلك تظهر أصداؤها في تعاقب الشتاء والربيع والصيف والخريف..."فالداو" مرتفع جداً يقول الفيلسوف الصيني بحيث لا يمكن أن يصل إليه كائن.. وعميق جداً بحيث لا يمكن معرفة قعره.. إنه يحيط بالفراغ والزمن بحيث لا يوجد أي مخلوق خارجه أو داخله... إنه يتصل بالسماء والأرض دون حواجز... ويسهر بدون قلق... وينام دون أن يحلم... عندما تظهر الكائنات يحدد اسم كل منها..." فالقداسة في الطاوية شبيهة بالسماء عندما يبعدها الفيلسوف عنه تقترب منه وعندما يدعوها تقف في منأى... عندما يتأملها يجدها فارغة من المعاني"... ويعلق "هوينانزي" على مبادئ الفيلسوف الصيني قائلاً: "عظماء الأمس يعرفون قيمة طعم الحياة دون أن تتنازعهم الأطماع.. أما اليوم فالناس غارقة في الجشع دون أن تقدّر طعم الحياة"...

- أعلام روائية و... -

"ليو أكزينو"... "جي في"... "سوتونغ"... "يوهوا".. "لي أنغ".. "هاجين" "لاوشي"... "شو سينينغ"... "شوتيين وين".. "لواكزون".. وعشرات من الروائيين والقاصين الذين يرسمون اليوم ملامح هذين الفنين في الأدب الصيني المعاصر... نبدأ بـ "ليواكزينو" الروائي الطليعي في "أدب الندبات" كما يدعونه هناك .. و"ليو" رئيس تحرير مجلة "أدب الشعب"... نشر العام الماضي رائعته "غبار وتعرق" بعد روايتيه "موت لاوتشي" و"سمكة ذات وجه آدمي"... وينطلق الروائي من الواقع ليصف حياة معاصريه كما يقول الأديب... ينقب عن الأحداث المغمورة والتي

تناساها المجتمع... ففي روايته "غبار وتعرق" يسلط الضوء على هجرة سكان الأرياف إلى المدن من خلال قصة عدد من الفلاحين الذين حطت بهم أقدامهم في "بكين" ليقعوا في براثن مافيات لا حول لهم أمامها ولا قوة.... وحين يستنجد البطل بأقارب له في المدينة على غرار ما كان يفعل في القرية توصد في وجهه الأبواب... وكان الروائي... "ليو" . وهو من مواليد "سيشوان" عام 1942 . قد دشن المدرسة غير الشكلية في الأدب الصيني المعاصر لقبت "أدب الندبات" عام 1977.. حملت له قصته "الأستاذ" المجد الأدبي.. وتروي معاناة أحد المثقفين الصينيين خلال الثورة الثقافية... أما "هاجين" فهو ابن ضابط صيني خاض الحرب إلى جانب جيش التحرير... حصل على منحة لدراسة الأدب الإنكليزي في بلاد العم سام.. ثم نشر روايته "المستنقع" مطلع السبعينيات من القرن العشرين... وتدور أحداثها بعيد وفاة "ماو" حين ينتقل البطل "بين" وزوجته "ميلان" من عشهم الزوجي إلى مسكن واسع في حديقة العمال برفقة ابنتهم الصغيرة التي بلغت الثانية من عمرها يمارس "بين" إلى جانب وظيفته في معمل الأسمدة . هوايته في التخطيط والرسم مؤمناً أن الفنون الجميلة قادرة على مكافحة الشر... ورغم أن "بيني" شبيه بأبطال "فرانزكافكا" إلا أنه لا يحقق المجد الذي يطمح إليه في حياته.. وفي روايته الثالثة: "جنون الحكيم" لعام 1989 . ينزل "هاجين" إلى الشارع الجامعي ليرافق بطله "جيان وانغ" في مسيرته الطلابية... و"وانغ" تلميذ متميز يتوجه يومياً إلى المشفى للسهر على أستاذه البروفسور "يانغ" المثقف العتيد الذي أصيب بشللٍ نصفي... يشعر البطل أن مصيره مرتبط بمصير "يانغ" معلمه.. أليست حبيبته "ميمي" ابنة هذا الأستاذ؟! ما إن صدرت روايته الثانية وعنوانها "الانتظار الطويل" حتى حصد "هاجين" جائزتي "الناشينل بوك" و"الين فولكنر"... وتسلط هذه الرواية الأضواء على تخبط طبيب ناجح يسعى على امتداد سبعة عشر عاماً للحصول على الطلاق من زوجته أولاً والاقتران بممرضة حسناء أصغر سناً من الزوجة القادمة من الريف ثانياً.. لكن مساعيه تبوء بالفشل..

وترتحل أعمال كل من: "مويانيغ"... و"لوك سون"... و"شوتين وين".. و"شي لي"... "ويتانغ يوان".. بين الرواية والقصة القصيرة ليشكل هذا التيار مدرسة دعيت بالقصص الروائية المتوسطة الطول... فهاهو "مويانيغ" في مجموعته القصصية الطويلة وعنوانها: "طفل من حديد" يحط مع القارئ في الأرياف حيث عاش الروائي

والقاص طفولته . مواليد عام 1956 . في منطقة تعتبر أجمل بقعة في الريف الصيني وتقع شرق البلاد وتدعى "شانغ دونغ"... ولأن والده يعمل مزارعاً تناولت قصصه الحقل وزراعة الأرز والطواحين الخاصة بالحبوب . إلى جانب الفقر المخيم في تلك البقاع قبل نصف قرن من الآن.. وفي سن الحادية عشر يغادر الروائي "مويانيغ" المدرسة ليلتحق بالحقل فيعمل على زراعة الأرز وطحن الحبوب يدوياً وفي حراسة المواشي ورعاية الدواجن.. وهو ما سينقله إلى أعماله لاحقاً.. وحين يلتحق بالجيش يبدأ الشاب "مو" مسيرته الأدبية بنشر مجموعات قصصية وروايات أشهرها "خارطة الكنز" وأحدثها "الأثداء الجميلة"... ويرى النقاد في هذه الأخيرة لوحة فريسكية تصور المقاومة الصينية ضد الغزو الياباني كما تتناول اندلاع ثورة "ماو" والنهضة الكبرى وذلك من خلال حياة أسرة "شانغ وان" وبناتها الثمانية وولدها الوحيد "جنيغ تونغ" المدلل والذي يعشق أثداء النساء.. ففي مسقط رأس "يانيغ" يظل الأطفال يرضعون من أثداء أمهاتهم حتى سن الثامنة.. ولم تتغير تلك العادة الريفية حتى اليوم مما جعل مصير الفتيات مطابق لمصير جداتهن اللواتي عانين من الحرب والجوع والضغوطات العائلية والأمراض وصمدن على غرار الأديب في وجه تلك التحديات... ويعترف "مويانيغ" أن النساء أقوى إرادة وأصلب تصميماً من الرجال في رعاية أفراد أسرهم.. وكانت والدته تردد على مسامع والده حين يشعر باليأس والإحباط نتيجة المحصول السيئ هذا المثل القائل: "ما من نهر يعجز المرء عن اجتيازه"... لأن الطفل "يانيغ" كان شديد الإعجاب بالقصص التي روتها جدته رسم تلك الصور بالكلمات والأحرف في رواياته ليصدق القارئ على غرار الأديب "أن الديك يستطيع أن يتحول إلى أمير جميل" و"أن الأشجار تتكلم مع الطيور" وأن "البحيرة تشارك في أحاديث الفلاح"... أما "سو تونغ" فيكاد يختص بكتابة الرواية التاريخية وهو صاحب "زوجات ومحظيات" التي ترجمت إلى عشرات اللغات ونقلت إلى الفن السابع قبل بضع سنوات أخرجها "زانغ يمون".. حصدت عدة جوائز سينمائية.. ومن أحدث أعمال "تونغ": "رز"... تدور أحداث هذه الرواية التاريخية في الثلاثينيات من القرن الماضي لتصور صراع الطبقات عشية ثورة "ماوتسي تونغ".. يتعرض بطلها مع أسرته لفيضان يدفعه للهجرة من القرية إلى المدينة حيث تفوق قساوة الإنسان قساوة وجبروت الطبيعة وليولد الصراع من أجل البقاء مشاعر الكراهية والحقد في قلبه.. كذلك تغطي "شي لي" وهي روائية وطبيبة صينية . ولدت

عام 1957 . في روايتها الميلودرامية "أنت النهر" ربع قرن من التاريخ الصيني الحديث.. تدور أحداث "أنت النهر" بين عامي 1964 . 1989 في قرية وهمية من مقاطعة "هوبي" الواقعة على ضفاف النهر الأزرق غرب "شنغهاي".. هنا تعيش الأرملة الشابة "لالا" في حالة فقر مدقع.. و"لالا" أم لسبعة أطفال إلى جانب حملها لطفل ثامن.. ينغمس كل منهم في الحياة السياسية للصين من خلال مشاركتهم في الثورة الثقافية.. يتابع الشبان تعليمهم المجاني بعد أن عانت الأم الأمرين... ترفض "لالا" العمل في أحد المصانع وقد تفرغت لخدمة منازل الأثرياء.. كذلك تمتنع "لالا" عن الاقتران بشقيق زوجها الذي يعرض خدماته عليها بعيد وفاة شقيقه.. وبعد عامين من انطلاقة الثورة الثقافية سنة 1966 يقضي أحد الأولاد نحبه بنتيجة إصابته بمرض عضال في حين تعاني شقيقته من حمل تسعى إلى إجهاضه.. ويتابع "الأبناء" دراستهم الجامعية لتوافي المنية "لالا" إثر بيعها دمها مرات ومرات مقابل حفنة من أكف الأرز لا تكفي لسد رمق هذه الأسرة الكثيرة العدد والهموم... ومن بين الأقلام الشابة التي بدأت تشق طريقها في عالم الرواية الصينية نتوقف عند "تيتان يوان" التي بلغت هذا العام سن العشرين.. وهي شابة متعددة المواهب تكتب الرواية وتمارس الغناء في فرقة ذائعة الصيت تدعى "تريب هوب" إلى جانب احترافها التمثيل.. تقول يوان" في مقابلة مع صحيفة "اللموند": "على غرار العديد من الشبان الذين لا يتجاوزون العشرين أشعر بالقلق والخوف من المستقبل فكل شيء يجري بسرعة في الصين اليوم.. الحياة تتغير بسرعة ولم نعد نعلم ما معنى هذه الحياة وماذا نريد فعلاً؟!.. الأجيال التي سبقتنا كانت تعرف مرشداً لها وإيديولوجيا تسير على هداها"...

ومن أحدث رواياتها "غابة من حمار الوحش".. أما زميلتها "غواكزيالو" صاحبة رواية "مدينة حجرية" فلم تبلغ سن الثلاثين. وتتوقف أحداث هذا العمل عند محطات من حياة شابة تدعى "جياينغ" تسترجع ذكريات طفولتها حين كانت تعيش في مرفأ صغير جنوب الصين... لتنتقل الأحداث من ناطحة سحاب في العاصمة "بكين".. الطابق 24 . إلى المرفأ القديم حيث يسرد الصيادون قصصاً مدججة بالأساطير سمعتها "جيانيغ" في طفولتها... وتعمل الأديبة "اكزيالو" كذلك كاتبة سيناريو وناقدة سينمائية ومؤلفة لعدد من الأفلام الوثائقية...

القصة القصيرة...

وعلى صعيد القصة القصيرة نشر "جي في" أستاذ الأدب الصيني في جامعة "بكين" عدة مجموعات قصصية مؤخراً أحدثها: "انطباعات موسم المطر".. ويتناول موضوعها قضايا اجتماعية مرتبطة بحمى الاستهلاك الذي اجتاح الشارع الصيني وبخاصة الطبقة المتوسطة التي اكتشفت كيف يدفع فجور المال الشبيبة للبحث عن المال/ الملك بالوسائل كافة.. ولا يجد لها القاص "في "حلاً سوى بالعودة إلى التراث الصيني...

والقاص من مواليد جنوب شرق الصين لعام 1964 أدار ظهره للكتابة التجارية كما ظهر في مجموعته "ندى العصافير" لعام 1996..

وأسوة بزميله "في" ينشر "اكزيان ينونغ" رائعته: "فتيان من كريستال" وهي مجموعة قصصية تدور حول مملكة الليل والاتجار بالأطفال وتقديمهم في المواخير كدمى لسواح يبحثون عن المتع الشاذة... ولأن القاص من مواليد "تاي وان" كتب عن مجتمع الأنفاق في تلك الجزيرة المتأمركة والتي تنفث فيها "المافيا" الفساد والعنف والإجرام.. كذلك يعمد "هوهوا" في مجموعته "صرخات الضباب" إلى كشف مشاكل تتعرض لها شريحة من طفولة "هونغ كونغ" و"تاي وان".. وتدور "الصرخات" حول جحيم حياة عائلة الوالد فيها دائم الخصام مع الجد الذي يرى فلذة كبده شبيهاً بالابن الضال إلى جانب كونه "دون جوان" القرية.. يدفع بطفله الصغير إلى أسرة تتبناه.. وتنتهي مغامرة الطفل المراهق حين تصاب والدته بالتبني بالجنون ليسقط هذا الفتى في مستنقع الجريمة... ويعتبر "هي هوهوا" .ولد عام 1960 وبدأ النشر في سن مبكرة . من الروائيين والقاصين الذين يجمعون بين السخرية والدراما في أعمالهم كما في روايات: "تعال نعيش" وأصبحت فيلماً أخرجه "زانغ يمون"... و"عالم متهالك" و"بائع الدم" ترجم إلى الفرنسية عند دار "أكت سود" الباريسية.. ولأن عالم القصة القصيرة متفاوت على صعيد المدارس الفنية الصينية من الواقعية إلى الخيال العالمي.. تستذكر هذه المقالة أسماء كل من "وانغ مينغ"... و"تي نينغ"... و"شوسيتنغ"... و"لو إكزون".. وسواهم من كتاب القصة المشاهير.. و"وانغ مينغ" من مواليد عام 1934 ازدحمت مسيرته الأدبية بالأحداث السياسية التي قادته من عضوية الحزب الشيوعي الصيني إلى حكومة "بكين" حيث شغل منصب وزير

الثقافة... تأتي مجموعته القصصية "ابتسامات الحكيم" التي ترجمت إلى عدة لغات أوروبية لتروي بأسلوب شيق العبر والأمثال والحكم الشعبية التي جمعها الأديب من مناطق متفرقة من الصين.. كذلك الأمر بالنسبة لزميلته "تي نينيغ . ولدت في بكين عام 1957 وعملت مع كوادر حركة الشبيبة المتعلمة على محو الأمية في الأرياف... بدأت الكتابة عام 1957 وعملت مع كوادر حركة الشبيبة المتعلمة على محو الأمية في الأرياف... بدأت الكتابة عام 1975 لتضخ في أوردة قصصها القصيرة دماء الفلاحين الصينيين وكفاح المرأة إلى جانب الرجل لبناء الريف والمجتمع الصيني المعاصر.. أما "لو إكزون" فيعتبر والد الأدب الصيني المعاصر . ولد عام 1881 وتوفي عام 1936.. تعاد اليوم دراسة قصصه القصيرة مع نشرها وترجمتها إلى اللغتين الفرنسية والألمانية... فهي مرآة المجتمع الصيني منذ مطلع القرن العشرين حتى عشية الحرب العالمية الثانية... أهم عناوينها "يوميات مجنون" و"قصة آه".. وتنتقل أحداثها إلى مدن صينية تعاني من انعكاسات الحرب العالمية الأولى على سكانها عندما كانت تلك المدن تحت سيطرة الاستعماريين البريطاني والفرنسي اللذين روجا للأفيون وتجارة الرقيق في تلك البقاع هذا وينتمي لأسرة "شو" ثلاثة قاصين من "تاي وان" هم: "شو سينيغ"... و"شوتيني وين".. "وشويتين سين".. تزوج القاص والروائي "شو" وهو رجل دين اعتنق المسيحية من أديبة ليحترف كتابة الرواية على طريقة "فيكتور هوغو" صاحب "البؤساء".. ومن أشهر أعماله "الفولاذ المنصهر"... وتسرد قصة هذه الرواية كيفية تنافس أسرتين تسعى كل منهما للحصول على رخصة استخراج ملح المناطق الجبلية عندما تجد إحداهما عرابها ميتاً إثر تعاطيه الأفيون في منزله خلال عاصفة ثلجية.. ويشكل بناء سكة حديد قطار يمر قرب المنقطة حيث تجري الأحداث خلال عام 1949 خلفية هذا العمل الأدبي... وما أن يتوفى الأب "شو" عام 1998 حتى تخلفه ابنته "شوتين هسين" . ولدت عام 1958 . في كتابة القصة القصيرة.. ومن أبرز مجموعاتها "آخر قطار باتجاه سوي".. وتتخلل تلك القصص هواجس الموت والضياع... أما شقيقتها "شوتيني وين" . من مواليد عام 1956 . فتعمل على كتابة سيناريوهات أفلام المخرج الصيني المعروف: "هوسيين" ونفذ أفلام: "أزهار شنغهاي".. و"الدمى المتحركة"و... وتقع أحداث قصصها في عالم حكماء الصين وفلاسفتها على غرار "بوذا"... و"مدينة الصيف الملتهب".. ويخضع بطل هذه القصة لرغبات أسرة سلطوية تدفعه

لفسخ خطوبته والزواج من امرأة ثرية تملك نادياً للعراة تبتزه معنوياً وجسدياً... أما قصة "شوتين وين" وعنوانها: "الجنة" فتسلط الأضواء على فضيحة انتحار ممثلة تلفزيونية معروفة في "تاي وان" اللاهية تخفي جريمة بشعة سرعان ما تكشفها إحدى الصحف المحلية الناطقة بالصينية.. فإذا أصابع الاتهام تتوجه إلى رجل سياسة متزوج أقام علاقة مع حسناء الشاشة الصغيرة الدائمة الخلاف مع والدتها المصابة بالشيزوفرينيا... ولتختتم القاصة هذه المأساة بأغنية كانت ترددها الفنانة المغدورة يقول مطلعها: "أحببت الناس لكن لم يبادلني أحد هذه المشاعر"!!

•••

المراجع :

. *لموند الكتب آذار 2004 . 2005*

. *الماغازين الأدبي الرقم 429*

. *النوفيل أوبزرفاتور 2004 . 2005*

. *الفيغارو الأدبي آذار 2004*

. *"معجم أدباء العالم"... دار "بوكان" الفرنسية...*

□□

الكاتب ـ رجل الأعمال: تشان سيانلان
الإصلاحات الصينية تساعد على ظهور أبطال جدد في الزمن الجديد[1]

- المؤلفة : أو.روديونوفا -

■ ترجمة : عدنان جاموس ■
عن الروسية

بلغت شعبية تشان سيانلان بصفته كاتباً ذروتها في ثمانينيات القرن العشرين، وذلك بعد أن نالت ثلاثة من أعماله هي: أقاصيص "الروح الجسد" (1980)، وأقصوصة "الينبوع المر" (1983)، وقصة "الأكاسيا" (1984) جوائز "عموم الصين". وقد أثارت قصته "نصف الرجل ـ امرأة" ضجّة حقيقية في الحياة الأدبية في العام 1985.

وفي التسعينيات اشتُهر تشان سيانلان فجأة بصفة جديدة. فقد أصبح رجل أعمال ناجحاً وترأس استديو الصين الغربية السينمائي المعروف باسم "تشيِنبياو". واستغل بعض منظّري الأدب هذا الوضع كذريعة مناسبة للمزاح، فوسموا مقالاتهم عنه بعناوين من نوع "نصف الكاتب ـ رجل أعمال". ومن الطريف أن الاستديو السينمائي يقع في منطقة ليست بعيدة ـ نحو 30 كم ـ عن معسكرات "العمل الإصلاحي" التي قضى فيها تشان سيانلان أكثر من عشرين سنة. كما قبع الكاتب بعض الوقت في معسكرات أخرى تقع في شمال غربي الصين بمنطقة "نينسيا"، وعلى هذا فإن جميع هذه الأماكن ـ سواء موقع الاستديو السينمائي أو مدينة

[1] من مجلة "آسيا وأفريقيا".

"اينتشوان" (وهي مركز منطقة نينسيا . خويي ذات الحكم الذاتي)، تظل دائماً تُذكّر تشان سيانلان بالمعاناة التي كابدها في شبابه. إن شعور الارتباط بنينسيا هو الذي جعل الكاتب يبقى في اينتشوان بعد إعادة الاعتبار إليه، ولم يخطر له يوماً أن يستبدل بهذه البقعة الصحراوية النائية مكاناً آخر أكثر إراحة. فهنا بالذات قد عبر الطريق من الانهيار إلى الانبعاث.

ومن الطريف أن منطقة تشينبيباو، ولاسيما القلعتين القديمتين شبه المهدّمتين، قد لفتت نظر تشان سيانلان منذ شتاء عام 1961، عندما أسعده الحظ، بعد تحريره موقتاً من "الأعمال الإصلاحية" بزيارة السوق الموسمية التي أقيمت هناك من أجل الرعاة المحليين. وقد أحدثت أنقاض القلعتين القائمتين وحدهما وسط الصحراء المغطاة بالثلوج انطباعاً عميقاً في نفس الكاتب لم يفارقه طوال السنوات التالية إلى أن جسّده بعد أكثر من عشرين سنة في وصف طبيعة المكان في قصته "الأكاسيا". ولكن قبل أن تتجسّد منطقة "تشينبيباو" فنياً على صفحات كتاب كان مقدّراً لها أن تغدو موقعاً لتصوير فيلمين سينمائيين معاً.

كان الفيلم الأول الذي صُوّرت فيه معالم تلك الأمكنة في العام 1980، هو فيلم "واحد وثمانية" (للمخرج تشان تزوتشجاو). ومن الجدير بالذكر أن مجموعة تصوير الفيلم كانت تضم المصور السينمائي المعروف "تشان إيمو أو" الذي لم يكن مشهوراً آنذاك. ولم يتعرّف المشاهد الصيني رسمياً منطقة تشينبيباو إلا في فيلم "راعي القطيع" عام 1981. وقد غدا هذا الفيلم الذي أخرجه "سي تزين" مستمداً مضمونه من قصة "تشان سيانلان" "الروح والجسد" واحداً من أشهر أفلام الثمانينيات في الصين. وفي كلتا الحالتين جرى تعريف المخرجين السينمائيين على منطقة "تشينبيباو" بمشاركة "تشان سيانلان": فأحياناً كان يصحبهم إلى هناك شخصياً، وفي أحيان أخرى كان يرسل معهم وسطاء خاصين.

ولكن لعل فيلم "الذرة الحمراء" (1987) للمخرج "تشان إيمو أو" الذي صُوّرت بعض مشاهده في "تشينبيباو" هو الذي نال الشهرة الأوسع. إن اختيار المخرج المذكور هذا الموقع لتصوير أول أعماله بصفته مخرجاً لم يكن من قبيل المصادفة، فقد أحدثت المناظر الطبيعية في المنطقة المذكورة انطباعاً لا يُمحى في نفسه منذ تصوير فيلم "واحد وثمانية".

ويتذكر "تشان سيانلان" أن المخرج "تشان إيمو أو" عمدَ قبل مغادرته المواقع

التي صوّر فيها فيلم "الذرة الحمراء" إلى طمر حذائه البالي هناك، مصرّحاً في أثناء ذلك بأنه سيترك العمل السينمائي نهائياً إذا لم يلاقِ فيلمه النجاح.

ولكن الفيلم المذكور، كما هو معروف، لم يؤدّ إلى إيقاف مسيرته الفنية، بل بالعكس رفعه إلى قمّة النجاح كاشفاً عن مواهبه الإخراجية. أمّا فيما يخص حذاءه فقد نبشه تشان سيانلان فيما بعد وضمّه إلى عدد من المعروضات التي تحتويها صالة العرض الملحقة باستديو "تشينبيباو" السينمائي.

وعلى كل حال فقبل أن يُقام الاستديو السينمائي في مكان القلعتين في أواخر العام 1992، كان قد تسنّى لكوادر "تشينبيباو"، بمساعدة تشان سيانلان، أن يظهروا في أكثر من عشرة أفلام. وهكذا فقد شاء القدر لهذه الصحراء المهجورة ولقلعتيها شبه المهدّمتين أن تُصبح بالتدريج بقعة تضجّ بالحياة ويتدفّق إليها سيل لا ينقطع من المخرجين والممثلين.

بيد أن ازدهار "تشينبيباو" لم يكن ليستمر بعد ذلك لولا الشخص الذي قدّر مزايا هذه المنطقة حق قدرها. وكان هذا الشخص هو الكاتب تشان سيانلان الذي أنشأ الاستديو السينمائي في الحقبة التي انطلقت فيها موجة الازدهار الحقيقي في مجال تأسيس الشركات من مختلف الأشكال والألوان في جمهورية الصين الشعبية.

وكان الدافع إلى انطلاق هذه الموجة، كما هو معروف، الزيارة التي قام بها دين سياو بينغ إلى المناطق الجنوبية في البلاد، وصرّح في أثنائها أن من الضروري توسيع نطاق الإصلاحات. وقد اتّسعت شعبية المشاركة في المشاريع الإنشائية التي تخضع لاقتصاد السوق إلى حدٍ جعل الكثيرين من رجال الأدب والفن يُقدمون على تجريب كفاءاتهم في هذا المجال.

وعندما بلغت الموجة الجديدة من الثورة الاقتصادية مدينة "اينتشوان" النائية في العام 1993، اجتذبت منطقة "تشينبيباو" التي استخدمت في السابق موقعاً للتصوير السينمائي انتباه مدير الثروة الحراجية الذي تقع المنطقة ضمن ولايته، فقرّر إنشاء استديو سينمائي هناك، وأعلن عن إجراء مسابقة لاختيار أفضل تصميم.

ويذكر تشان سيانلان أنه قد سمع هذا الخبر في برنامج تلفزيوني بمحض المصادفة، وأدرك على الفور أن لديه من الكفاءات ما يؤهله للنجاح في تنفيذ مثل هذا المشروع الإبداعي؛ فاتصل مباشرة بمدير الثروة الحراجية واشترى تلك البقعة بكل ما لديه من نقود.

إن المظهر الخارجي لمنطقة "تشينبيباو" المعاصرة يتحدّد بتفاصيل من الماضي التاريخي، وتتجسّد هذه التفاصيل بأبنية من عصر أسرتي مين وتسين. ففي تلك الحقبة اتّسع نطاق بناء التحصينات الترابية في المناطق الحدودية.

وأنشئ هنا عدد كبير من مباني الحراسة الحدودية، وانعكس هذا في التسميات الجغرافية، ممّا يدل على الدور العسكري الكبير الذي كانت تضطلع به "تينسيا" في الماضي. وكان من حسن حظ "تشينبيباو" أن مركز الحراسة الحدودي الذي أنشئ هناك ظل قائماً حتّى أيامنا هذه، متخذاً شكل قلعتين شبه مهدّمتين تبعد إحداهما عن الأخرى (200)م. وقد بقيت إحداهما قائمة طوال (250) عاماً. إلى أن هدمها زلزال عنيف في العام (1739)، كما تذكر الكتابات التاريخية التفصيلية التي ترقى إلى تلك الحقبة... وبعد سنتين بُنيت قلعة ثانية إلى جانب أنقاض القلعة الأولى... ولكن بعد قيام الجمهورية أهملت التحصينات والقلاع. وفي الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين اختفى معظم هذه المنشآت الدفاعية. أمّا في "تشينبيباو" فقد تحولت القلعة الثانية الجديدة إلى مساكن للسكان المحليين واستُخدمت القلعة القديمة كمنشأة لصهر الفولاذ في حقبة "القفزة الكبرى" في عام 1958. ويشكو تشان سيانلان من أن سكان "تشينبيباو" الريفيين لم يهتموا في تلك السنوات العجاف في الصين سوى بالاستخدام العملي للقلعتين دون أن يبدوا أي اهتمام بالحفاظ عليهما. وعلى كل حال فإن جهود تشان سيانلان بالذات هي التي حولت المنطقة إلى موقع للتصوير السينمائي والسياحة. وهكذا بدءاً من عام 1993 نُفخت الروح من جديد في المنطقة... فما الذي يجذب آلاف الناس إلى هنا للعمل والاستجمام؟.

لقد تعمّد شيان سيانلان ألا يتحوّل الاستديو السينمائي هناك إلى موقع محصور ضمن أطر عصرٍ تاريخي معيّن كما هو الحال في بقية استوديوهات الصين. فمن المعروف أن هناك مدناً سينمائية متخصصة تجسّد مظاهر الحياة التي كانت سائدة في عصر تان أو سون أو سواهما من العصور القديمة. ولكن تشان سيانلان سلك طريقاً أخرى، فقد كشف عن خصوصية المنطقة كما كانت منذ نشأتها الأولى بحيث تبدو للعيان على طبيعتها الأصلية دون الإيحاء بأنها تنتمي إلى عصر تاريخي معين، ممّا يتيح للمخرجين تكييفها وفق متطلباتهم التي تفرضها موضوعات الأفلام التي يبدعونها، أيّاً كان العصر الذي تجري فيه الأحداث، بدءاً من العصور القديمة وحتى أيّامنا. فجميع المنشآت القديمة التي تُكلّف إقامتُها مبالغ ضخمة في الاستديوهات الأخرى يُستعاض عنها هنا ببقايا القلعتين المهدّمتين التي لا تحتاج

سوى إلى تكاليف زهيدة لتتخذ الشكل اللازم لتصوير المناظر المطلوبة. وهكذا فإن الميزة الرئيسة التي تتمتّع بها منطقة "تشينبياو" تتمثّل في شمولية المناظر الطبيعية التي يمكن تكييفها بسهولة لتصوير المشاهد المطلوبة.

وفي الوقت نفسه فإن الصحراء الطبيعية المحلية تجتذب انتباه السينمائيين، وكثيراً ما تتضمن الأحاديث التي تدور حول الاستديو السينمائي المحلّي عباراتٍ مفادها أن "تشان سيانلان يبيع الصحراء". علماً بأن جميع هذه العبارات مُفعمة بالإعجاب الصادق بهذا الرجل الذي وجد هذا الأسلوب المبتكر لإقامة مشروع عملي يتسم في جوهره بالبساطة. وقد عبّر عنه تشان سيانلان نفسه بالعبارة المجازية الآتية:

"لقد وظّفت أول رأسمال لدي في بناء حوض مائي، وانتظرت إلى أن يلقي فيه الآخرون بفراخ السمك. وبعد أن أربي هذه الفراخ ستكون مكافأتي أن أفسح المجال للراغبين ليتمتّعوا بمرآها". وبكلمات أخرى يمنح سيانلان رجال السينما حرية الإبداع المطلقة، على أن يترك هؤلاء في "تشينبياو" الأجنحة والديكورات والإكسسوارات التي استخدموها في تصوير أفلامهم.

وهكذا تكوّنت في المنطقة موارد غنيّة جداً لتنشيط المشاريع السياحية الحرّة. فالقادمون إلى منطقة الاستديو السينمائي يتلقون عروضاً لزيارة مواقع التصوير حيث يستمعون من الدليل السياحي إلى حديث مفصّل عن الأفلام التي صوّرت هنا وعن النجوم السينمائيين الذين مثلوها. ويمكن للسياح هنا أن يتصوروا وسط الديكورات وبالملابس التي يختارونها. كما يتلقى الراغبون في الشهرة عروضاً للاشتراك في المسابقة السنوية لأفضل الأفلام القصيرة التي تدور حول موضوعات معينة. ويمكن للسائح أن يطلب تصوير زيارته للاستديو (ليس بالمجان طبعاً) علماً بأن فيلم الفيديو الذي ستُصوّر فيه الزيارة سيتضمن لقطات من الأفلام السينمائية التي سبق أن صُوّرت في أماكن الزيارة. ومن جملة أنواع التسلية المتاحة للسياح العدو على صهوات الجياد، والتجوال على متون الإبل، والرمي بالسهام، وتشكيل أشياء من الطين في ورشة الفخار المحلية. وتوجد في منطقة الاستديو السينمائي دكاكين لبيع الهدايا، ومشرب شاي، حيث يمكن مشاهدة أي فيلم صُوّر هنا، وجناح لعرض الصور الفوتوغرافية حيث تُعرض أعمال مصوّرين كبار تُظهر جماليات الطبيعة في تشينبياو. وثمّة جزء لا يتجزأ من الاستديو يتمثّل في صالة العرض التي تتحدّث

معروضاتها ومحتوياتها عن تاريخ إنشائه. ومما يثير دهشة الزوار تنوّع المعروضات في الصالة وتجديدها باستمرار.

كما تثير الدهشةَ أيضاً قدرةُ تشان سيانلان على أن يسبغ صفةَ الشاعرية على أية زاوية من زوايا الاستديو. وتزيّن الكتاباتُ المنفذةُ بخط جميل مبتكر أبوابَ مختلف الصالات والغرف الموجودة هنا. وقد نفّذ هذه الكتابات خطاطون مشهورون، وبينهم تشان سيانلان نفسه. ويقرن الزوار باستمرار بين إشادتهم بالقدرات الفنية الكبيرة التي يتمتع بها تشان سيانلان وإعجابهم بقدراته الفطرية بصفته رجل أعمال.

ومن المعروف أنه كان يهتم دائماً بالمسائل ذات الطابع السياسي . الاقتصادي، وقد كتب في نهاية سبعينيات القرن الماضي عدداً من المقالات الصحفية حول هذه المسائل، وربما بدا من المستغرب أن جزءاً كبيراً من معارفه في هذا المجال قد اكتسبه في معسكرات "العمل الإصلاحي".

ففي تلك الفترة بالذات أتيح له أن يطّلع اطّلاعاً معمقاً على أعمال كلاسيكيي الماركسية، وخصوصاً "رأس المال" وهو يحب أن يذكر هذا كلّما تسنّت له الفرصة. وقد كتب تشان سيانلان في الثمانينيات ثلاث دراسات حول الإصلاحات التي تجري في الصين. وكثيرٌ من الأفكار التي يعبر عنها بشكل فني في أعماله الإبداعية يجسّدها في المشروع العملي الذي ينفذه على أرض الواقع. وبما أن خدمة السياح تشكّل نواة هذا المشروع فإن سيانلان يولي شؤون التعامل مع العاملين لديه عنايةً كبيرة، وهو لا يُحجم عن دفع أية مبالغ يتطلّبها تدريبهم، بما في ذلك إيفاد الأدلاء لاجتياز دورات تدريبية في المدن الكبرى. وهو يُجري استطلاعات شهرية للرأي في أوساط العاملين لديه. وهذا كلّه يؤدي إلى اتساع شعبية تشينبيباو، إذ يؤم هذه المنطقة النائية في ذروة الموسم عدد يصل حتّى خمسة آلاف سائح يومياً. وتزيد حصيلة بيع بطاقات الدخول وحدها في تلك الأيام عن مئة ألف يوان (الدولار= 8,27 يوانات).

ومن أهم المنجزات التي حققها الكاتب تشان سيانلان بصفته رجل أعمال: أولاً . إحياء منطقة تتميز بقيمةٍ تاريخية كبيرة، وعرضها للجماهير الواسعة، وكذلك الحفاظ على المنشآت القديمة. وثانياً . الإسهام بقسط ملموس في تطوير السينما. فمنذ عام 1980 وحتى عام 2001 كانت منطقة "تشينبيباو" هي الموقع الأساسي تارة والإضافي تارة أخرى لتصوير (52) فيلماً روائياً.

ونذكر من جملة الأفلام المشهورة التي صورت هنا في تسعينيات القرن الماضي فيلم "الشيخ والكلب" (1993) و"حول رحلة إلى الغرب" (1996) و"وادي النهر الأحمر" (1996)، وقد حازت بعض الأفلام التي صورت في المنطقة على اعتراف دولي، ممّا أفسح المجال أمام السينما الصينية للوصول إلى الساحة العالمية. ومن هذه الأفلام: "راعي القطيع" (1981)، و"الذرة الحمراء" (1987)، و"أغاني نهر هوانخيه" (1989).

ثالثاً . تعاظم شعبية نينسيا وإينتشوان، ويشترط تشان سيانلان على منتجي الأفلام التي تُصوّر هنا أن تتضمن الكتابات التي يُختتم بها الفيلم بضعة أسطر مكرّسة لشكر من قدّموا لهم مواقع التصوير في "تشينبيباو".

وهكذا فقد قدّم تشان سيانلان مثلاً ساطعاً على إمكانية إحراز النجاح حتّى في مجالٍ من نوعيةٍ خاصة:

مثل "بيع الصحراء". وإذا ما تكلّمنا على مكانة الاستديو السينمائي عند سيانلان نفسه، فلابد من أن نذكر أنه على الرغم من افتخاره به، كما يعترف، يظل الإبداع الأدبي هو هواه المفضّل. وقد بلغ عدد كتبه المنشورة بدءاً من العام (1993) ستة كتب هي: ثنائية "شجرة الكشف عن بصيرتي" (1993)، وقصة "استحالة الاستيقاظ"(1994)، ومجموعتا مقالات "خارج أطر النثر" (1996)، و"الركض وراء الحكمة" (1997)، وبحث "شيء عن الصين" (1997)، وأيضاً مجموعة "مرحلة النضج" (1999)، التي تتضمن قصة بالعنوان نفسه، وعدداً من التحقيقات.

ومن الجدير بالذكر أن أشكال النشاط المختلفة التي يمارسها تشان سيانلان لا تتناقض وتتنافر، بل على العكس، تتداعم وتتكامل. فالمعارف التي اكتسبها من كونه صاحب مشروع عملي حر تخلق لديه دافعاً لإبداع بعض الأعمال الفنية الجديدة.

ومن هذه الأعمال يمكن أن نذكر كتاب "شيء عن الصين" الذي يعالج فيه الكثير من المسائل الاجتماعية . الاقتصادية في المجتمع الصيني المعاصر. وعندما يقارن تشان سيانلان بين عمله الإبداعي ونشاطه التجاري يرى أنه في مجال الأعمال التجارية يقع تحت سلطة السوق والناس الآخرين في حين أنه عندما يمارس العمل الإبداعي يشعر بأنه هو الذي يسيطر على مصائر أبطاله.